الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 76 - May 2005

مجلة شهرية . العدد السادس والسبعون . السنة السابعة . مايو ٢٠٠٥ . الثمن عشرة جنيهات



عولمة الأديان .. تجديد البابوية وإمامة المرأة / سلامة أحمد سلامة

لبنان بين مشهدين / فؤاد مطر ■ محمد مندور .. لمحات من حياة / رجاء النقاش ■ الساحر .. باولو كويلهو / بهاء طاهر ■ لا ضوء فى نهاية النفق / أيمن الصياد

فنون هندية

ثروت عكاشه

السنة السابعة
العدد السادس والسبعون
مايو ٢٠٠٥

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

• سلامة أحمد سلامة ٤
«عولمة الأديان: تجديد البابوية وإمامة المرأة»
• فؤاد مطر ٦
«لبنان بين مشهدين»
• غسان الإمام ١٦
«البابا.. اللغز»
١- *His Holiness: John Paul II and the Hidden History of our Time*، تأليف: كارل بيرنشتاين وماركو بوليتي
٢- *Veil: The Secret Wars of the CIA*، تأليف: بوب وودوارد
٣- *A Thief in the Night: Death of pope John Paul I* تأليف: جون كورنويل
• ستيفن زونس ٢٢
«عامان على الغزو.. العراق إلى أين؟»
• روبرت كوتريل ٢٦
«بوتين.. القيصر»
١- *Cold Peace: Russia's New Imperialism*، تأليف: جانيوسز بوجاجسكى
٢- *Inside Putin's Russia*، تأليف: أندرو جاك
• عماد البشرى ٣٢
«بريطانيا نموذجًا.. الديمقراطية عندما تنتهك حقوق الإنسان»
• رجاء النقاش ٣٨
«محمد مندور.. لمحات من حياة رائد كبير»
• ثروت عكاشه ٤٤
«فنون هندية»
الفن الهندى.. تأليف: ثروت عكاشه
• بهاء طاهر ٥٢
«الساحر.. باولو كويلهو»
١- مقدمة الكاتب لترجمة كتاب *L'Alchimiste* تأليف: باولو كويلهو
٢- ساحر الصحراء، تأليف باولو كويلهو، ترجمة: بهاء طاهر
• جلاوكو أورتولانو ٥٥
«ظاهرة برازيلية»
• جوان أرياس ٥٧
«خارج عن النظام»
• حسن أبشر الطيب ٥٨
«حقيبة الفن السودانى»
• شوقى ضيف ٦٤
«عندما ينظر الكاتب إلى نفسه»
الترجمة الشخصية، تأليف: شوقى ضيف
• عبد العظيم أنيس ٦٧
«شهادة للتاريخ»
ذكريات من حياتى، تأليف: عبد العظيم أنيس
• عُبادة كُحيلة ٦٩
«رءوف عباس فى سيرته الذاتية»
مشيناها خطى، تأليف: رءوف عباس
• إصدارات جديدة ٧٤
• أيمن الصياد ٨٢
قراءة: «لا ضوء فى نهاية النفق»

كتَّاب العدد:

- أيمن الصياد .. صحفى.
- بهاء طاهر.. روائى مصرى.
- ثروت عكاشه.. كاتب موسوعى.
- جلاوكو أورتولانو.. روائي برازيلي، كما يعمل أيضا محررا مساعدا بمجلة الأدب المعاصر.
- جوان أرياس.. صحفية إسبانية.
- حسن أبشر الطيب.. ناقد أدبى سودانى.
- رجاء النقاش.. ناقد أدبى.
- روبرت كوتريل.. مراسل مجلة الإيكونوميست فى وسط أوروبا.
- ستيفن زونس.. أستاذ العلوم السياسية فى جامعة سان فرانسيسكو
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- شوقى ضيف.. رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- عُبادة كُحيلة.. أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة
- عبد العظيم أنيس.. أستاذ الإحصاء الرياضى المتفرغ بجامعة عين شمس
- عماد البشرى.. مستشار مساعد بمجلس الدولة المصرى.
- غسان الإمام.. صحفى سورى مقيم فى باريس.
- فؤاد مطر.. صحفى لبنانى.

رسوم العدد للفنان
محمد حجى

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص. ب: ٣٢ البانوراما. مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩. فاكس ٤٠٤٨٥٤٦. subscription@weghatnazdr.net

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية. السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير. اليمن ٣٠٠ ريال. فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

نون

سلامة أحمد سلامة

عولمة الأديان: تجديد البابوية وإمامة المرأة

■■ بدا العالم قبل أحداث سبتمبر ٢٠٠١ واضح القسمات والتقسيمات.. الدين فى ناحية والسياسة فى ناحية أخرى لا يختلطان، وإن حافظ كل منهما على موقعه ونفوذه.. الكنيسة والزعامات الدينية فى الغرب تُذعن لمبدأ صارم استقر منذ قرون يؤكد فصل الدين عن الدولة، والدولة بأحزابها وقواها السياسية والفكرية تؤكد علمانيتها وتعمل على إقصاء الكنيسة تماماً عن اللعبة السياسية والحزبية، حتى وإن حرص السياسيون على الحصول على دعم الكنيسة من وراء ستار، والمشاركة أحياناً فى المناسبات الدينية كسباً للشعبية بين بعض الطبقات فى مواسم الانتخابات.

فى مقابل ذلك لم تنقطع العلاقة بين الدين والسياسة فى العالم العربى والإسلامى، بل تحورت وتطورت من الدعوة إلى الخلافة فى عهد الدولة العثمانية، إلى الأصولية الإسلامية بمراحلها المختلفة: السلفية والإخوانية والشيعية. وانتهاء بالتيارات الراديكالية والجهادية والتكفيرية، التى جمعت تحت سقف واحد درجات من العنف والمواجهة مع النظم السياسية ثم مع الولايات المتحدة الأمريكية والعالم، دون أن تكون قادرة على الإجابة عن أسئلة العصر وتحدياته، حتى وصلت ذروتها فى البنلادنية وتنظيم القاعدة.

وفى كل هذه التحولات المرحلية، أبقت النظم الحاكمة فى العالم العربى على علاقات ملتبسة مع القوى الدينية. سواء تلك التى عبرت عن نفسها فى صورة المؤسسات الدينية التقليدية، أو فى التيارات الأصولية. وفى كل الأحوال لم يعرف العالم العربى نظاماً علمانياً على النمط الغربى، ولا حتى على النمط التركى. وكان هذا الالتباس سبباً فى حالة التخلف التى رانت على المنطقة العربية، فأقعدتها عن اللحاق بالنهضة والإمساك بروح العصر.

ثم جاءت ظاهرة العولمة التى بسطت سيادتها على العالم كله بتجلياتها السياسية التى تتمثل فى الحريات المدنية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وبتجلياتها الاقتصادية التى تمثلت فى حرية السوق والتجارة وانتقال رءوس الأموال، وبتجلياتها الثقافية والمعرفية التى أسقطت ثورة الاتصالات الحواجز أمامها فانفتحت آفاق الثقافة والفكر والفن على اتساع العالم.

لا يوجد شك الآن فى أن العولمة كظاهرة تدفعها قوى كثيرة وتتحرك بديناميكية ذاتية، قد بسطت سلطانها أيضاً على الوعى الدينى وعلى الحركات الدينية فى الغرب وفى أرجاء العالم. فالسياسات الأمريكية الراهنة التى يقودها الرئيس بوش تلتزم بقدر كبير من تعاليم الفكر المسيحى القائم على المذهب الكالفنى البروتستانتى أو بعض فروعه، وتستند إلى تأييد تحالف بين اليمين المسيحى والصهيونية، عبرت عن نفسها فى كثير من المواقف، والتزم بها الرئيس بوش فى خطبه وتصريحاته التى اتسمت بنزعة تبشيرية مسيحانية لا تخفى على أحد.

وأخيراً جاءت جنازة البابا يوحنا بولس الثانى، التى شهدت حضور أكثر من مائة زعيم ورئيس من أنحاء العالم، وما لا يقل عن مليونى شخص تدفقوا من أنحاء أوروبا وأمريكا لتشييعه لمثواه الأخير.. لتعكس صورة تشى بمعانى العولمة الدينية، وما يكنه الغرب من تقدير واحترام للدور التجديدى الذى لعبته الكنيسة على يد البابا الراحل فى مقاومة النازية والشيوعية. كما لعبت من حيث أراد العلمانيون أو لم يريدوا دوراً فى هزيمة الشمولية الماركسية، واستعادة أوروبا الشرقية إلى صفوف الغرب، ومعها روسيا أكبر دولة نظّرت للإلحاد والعلمانية. ومن هنا يدرك سياسيون علمانيون - من أمثال شيراك وبلير وشرودر - أهمية النفوذ الروحى والأدبى للكنيسة فى عالم السياسة.

وقبل أن يقع الاختيار على البابا الجديد، كان الجدل الدائر وراء الكواليس فى الفاتيكان وخارجه، حول ضرورة اختيار خلف له يملك من العلم والاستنارة ومواكبة روح العصر ومنجزاته الفكرية والعلمية، ما يمكنه من الإبقاء على حرية «الاختيار» فى شئون الدين، وفى العلاقات الجنسية، وفى قضايا الإنجاب والإجهاض والإيدز. وأن يتخذ موقفاً معتدلاً إزاء الأديان الأخرى، وعلى وجه التحديد إزاء الإسلام الذى اتسعت هوة التوتر بينه وبين الغرب. وعندما وقع الاختيار على البابا الجديد، الساعد الأيمن للبابا السابق، بدا واضحاً أن بنيديكت السادس عشر سوف يواصل نفس السياسات وإن عرف عنه تشدده العقائدى والتزامه بمبادئ العقيدة.

وربما كان من أصعب التحديات التى ستواجه الكنيسة فى ظل التيارات الكاسحة للعولمة كما تواجه غيرها من الأديان والمذاهب بما فى ذلك الإسلام، تلك المشاكل الوجودية والحياتية التى تتعلق بالتقدم العلمى الذى أنجزته أبحاث الهندسة الوراثية والاستنساخ والنانو - تكنولوجى، وفى مدى قدرة الأديان على مواجهة تيار «الردة الصامتة» التى صرفت نسبة كبيرة من أتباع الديانات عن ممارسة شعائرها من ناحية فاعتبرت الدين سلعة استهلاكية يمكن المفاضلة بينها، أو ولدت تيارات للتطرف الدينى والتعصب أثارت موجات عاتية من الفتن الطائفية ذات البعد السياسى من ناحية أخرى، لا تقتصر على دول العالم الثالث بل تمتد إلى الغرب على اتساعه.

ففى الدول الأوروبية - هولندا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا على سبيل المثال - التى تتظاهر بانتهاج مبدأ الفصل الصريح بين الكنيسة والدولة، شهدت السنوات الأخيرة صدامات دامية بين الأغلبية الساحقة من مواطنيها المسيحيين، من الكاثوليك والبروتستانت، مع الأقليات المهاجرة من آسيا وأفريقيا من المسلمين.. ولم تكن هذه الصدامات نتيجة أسباب اجتماعية واقتصادية أو منافسة على أماكن العمل بقدر ما لعب فيها عنصر اختلاف الدين والثقافة والعادات دوراً رئيسياً. فقد ضاق صدر هذه المجتمعات بما تدعيه من القبول بالتنوع الثقافى والعرقى. ولم تنجح الأقليات فى التكيف والاندماج الذى لم تعد ترضى به المجتمعات الأوروبية بديلاً عن الذوبان الكامل والتخلى عن ثقافتها ولغتها وطريقة حياتها، إرضاء للمجتمعات التى قبلتهم للعيش بين ظهرانيها.

وإذا كانت الكنيسة قد أقصيت فى الغرب عن مقاربة السياسة بأى شكل، إلا أنها مازالت تمارس نفوذها الفكرى والأخلاقى فى مواجهة التيارات العلمانية المناهضة. فقبل أيام من وفاة البابا يوحنا بولس الثانى ثارت فى الفاتيكان وفى الدوائر الكاثوليكية ضجة كبرى حول رواية «شفرة دافنشى». وطالب متحدث باسم الفاتيكان جميع المسيحيين فى العالم بالامتناع عن شراء الرواية وقراءتها، بعد أن وزعت ٢٥ مليون نسخة وترجمت إلى ٤٤ لغة وجرى التعاقد لإخراجها فيلماً سينمائياً.. وذلك بعكس السلطة التى مازالت ممنوحة للأزهر والمراجع الدينية فى بلاد عربية أخرى بمنع الطبع والمصادرة لما يمكن أن يعد كتباً خارجة عن الدين.

وقصة هذا الكتاب «شفرة دافنشى» الذى أزعج الكنيسة الكاثوليكية وأثار قلقها تقوم على مقولة يمكن أن تهدم مبادئ الكنيسة من أساسها. وهى أن السيد المسيح تزوج مريم المجدلية وأنجب منها أطفالاً. ولكن رجال الكنيسة تعمدوا تلطيخ سيرتها وتشويه سمعتها كواحدة من حواريى المسيح

وخلصائه. واعتبروها مجرد غانية ترمز إلى الخطيئة. وتذهب الرواية إلى أن الكنيسة كانت بحاجة إلى إقناع العالم بأن النبى الفانى يسوع المسيح كان كائناً إلهياً، وذلك للحفاظ على قدسية يسوع الإله من ناحية، وذكورية الكنيسة التى ترفض دخول المرأة سلك القساوسة فى الهيراركية الكنسية من ناحية أخرى. ولهذا عمد الإمبراطور الرومانى قسطنطين كما يحكى الكتاب إلى جمع الأناجيل التى تضمنت وصفاً للمظاهر الإنسانية الفانية من حياة المسيح وحرقها.. إلا أن الرسام العالمى ليوناردو دافنشى. هكذا تقول القصة. سجل هذه الحقيقة فى لوحته الشهيرة «العشاء الأخير» للفت الأنظار إلى أن يسوع والمجدلية كانا زوجين، وأن الكنيسة هى التى أضفت صفة الألوهية الكاذبة عليه، واستغلها رجال الدين على مر القرون لتوسيع نفوذهم.

ليس من الضرورى أن تعبر هذه الرواية عن أية حقائق عقائدية تتعلق بالفكر المسيحى، ولكنها تدل على أن المعارك مازالت تدور فى الغرب بقوة بين الوعى الدينى المسيحى والوعى العلمانى الذى خيل إليه أنه كسب معركة فصل الدين عن الدولة فصلاً نهائياً بغير رجعة. وهو ما يشهد على أن التيارات الدينية تأتى فى صورة موجات متعاقبة، وأن الغرب يشهد فى الوقت الحاضر إعادة إحياء لشكل من أشكال الوعى الدينى الحداثى، ليس بالضرورة فى صوره القديمة التقليدية، ولكن فى صورة أكثر حداثة.. إنه وعى من نوع آخر، لا هو دينى صرف ولا هو علمانى صرف، بل يقوم - طبقاً لما تؤكده الدراسات الاجتماعية الحديثة. على منظومة من الرموز والدلالات التى تشبع الحاجات الدينية للإنسان.

فإذا انتقلنا إلى ظاهرة الصراع الثقافى الراهنة فى العالم الإسلامى، فإنها تبدو امتداداً طبيعياً لموجات العولمة الكاسحة التى تسعى إلى المزج بين الوعى الدينى والوعى العلمانى، أو بين الأصولية الدينية والأصولية العلمانية.

وفى هذا السياق يمكن اعتبار الجدل الذى دار مؤخراً حول «إمامة المرأة» فى الصلاة جانباً من مشكلة عامة تدور حول مدى مواءمة التشريعات الإسلامية لمقتضيات الظروف الثقافية والمعيشية المعاصرة فى الغرب، والذى تنتقل منظومات القيم وموجات الحداثة منه إلى التجمعات والجاليات الإسلامية التى أقامت واستقرت فيه

الوعى الدينى الحداثى لا يأتى فى صوره التقليدية القديمة، بل فى صور أكثر حداثة.. فلا هو وعى دينى صرف ولا هو وعى علمانى صرف، بل يقوم على منظومة من الرموز والدلالات تشبع الحاجة الدينية للإنسان

لأجيال متعاقبة. ومن ثم إلى المجتمعات الإسلامية والعربية فى الشرق، ربما بسرعة أقل.. ولكنها تصل وتؤثر على كل حال.

وعندما قامت الدكتورة أمينة ودود أستاذ الدراسات الإسلامية فى إحدى الجامعات الأمريكية بإمامة مصلين من الرجال والنساء فى صلاة الجمعة بمدينة نيويورك قبل عدة أسابيع، لقيت دعوتها قبولاً من البعض ومعارضة وإنكاراً شديدين من البعض الآخر.

وموقف الذين عارضوا هذا الاتجاه واعتبروه بدعة وخروجاً على الدين ولا أساس له فى فكر الفقهاء والأئمة السابقين معروف، ويستند إلى حجة تكاد تكون واحدة.. وهى أن جسم المرأة عورة، وأن من المحتمل أن يكون وراء إقدام هذه السيدة ذات الأصول الأسيوية على هذه الخطوة دوافع سياسية تستهدف التأثير على الخطاب الدينى للمسلمين. وهى حجة تلقى تأييداً واسعاً على مستوى المتخصصين وغير المتخصصين.

أما الذين وافقوا على إمامة المرأة، أو على الأقل لم يجدوا فيها خروجاً صارخاً على الدين، فقد أقاموا حجتهم على أساس أن الفكر الدينى هو نتاج ثقافى لاجتهادات بشرية تنبثق كلها من دين واحد، طبقاً لثقافة وتاريخ وبيئة مجتمعية متغيرة بتغير العصور والأزمان. فالإسلام واحد ولكن الثقافات متغيرة. وإذا كانت الشريعة قد أباحت للمرأة من حيث المبدأ أن تكون إماماً (على عكس الكاثوليكية التى لا تجيز للمرأة أن تكون قسيساً تؤم الصلاة) فإن الخلاف يكون حول الشروط والظروف التى تباح فيها إمامة المرأة. فإذا وجدت المرأة فى ظروف معينة كانت فيها الأكثر علماً وفقهاً - هكذا تمضى الحجة - فلن يكون من المعقول تقديم الرجل الجاهل على المرأة العالمة لمجرد أنوثتها!

ولسنا هنا فى مجال ترجيح رأى على آخر، ولكننا - فقط - نستدل من ذلك على مدى اتساع الفجوة داخل المجتمعات المسلمة فى الغرب، والتى تتعرض لمؤثرات ثقافية واجتماعية وسياسية بفعل العولمة وانتشار تيارات الحداثة السائدة فى مجتمعات أوروبا وأمريكا. وهى تيارات تسعى إلى التوفيق بين الوعى العلمانى الذى تفرضه مجتمعات صناعية متقدمة والوعى الدينى الذى يلبى الحاجة إلى إشباع المشاعر الدينية ولا يصطدم بمقتضيات التقدم فى القرن الحادى والعشرين. ومثل هذه الفجوة لو تركت لحالها فقد تؤدى إلى انفصام بين مسلمى أوروبا وأمريكا من ناحية وباقى مسلمى العالم من ناحية أخرى.

وقد تكرر هذا الخلاف فى قضية أخرى.. حين دعا المفكر الإسلامى الشاب طارق رمضان إلى تجميد تطبيق الحدود الشرعية. ويقصد بها الحدود الجسدية مثل عقوبات الرجم والإعدام وقطع اليد، على أساس أن التعامل مع المجتمعات الغربية التى تعيش فيها تجمعات إسلامية كبيرة العدد، أصبح يستدعى إعادة النظر فى شروط تطبيق هذه العقوبات. كما أنها من ناحية الواقع الفعلى لا تطبق فى معظم المجتمعات العربية والإسلامية لأسباب عديدة. فضلاً عن أن الشريعة تخضع لمتغيرات العصر، وتقتضى شروطاً لا تتوافر فى المجتمعات الحديثة لتطبيق هذه الحدود.

قد يرى البعض فى مثل هذه الدعاوى ضرباً من الضغوط التى تمارس دولياً لفرض نوع من الإصلاح الدينى فى المجتمعات العربية والإسلامية، حيث طالب الغرب صراحة بتغيير المناهج التربوية، وتشديد الرقابة على الجهات الدينية، وإغلاق المدارس التى يديرها أصوليون، كما حدث فى أفغانستان وباكستان واليمن والسعودية، إلا أن كثيراً من المثقفين والمفكرين يرى أن الشعوب العربية والإسلامية لابد أن تمر بمرحلة تنويرية مثلما تعرضت له الشعوب الأوروبية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ونحن نلاحظ بالفعل أن التطور الذى شهدته بعض المجتمعات الإسلامية الأسيوية الأكثر احتكاكاً بالثقافات الأخرى مثل إندونيسيا وماليزيا وتركيا، يعرضون نموذجاً أكثر مرونة وتسامحاً فى ممارسة الإسلام، يركزون فيه على التنمية والديمقراطية. ويسعون فى الوقت نفسه إلى هضم مكتسبات الحداثة العلمية والفلسفية وتفكيك ما يعد نوعاً من الجوامد التراثية التى حالت دون التقدم.. ولا يجفلون من محاولة الاندماج سياسياً واقتصادياً ومعرفياً فى التكتلات والأطر التى تحققت فى الغرب وتحددت خطوطها.

مجمل القول أن المجتمعات العربية والإسلامية لن يكون بوسعها أن تتجاهل المؤثرات الثقافية والفكرية والتكنولوجية التى تحملها تيارات العولمة، لترشيد العلاقة بين الدين والدولة أو بين الوعى الدينى والوعى العلمانى من جانب. كما لن يكون بوسعها نفى هويتها الدينية وإنكار الوعى الذى غرسته الثقافة الإسلامية من جانب آخر. وسوف تظل هذه المجتمعات مطالبة بل مسوقة بحكم الظروف الراهنة إلى العمل على تغيير الرؤية الصراعية مع العالم والتى نبتت وتعمقت مع أحداث سبتمبر ٢٠٠١. وهو ما يتطلب عملاً جاداً لتحديث الفكر الإسلامى وتوسيع المدى الثقافى والاجتهادى لاستيعاب جماعات إسلامية أخرى تعيش فى ظل ثقافات متعددة ومتنوعة. إذ تحتاج هذه التجمعات الإسلامية فى أوروبا وأمريكا إلى أفق أوسع وأعلى من ثقافة أحادية مسيطرة. وليس معنى القبول بمنطق العولمة والتعامل مع تيارات الحداثة الغربية التى تفرض نفسها بقوة على المجتمعات العربية أو بالرغم عنها.. أن تتخلى هذه المجتمعات عن هويتها وثقافتها. فالحداثة ليست نفياً للذات أو إعداماً لها. ولكنها السعى الدائب إلى استيعاب المتغيرات فينا وفى غيرنا، لكى تأتى من داخلنا ومن ثقافتنا وهويتنا، دون أن ننظر إلى استيرادها أو الإذعان لها من الخارج. والأوروبيون على اختلاف ألوانهم ومناهلهم لا ينفون ذاتهم ولا يعدمون ماضيهم، بل يعيشون فيه بأقدامهم ورءوسهم مشرئبة إلى معطيات الحاضر ورؤى المستقبل! ■



كمال جنبلاط



بشير الجميل



نبيه بري



موسى الصدر



رفيق الحريري



حسن نصر الله



ميشال عون



وليد جنبلاط



سمير جعجع



حافظ الأسد



ياسر عرفات

لبنان بين مشهدين

١٩٧٥ـ٢٠٠٥

فؤاد مطر

الحرب الأهلية اللبنانية.. ثلاثون عامًا مضت على شرارتها الأولى، التى لم تنطفئ إلا بعد خمسة عشر عامًا كاملة من الدمار والخراب. وهاهى رائحة البارود ذاتها. لا أحد يعلم . يقينًا . إن كانت تحملها رياح سوداء تبدو داكنة فى الأفق «العربى». أو تنبعث من تحت ركام الذكريات و«الحسابات القديمة». بعد أن حرك اغتيال الحريرى الهواجس..و«الشهية». وبعد أن وجدت السيارات المفخخة ذات التاريخ البيروتى الطويل طريقها مرة أخرى إلى المدينة الغاوية الجميلة. وبعدما بدا أن البعض . فى ثقافة تدمن التشبث بالماضى . يحاول إعادة عجلة التاريخ إلى الوراء. غافلاً عن حقيقة أن الزمان غير الزمان وأن السياق مختلف.

«وجهات نظر» طلبت من الكاتب اللبنانى فؤاد مطر صاحب العمل الموسوعى الضخم فى تأريخ الحرب اللبنانية. أن يطل من فوق حطام السيارات وباقات الزهور فى ساحة الشهداء على «الحرب التى كانت.. والهواجس التى بانت».

المحرر

١ . يوميات البارود.. والسياسة

■ ما أشبه اليوم اللبنانى ببعض بارحته. وفى الحالتين هنالك شرارتان، واحدة أشعلت حرباً تعددت توصيفاتها من القول إنها أهلية إلى القول إنها مذهبية إلى القول إنها حرب أطراف عربية ودولية على أرض أشبه بمناطق آبار النفط فى الصحارى الخليجية. أما الشرارة الثانية فإن ما يمكن أن تشعله ما زال فى علم الغيب، أو فلنقل إنه فى علم الذين أعطوا الأمر لاستحداث الشرارة، وإن كان من الجائز الافتراض بأن الشرارة الثانية ستهز كيانات سياسية، ونكاد نقول تزلزلها.

ذلك هو عنوان المشهد للحالة الأولى التى لم تعد خفايا دهاليزها لغزاً كما هو لغز الحالة الثانية التى اقتحم العالم من خلال مجلس الأمن أسوارها غير عابئ بالاعتراضات والتحفظات والاعتبارات الوطنية والسيادية. أما تفاصيل وحقائق وتداعيات الحالتين فإنهما بالقدر المناسب من التوضيح والتنشيط للذاكرة، إضافة إلى استحضار ما يمكن استحضاره من وقائع وحيثيات، فإنها على النحو الآتى:

حدثت الشرارة الأولى يوم الأحد ١٣ أبريل عام ١٩٧٥ عندما اعترضت سيارتان صغيرتان فى محلة مسيحية مائة فى المائة اسمها «عين الرمانة» سيارة «أوتوبيس» تقل عدداً من الفلسطينيين عائدين من مسيرة نظمتها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (القيادة العامة) التى يتزعمها أحمد جبريل بالمشاركة مع أطراف ثورية فلسطينية أخرى. وقد أدى الحادث المفتعل بطبيعة الحال إلى قتل وجرح جميع من كانوا فى «الأوتوبيس» وعددهم ٢٦ .

كان أمراً يثير الدهشة أن «الأوتوبيس» لم يسلك طريقاً آخر لكى يعيد الفلسطينيين إلى المخيم الذى يعيشون فيه والواقع وسط زنار من المسيحيين والمسمى «تل الزعتر». وكان لافتاً للانتباه أنه لمجرد وقوع



لبنان بين مشهدين ١٩٧٥ - ٢٠٠٥

الحادث سارعت المقاومة الفلسطينية إلى اتهام «حزب الكتائب» المسيحى مائة فى المائة بتدبير الحادث استناداً إلى أن هذا الحزب كان بدأ حملة تعبئة نفسية ضد الوجود الفلسطينى، وأن الابن الثانى (بشير) لرئيس الحزب الشيخ بيار الجميل (والشيخ هنا لقب وجاهة يحمله مسلمون ومسيحيون فى بعض الدول العربية وليس كما هو المعروف بأنه صفة لرجل الدين) هو من يتولى هذه التعبئة مع تحضيرات عسكرية للمواجهة المخطط لها.

وبدل أن يكون رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات عامل تهدئة، فإنه وظّف الحادثة لبسط زعامته على الجمع الفلسطينى الهائل المتراكم فى لبنان داخل المخيمات أو فى عمارات متنوعة المستوى، فضلاً عن أن هواجسه من أن يقفز أحمد جبريل الذى هو ذراع فلسطينية للحكم السورى إلى موقع الصدارة بدل أن يبقى مجرد جرم يدور فى الفلك الفلسطينى العرفاتى، كانت تشغل باله. ونلاحظ أن عرفات الذى كان فى استطاعته التوفيق قدر الإمكان ومن خلال الكلام الطيب الذى يتقن صياغة مفرداته كما لا يتقنها أحد بهذه المهارة، دعا «اللوبى اللبنانى» الذى كان نجح فى استقطابه ويضم ما أصطلح على تسميته «الأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية» إلى تسجيل موقف حازم لا يقلّ حزماً عن الموقف الذى اتخذه فى الاجتماع الطارئ للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية متمثلاً فى برقية إلى الملوك والرؤساء العرب كانت كلماتها مثل الحطب اليابس الذى يزيد النار اشتعالاً، وجاء فيها «إن المجزرة التى نفذتها عصابات حزب الكتائب المسلحة ضد أبناء شعبنا الأبرياء العزّل هى مؤامرة مكشوفة لخلق فتنة وضرب الأخوة الفلسطينية - اللبنانية، وإننى أناشد القادة العرب التدخل العاجل الفعّال لإحباط هذه المؤامرة ودعوة السلطات المسئولة فى لبنان الشقيق للضرب على أيدى عصابات الكتائب الآثمة...». وما أراده عرفات تلميحاً أكمله «اللوبى» المشار إليه والذى يتزعمه الزعيم الدرزى كمال جنبلاط والد وليد جنبلاط الذى يؤدى فى مرحلة الصراع الدائر والناشئ عن الشرارة الثانية خلال النصف الأول من العام ٢٠٠٥ دوراً شبيهاً فى بعض مفاصله بدور والده على مدى سنتين، من الحرب التى بدأت فى النصف الثانى من العام ١٩٧٥ واستمرت ست عشرة سنة تخللتها بعض التهدئة. والذى فعله «اللوبى العرفاتى» كان فى بعض جوانبه بمثل ما حدث بعد ثلاثين سنة من جانب المعارضة اللبنانية التى اشتدّ ساعدها نتيجة اغتيال رفيق الحريرى. فقد طالب «اللوبى» بـ «معاقبة رؤوس مخططى المجزرة والفتنة الطائفية واقتحام المناطق التى تحتلها ميليشيا الكتائب وتطهيرها واعتقالها المجرمين جميعهم وحل حزب الكتائب وطرد وزيرى الكتائب من الحكم ومقاطعة هذا الحزب وطنياً وسياسياً وقطع كل حوار معه والمشاركة فى كل مظاهر النقمة الشعبية على مدبرى المجزرة ومن يقف وراءهم...». أما المعارضة اللبنانية فنلاحظ أنها تطالب بإقالة رؤساء أجهزة الأمن والمخابرات وكان بعضها طالب حتى باستقالة رئيس الجمهورية. وفى الحالتين الأولى قبل ثلاثين سنة والثانية التى نعيشها الآن ومنذ يوم الاثنين ١٤ فبراير ٢٠٠٥ كان التعقيد هو الجامع المشترك وكانت اللعبة السياسية متفوقة على المنطق الذى يؤدى إلى الحلول وكان الثأر السياسى هو المتأجج كالنيران فى الصدور.

> **الذى فعله «اللوبى العرفاتى» كان فى بعض جوانبه بمثل ما حدث بعد ثلاثين سنة من جانب المعارضة اللبنانية التى اشتدّ ساعدها نتيجة اغتيال رفيق الحريرى**

نبقى فى التداعيات الناشئة عن حادثة «الأوتوبيس» ونشير فى هذا الصدد إلى أن الأمور سارت على النحو الآتى:

أبدى الرئيس أنور السادات قلقه مما حدث مناشداً الأطراف بضبط النفس، وشجّع الأمين العام للجامعة العربية محمود رياض على التوجه إلى بيروت وبذل ما يمكن بذله من المساعى للتهدئة. وجاء الأمين العام إلى العاصمة اللبنانية ليجد أن التهدئة على شىء من الاستحالة حيث إن حرب المتفجرات والصواريخ (هكذا دفعة واحدة) بدأت تتسع، وأن رئيس الجمهورية سليمان فرنجية راقد فى المستشفى حيث أجرى عملية جراحية تشبه فى بعض ظروفها تلك العملية التى استجلبوا من أجلها إلى لندن آية الله السيستانى، وبذلك أخذ ميزان صراع القوى الشيعية النجفية الكربلائية يشهد اختلالاً نوعياً لمصلحة استراتيجية الاحتلال الأمريكى - البريطانى للعراق. أما رئيس الحكومة زمنذاك رشيد الصلح فإنه بدا على أهبة الرحيل مكرهاً حيث إن نصف أعضاء الحكومة استقالوا وأن بيار الجميل رئيس الحزب المطلوب رأسه من جانب عرفات وحلفائه اللبنانيين يرفض مقولة إن إسرائيل هى التى تحاول إشعال الفتنة ويطالب الصلح بالرحيل، فيرد عليه هذا الأخير وفى مجلس النواب بتحميله فى معرض الحديث عن الامتيازات الطائفية مسئولية «مجزرة الأوتوبيس». ومع أن رئيس البرلمان كامل الأسعد حذف من محضر الجلسة اتهامات الصلح للكتائب إلاّ أن بيار الجميل بدا شغوفاً بإشعال البيت ناراً وذلك من خلال استنكاره «انحدار رئيس الحكومة إلى هذا الدَرْك من اللاأخلاقية الوطنية والسياسية واستغلال المجلس النيابى لخلق فتنة». وبالمقارنة مع كلام يسمعه اللبنانيون فى هذه الأيام، وبعد ثلاثين سنة لم تمحُ من ذاكرات معظمهم فواجع تلك الأيام، لا نجد الفرق شاسعاً.. بل إن ما يقال فى هذه الأيام خلال المساجلات بين أهل السياسة أشدّ فظاظة مما كان يقال وكأنما هذه هى الصفات التى لا بدّ لمن يعمل فى الحقل السياسى العام من التحلى بها.

وصلت الحال برئيس الحكومة رشيد الصلح إلى ضرورة الرحيل ليبدأ البحث عن رئيس حكومة جديد. وفيما بورصة الأسماء تسجل ارتفاعاً لمصلحة رشيد كرامى (الشقيق الأكبر لعمر كرامى الذى لم يكن سعيه للترؤس مشكوراً أو مقبولاً عقب اغتيال رفيق الحريرى) وخصوصاً بعد اعتذار القطب الإسلامى الآخر عبد الله اليافى عن تشكيل حكومة، فإن رئيس الجمهورية سليمان فرنجية فاجأ الجميع - لبنانيين وفلسطينيين - بتكليف العميد الأول المتقاعد نور الدين الرفاعى تشكيل حكومة عسكرية وهو ما كان يتمنى رئيس الجمهورية الحالى إميل لحود لو استطاع إلى ذلك سبيلاً الإقدام عليه هذه الأيام وقبل اختيار نجيب ميقاتى الذى هو إلى حد ما من النسيج نفسه لرفيق الحريرى.

جاء التكليف ليشكّل صدمة للكثيرين، مسلمين ومسيحيين، واعتبره أقطاب السياسة من المسلمين السُنّة استهانة بهم، ومن أجل ذلك شهدت المرجعية السُنّية متمثلة بـ «دار الفتوى» أضخم تجمع إسلامى لمواجهة الحكومة العسكرية.

هنا دخل الحكم السورى على خط الصراع علناً حيث إن الرئيس حافظ الأسد أوفد إلى صديقه وحليفه الرئيس سليمان فرنجية مسئولاً مدنياً هو عبد الحليم خدام وآخر عسكرياً هو اللواء ناجى جميل. وخلال اجتماع انضم إليه كمال جنبلاط اتصل خدام بعرفات فنصحه هذا الأخير بعدم النزول إلى بيروت. وبعد ٦٥ ساعة عاشتها الحكومة العسكرية وتكاثرت خلالها الضغوط والمطالب باستقالتها ارتأى رئيس هذه الحكومة أن يستقيل وحتى من دون أن يتم

فى الحالتين الأولى قبل ثلاثين سنة والثانية التى نعيشها الآن ومنذ يوم الاثنين ١٤ فبراير ٢٠٠٥ كان التعقيد هو الجامع المشترك وكانت اللعبة السياسية متفوقة على المنطق

التقاط الصورة التذكارية للحكومة التى شكلها فى غفلة عن المشاورات التقليدية. ولمجرد الاستقالة بدأ القطب السنى رشيد كرامى السعى لتشكيل حكومة على وقع تزايد المطالبة بعزل «حزب الكتائب» داخلياً والضغط على الدول العربية لكى تفعل الشىء نفسه وهو ما أخذت به الجزائر وليبيا، وعلى وقع نداء من الرئيس السادات يدعو فيه إلى حل القضايا العالقة بين رئيس الجمهورية سليمان فرنجية ورئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات الذى بات واحداً من رموز الأزمة التى تعصف بلبنان. وإلى ذلك، بدأت التدخلات العربية تتزايد ومنها التدخل الليبى فى شخص الرائد عبد السلام جلود واتساع رقعة التعاطى السورى مع الخلافات التى تزداد تعقيداً، وكل ذلك بينما رقعة القصف والخطف والسحل تتسع ويشمل الخطف ضابطاً أمريكياً مرموقاً كان جاء إلى بيروت من باكستان فى طريقه إلى أنقرة.

لم تنفع تطمينات رشيد كرامى وتخريجاته ومنها قوله «إن جميع اللبنانيين، مسيحيين ومسلمين، باتوا متساوين فى الحرمان» فى إطفاء النيران التى كانت تزداد اشتعالاً، وكيف سيتم هذا الإطفاء ما دام كمال جنبلاط عراب «الأحزاب الوطنية والتقدمية» أى الجبهة التى باتت متبلورة وتضم معظم الزعامات الإسلامية واليسار على أنواعه والمنظمات والفصائل الفلسطينية يقول كما فعل بعد ثلاثين سنة ابنه وليد الوارث الزعامة «إنه لا عودة إلى الاستقرار إلاّ بتبديل النظام وتعديل الدستور....»، وما دامت مصر السادات لا تفعل سوى معاتبة سورية وعرفات وسوى القول للاثنين: «ارفعوا أيديكم عن لبنان». وعلى رغم انتشار الحرائق وإلى درجة أن سكان المناطق الجبلية بدأوا يرون ليلاً العاصمة بيروت كما لو أنها تحترق من أولها إلى آخرها، إلاّ أن الحوار بين الأطراف المتصارعة لا يبدأ ويسمع اللبنانيون والأشقاء العرب تصريحات حافلة بمفردات فى غاية الغرابة من بينها قول كرامى عن القطب الماروني كميل شمعون الذى سبق أن ترأس الجمهورية «إن ما ينطبق على كميل شمعون هو أن حاميها حراميها....». ثم دخلت المساجلات فى شأن دستورية بعض الخطوات والإجراءات المطلوب اتخاذها على أمل تحقيق التهدئة تحمل فى طيات عباراتها مفردات من النوع المستغرب إياه. وفيما رموز الطوائف المسيحية والإسلامية تنشط بأمل إحلال التهدئة وتطويق حالات العنف والحرائق التى استشرت، كان المبعوث الرئاسى الفرنسى كوف دو مورفيل يقول «إن المحنة تضع مصير لبنان على بساط البحث وإننا لنتساءل: هل يبقى لبنان»، وذلك لأن شبح التقسيم بدأ يقترب ومن دون أن تنفع فى تبديده محاولات التوفيق بين الأطراف أحياناً وحالات من المواقف بغرض الضغط أحياناً من نوع موقف الزعيم الروحى الشيعى السيد موسى الصدر الذى ما لبث أن اختفى خلال زيارة رسمية إلى ليبيا مع اثنين من رفاقه وما زال مصيره إلى الآن فى علم الغيب.

وإذا كانت المرحلة الأولى التى نشأت عن شرارة حادثة «الأوتوبيس» مروعة ولم تنفع فى احتواء تداعياتها بعض الصيغ التوفيقية، فإن المرحلة التى تلتها بدءاً من أواخر نوفمبر ١٩٧٥ وانتهاء بالأسبوعين الأولين من فبراير ١٩٧٦ كانت ذروة التعقيدات السياسية بعدما بدأت مراجع سياسية ودينية عربية ودولية تتعاطى بجدية مع الوضع. فهذا البابا يوحنا بولس السادس يقول يوم الأحد ٣٠ نوفمبر ١٩٧٥ مخاطباً بطريرك الطائفة المارونية فى لبنان مار أنطونيوس خريش خلال قداس مارونى فى الفاتيكان «إننا نتوسل إليكم باسم الإنجيل أن تضعوا كل ما لكم من ثقل فى لبنان لأجل تسهيل إحلال السلام والمصالحة ونستحلف مرة جديدة أيضاً جميع المسئولين أن ينتهزوا الفرصة القائمة من أجل العمل على تطوير لبنان برفضهم الانجراف فى تيار العنف من أين أتى وبوضعهم حداً للاقتتال الأخوى....». وهذا الرئيس السورى حافظ الأسد يقول لأحد زواره اللبنانيين: «لا تكونوا متشائمين. وإذا كانت إسرائيل تريد أن «تتراذل» على أى جبهة، فإن سورية مستعدة وحدها ومن دون فتح أى جبهة عربية أخرى لمجابهتها وسيرون ما لا يرى....». ومثل هذه المفردة أى «التراذل» لم نلحظ حاكماً عربياً استعملها عدا الرئيس اللبنانى الجنرال إميل لحود بعد ثلاثين سنة على استعمال الرئيس حافظ الأسد لها. وهو (أى لحود) قالها فى معرض تحليل لم يحالفه التوفيق للعملية الترويعية التى أودت بحياة رفيق الحريرى حيث وصفها بأنها فعل «رذالة» الأمر الذى قوبل بالاستهجان على المستوى العام. وهذا التوصيف لا يختلف من حيث التبسيط للحرب اللبنانية التى كانت رقعتها تزداد اتساعاً عن التشخيص الذى سمعه اللبنانيون والعرب من رئيس جمهورية لبنان سليمان فرنجية الذى قال «إن أغراض اليسار هى قلب ما فى لبنان من أنظمة وطرائق عيش وإن أغراض الصهيونية هى محو الدول المحيطة بإسرائيل وأمل ألاّ نكون نحن وإخواننا العرب مطية لليسار والصهيونية....» وهو كلام جاء الرد عليه من مرجعين مهمين: المرجع الأول إسلامى سنى فى شخص رئيس حكومة سابق وزعيم «ثورة ١٩٥٨» التى رعتها مصر عبد الناصر وأمدتها بالمؤازرة السياسية والمعنوية وبالسلاح عن طريق سورية التى قام الحكم الأسدى فيها بعد سبع عشرة سنة بدور مماثل للحرب التى اندلعت يوم ١٣ أبريل ١٩٧٥. والمرجع الذى نعنيه هو صائب سلام الذى قال رداً على تشخيص صديقه وحليفه السابق فرنجية «إنه سكت دهراً ونطق كفراً وأنه لا أمل فى عودة الاستقرار والأمن ما دام فرنجية ووزير داخليته (رئيس الجمهورية السابق) رئيسى عصابة». أما المرجع الثانى فهو رئيس «الأحزاب الوطنية والتقدمية» كمال جنبلاط الذى قال «إن فرنجية رئيس عصابة مقاتل انحاز للانعزاليين ففقد صفة الحكم والتحكم....».



باتت الحرب الكلامية شبيهة بحرب الصواريخ، وباتت بعض المفردات من هذا الطرف أو ذاك من الفريق المعارض ضد رئيس البلاد والذين اصطفوا حوله بقوة القذائف. وزاد من حدة الموقف أن الانقسام المذهبى بدا واضحاً وأن جبهة الحكم مسيحية بالكامل ولا أثر لعناصر إسلامية فاعلة معها مقابل جبهة «الثورة على الحكم» التى نقطة الضعف فيها أنها يسارية عموماً الأمر الذى أضعف شأن العنصر الإسلامى فيها.

فى هذه الأثناء لم يكن واضحاً ما إذا كان الحكم السورى يريد التهدئة أم لا. ولم يكن جلياً ما إذا كانت هذه الاجتماعات فى دمشق أو فى بيروت يعقدها كبار المسئولين مع كل أطياف الحرب اللبنانية المشتعلة هى للتسوية أم لتحضير المسرح أمام دور سورى متقدم يمسك بكل الخيوط وبذلك يتحول أطراف الصراع إلى عرائس تُحركها يد واحدة من وراء الستار أو بالأحرى من وراء ظهر العرب والعالم. ثم بدأ الصراع الخفى يأخذ أبعاداً جديدة بعدما قررت أطراف عربية أن يكون لها دورها، أو فلنقل حصتها فى الكعكة اللبنانية وهو ما فعله العراق الصدامى وليبيا القذافية والأردن الهاشمى. وفى فترة زمنية قصيرة بات لبنان ساحة احتراب لها بعض ملامح الحرب الإمامية - الجمهورية فى اليمن والقليل من ملامح جولات الكر والفر فى العراق الذى جاءه العم سام لتحريره من «بعثه المستبد» فإذا به يستعمره «ديمقراطياً» وينتزع من كل أطيافه التى بينها وبين الحكم الصدامى فرصة التغيير الذاتى مسجلاً عليهم نقطة أنه هو الذى حررهم من الحكم البعثى وأنه لو لم يفعل ذلك لكانوا لن يستطيعوا إحداث أى تغيير، ولذا فعليهم أن يتقبلوا لوحة الحكم بالموزاييك المرسوم فى «البنتاجون» و«وكالة المخابرات المركزية» لهذا الحكم مناصب وأشخاصاً وانقلاباً على الواقع المألوف. وهكذا فإنه مثلما أن وقوع لبنان فى القبضة السورية بحجة وقف الحرب وعدم التقسيم حوّلت لبنان إلى ضاحية سورية وجعلت أكثرية أهل السياسة والحزبية خاضعين للإرادة السورية طوال ربع قرن إلى أن تبدل الأمر بعد الانتفاضة الناشئة عن تداعيات اغتيال رفيق الحريرى، فإن وقوع العراق فى القبضة الأمريكية المغلفة بـ «سيلوفان» بريطانى تقوده إلى حال مماثلة. وما نراه أمامنا فى المشهد العراقى يؤكد ذلك سواء من حيث مفاجآت التعيين فى المناصب أو فى السلوك الحكومى العام والذى قد يؤسس إلى أن أمريكا ستبقى فى العراق بعدد سنوات بقاء سورية فى لبنان أو ربما أكثر... إلاّ إذا ندم الشيعة على انبهارهم بالعم سام فساروا فى ركابه ما دام أسقط لهم غريمهم صدام حسين، مع أنهم استلهاماً للرؤى الخمينية فالخامنئية يرون أن العم سام «شيطان أكبر» يبغى شراً بالمستضعفين. ومثل هذا الموقف تحاشى «حزب الله» فى لبنان الأخذ به بالروحية التى اتخذها بعض أقطاب شيعة العراق فكان الحزب بذلك بعيد النظر إلى حد ما.

عندما انقسم الجيش وتبعثر

فجأة حدث ما لم يكن فى الحسبان. ففى خضم المشاحنات والتلاسن بين أقطاب أهل السياسة كشف الحكم السورى عن نواياه،



لبنان بين مشهدين ١٩٧٥ - ٢٠٠٥

بالمقارنة مع كلام يسمعه اللبنانيون في هذه الأيام، وبعد ثلاثين سنة لم تمحُ من ذاكرات معظمهم فواجع تلك الأيام، لا نجد الفرق شاسعاً

واختار عبد الحليم خدام كوزير خارجية يمسك بالملف اللبنانى من الناحية السياسية الكويت لكى يطلق منها تصريحاً يعترض فيه على محاولات تعريب الأزمة بهدف إيجاد حل من شأنه إبعاد التدخل الدولى. ومما قاله خدام وهو فى زيارة إلى الكويت «إن محاولات تعريب الأزمة اللبنانية تعنى كثرة الطباخين وتعنى تشتيت المساعى وإننا لن نسمح بتقسيم لبنان، وأى مباشرة للتقسيم ستعنى تدخلنا الفورى لأن لبنان كان جزءاً من سورية ولسوف نعيده لدى أى محاولة فعلية للتقسيم....». وفيما ارتأى الأقطاب المسلمون ومعهم زعيم «الأحزاب الوطنية والتقدمية» وكذلك الجانب الفلسطينى عدم التوقف أمام هذا الكلام، فإن القطب المسيحى المارونى كميل شمعون، الذى كان فى الأربعينيات والخمسينيات وخلال ترؤسه الجمهورية عروبياً وبات بعد اندلاع الأزمة متزمتاً لبنانياً، رد على خدام بتصريح كانت له تفسيراته وأصداؤه المتعددة. ومما قاله بصيغة التهكم: «إن معالى الوزير خدام درس التاريخ والجغرافيا فى جامعة سعسع فى الشام ولو كان دارساً أكثر من ذلك فعلاً لعرف من الذى احتل الشام فى الزمان.. وقلعة فخر الدين ما زالت قائمة حتى الآن فى تدمر....». كذلك انبرى وزير خارجية إسرائيل شيمون بيريز فى الوقت نفسه ليحذر سورية من التدخل فى لبنان. أما الموقف المريب فكان موقف الإدارة الأمريكية التى قالت إنها «ضد تدخل أى دولة فى لبنان بما فى ذلك سورية وإسرائيل....». والقول إنه موقف مريب لأن الدور السورى فى لبنان كان طوال ربع قرن تحت بند الرضى الأمريكى أو من أجل الدقة كان بند «اللامانع» على نحو ما حدث مع الرئيس صدام حسين عندما أوحت له السفيرة الأمريكية أبريل غلاسبى بـ«اللامانع» إزاء مغامرته الكويتية التى كلفت العراق استقلاله وسيادته وكلفت الشعب العراقى هناءه وثروته وكلفت الأمة من المحيط إلى الخليج قلقاً لا مثيل له. وفى ضوء ما يحدث الآن للحكم السورى فإن الغرض العاجل من «اللامانع» لصدام حسين هو من النسيج نفسه للغرض الآجل من «اللامانع» للأسد الأب والذى وجد الأسد الابن (الرئيس بشار) بعد ثلاث سنوات على رحيل والده وتسلمه هذا الإرث الثقيل أنه قد يسدده إسقاطاً للحكم البعثى والحقبة الأسدية عموماً أو فى الحد الأدنى تحجيم هذا الحكم بعد ترويضه ما فيه الكفاية وقطع أواصره الإيرانية وإحكام الإقفال على خاصرته اللبنانية مقدمة لإدخاله فى حظيرة النظام العالمى الجديد مثل النعجة التى ترتعد فرائصها من الذئب إذ عوى.

ونحن عندما نرى أن السلوك السورى فى لبنان كان ترجمة لما أفصح عنه عبد الحليم خدام فى تصريحه الكويتى، فإننا نستند فى ذلك إلى وقائع تراكمت وتفاعلت واقعة فوق واقعة طوال عقدين من الزمن ولم يكن الحكم السورى بعيد النظر فى شأنها. وهو لو كان كذلك لما كانت الانتفاضة اللبنانية وضمن الشعار المعدل لذلك الذى سبق أن رفعه الرئيس جمال عبد الناصر فى الستينيات أى «ارفع علمك يا أخى» بدل «ارفع رأسك يا أخى».

وما يلفت الانتباه أن الهجمة من جانب بيريز الصهيونى وشمعون المسيحى المارونى على خدام أحرجت بعض الأقطاب المسلمين الذين رأوا أنه لا بد من الرد... وإن كانوا ضمناً ومنهم صائب سلام يرون أن كلام خدام فج بعض الشىء وأنه كان من الأفضل ألا يقال ما دامت مفردات هذا الكلام تزيد الموقف اشتعالاً. ومما قاله سلام نكاية بخصمه التاريخى شمعون الذى، أى سلام، قاد «ثورة ١٩٥٨» ضد حكمه وليس حباً بخدام «إن شمعون فاوض إخواننا السوريين على إقامة كيان كونفدرالى بين لبنان وسورية.. ولولا الوزير خدام لما كان كميل شمعون اليوم فى وزارة الداخلية». ولأن كلام سلام كان مثل قذيفة من العيار الثقيل فإن الخصم اللدود كميل شمعون رد على الكلام بأغلظ منه قائلاً: «كنت ولا أزال أقول إن السيد صائب سلام مصاب بمرض عضال.. هذا المرض العقلى الذى يصيب الإنسان عندما يفقد أعصابه وينهار معنوياً.. أما وزارة الداخلية فلست مديناً بها لأحد ومستعد للتخلى عنها دون تردد فى أى وقت....».

وبالإضافة إلى المفاجأة الخدامية التى لم تكن فى الحسبان، وربما كانت متعمدة، ولأن النار ازدادت اشتعالاً وفى كل المناطق وعلى ألسنة كل رموز العمل السياسى والحزبى، بدأ الكلام حول دخول القوات السورية الأراضى اللبنانية مجهزة بالسلاح الثقيل والمعدات والمصفحات، وقالت إسرائيل إنها ستتخذ إجراءات دفاعية فى حال تأكد دخول القوات السورية. ونشط رجال الدين فى محاولة لمحاصرة التطورات الخطيرة، ودعا الأمين العام للجامعة العربية إلى قمة عربية، ودخل الحكم السورى بثقله السياسى لتحقيق تسوية ووصلت الحال بالرمز الأكبر لدعاة الديمقراطية كمال جنبلاط إلى الإدلاء بتصريح قال فيه «يلزمنا حكم دكتاتورى ليخلصنا من الأوساخ التى علقت بالكثير منا، كما يجب فرض التعليم الدينى غير الطائفى على الطلاب»، يقابله تصريح للقطب الديمقراطى الأهم فى الصف المسيحى المارونى ريمون إده الذى قال «إن لبنان وقع تحت الانتداب السورى». ولأن جنبلاط كان حتى هذه اللحظة حليف الحكم السورى فإنه تصدى، مدافعاً عن دخول القوات السورية، لصديقه ريمون إده الذى بقى ثابتاً على موقف واحد حتى وفاته فى ملاذه الباريسى، قائلاً «إن العميد إده يتسرع فى أحكامه ونحن لا نعتبر أى عنصر عربى منظم جيش احتلال.. الفوضى هى الاحتلال». وتشاء الظروف أن جنبلاط الابن (وليد) رأى فى معركة المواجهة السياسية مع الحكم السورى وبالذات بعد اغتيال رفيق الحريرى ما رآه ريمون إده وأكثر.

لكن تبقى المفاجأة الأهم وبعدما كان رشيد كرامى أخفق فى الصمود كرئيس للحكومة هى انقسام الجيش اللبنانى وتبعثره كشظايا قنبلة انفجرت وأصابت القريبين منه. ولقد بدأ الحديث حول انقسام داخل المؤسسة العسكرية عندما أدلى جنبلاط بتصريح قال فيه «إننا فى حاجة إلى جيش لبنان أكثر مما يتصوره ضباطه وجنوده»، ردت عليه قيادة الجيش بنفى حدوث أى انقسام أو تفكك فى البنية العسكرية. ثم ترددت وسط تحركات سياسية نوعية أعقبها سفر رئيس الجمهورية سليمان فرنجية إلى دمشق لعقد لقاء مع الرئيس حافظ الأسد انتهى إلى إعلان ما سمى بـ«الوثيقة الدستورية»، معلومات حول توارى ضابط برتبة ملازم أول اسمه أحمد الخطيب وإلقاء القبض عليه من قبل أجهزة الأمن السورية بعد اتهامه بالمشاركة فى إطلاق النار على موكب عبد الحليم خدام الذى كان أنجز مهمة سياسية نوعية فى لبنان وعاد إلى دمشق لترتيب لقاء القمة بين الرئيسين اللبنانى والسورى. ولمجرد أن انتهت أعمال القمة بإعلان «الوثيقة الدستورية» التى تلاها فرنجية بنفسه من محطة التلفزيون اللبنانية ولم يكن منشرح الصدر وهو يتلوها حتى بدأت «حرب الثكنات» وبدأ الضابط أحمد الخطيب الذى أشرنا إليه يشارك بصفة «قائد جيش لبنان العربى» فى الاجتماعات التى تعقدها «الأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية» برئاسة كمال جنبلاط، الأمر الذى يعنى أن الرجل، أى جنبلاط، ومعه حليفه الفلسطينى ياسر عرفات لم يكونا بعيدين عن حدوث الانقسام فى الجيش

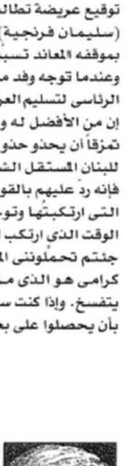
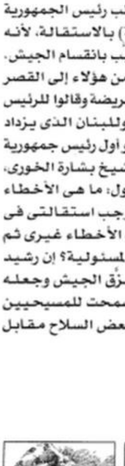
مما قاله خدام يومها «إن محاولات تعريب الأزمة اللبنانية تعنى كثرة الطباخين وإننا لن نسمح بتقسيم لبنان، وأى مباشرة للتقسيم ستعنى تدخلنا الفورى

اللبنانى الذى سيصبح انقسامه مؤشراً إلى أن الأمن اللبنانى بات معقوداً لسورية.

نحن الآن فى الأيام الأولى من فبراير ١٩٧٦ وليس فى الأفق ما يوحى بأن فى الإمكان محاصرة العنف الذى بدأ، إذا جاز التشبيه، يأخذ شكل التنين الذى تقول الأسطورة إنه يقذف اللهب من فمه. وعلى رغم ذلك وما يحدث على مدار الساعة من عمليات قتل وتفجير وخطف وقصف استمرت التلاسنات بين أطراف أهل السياسة والأحزاب، وساد شعور بين الناس يرى أنه لن يكون فى قدرة الوطن أن يبقى. وتعزّز هذا الشعور بعدما انقسم اللاعبون والمتلاعبون، أو تحديداً المتلاعبون الذين يظلنون أنفسهم لاعبين حول «الوثيقة الدستورية» التى اعتبرها رئيس الجمهورية سليمان فرنجية ما دامت حظيت بتأييد حليفه الرئيس حافظ الأسد حلاً يرضى الجميع وما دامت هذه الوثيقة تنص على بنود تخفف من وطأة الهيمنة المسيحية على القرار وتعطى رئيس الحكومة السنى وضعاً أفضل وبحيث يتم انتخابه من النواب شأنه فى ذلك شأن رئيس الجمهورية بدل أن يجرى تعيينه من قبل هذا الأخير. وإلى ذلك أنها تنص على تعزيز اللامركزية وإزالة الطائفية فى المناصب وتعزيز القدرات الدفاعية للجيش بحيث يتبدد القول الشائع عن لبنان بأن قوته فى ضعفه، إضافة إلى بنود إصلاحية كثيرة تتناغم مع مطالب المسلمين عموماً وجبهة الأحزاب التى يقودها كمال جنبلاط ويرعاها ياسر عرفات وبعض الدول العربية بالسر أحياناً وبالعلن أحياناً أخرى.

ولكن اعتقاد رئيس الجمهورية لم يكن على نحو ما يحب. فقد بدأت المطالبة من جانب كمال جنبلاط وحلفائه باستقالة الرئيس، تماماً على نحو المطالبة بعد ثلاثين سنة من قبل جنبلاط الابن باستقالة الرئيس إميل لحود... وكأنما هذا المطلب وديعة أو إرث تركه الأب لكى يأخذ به الابن. وهذه المطالبة واستمرار العنف على الوتيرة ذاتها ومقتل ضابط مرموق برتبة عقيد على حاجز جعلت حالات الانقسام داخل المؤسسة العسكرية تتأكد. وبعدما بادر العميد أول عزيز الأحدب إلى القيام بحركة انقلابية كانت الأولى من نوعها فى تاريخ لبنان وضمت ضباطاً مسلمين ومسيحيين ولقيت ترحيباً نسبياً، ردّ ضباط مسيحيون بإصدار بيانات أشبه بالبلاغات الانقلابية إنما من دون إعلان الانقلاب. وفى هذه الأثناء بدأ الضابط أحمد الخطيب يوسّع دائرة استقطاب الضباط المسلمين وبات ما يسمى بـ «جيش لبنان العربى» واقعاً ملموساً. كما أن ضباط هذا «الجيش» بدأوا المشاركة فى اجتماعات الأطراف السياسية الإسلامية الفلسطينية والناصرية الهوى. وهنا بات الأمل بالتهدئة مستبعداً تماماً. ثم أطلق رئيس الجمهورية نفسه وفى شخص ابنه طونى والد سليمان الحفيد النجم السياسى الساطع فى الوضع الراهن، العنان لأنصاره لكى يثبتوا وجودهم فى الساحة. كما أنه سمح بطريقة ما بإفراغ باخرة تنقل كميات من الأسلحة فى منطقة تخص هؤلاء الأنصار. وكان زواره يسمعونه يقول: إذا كان عندهم جيشهم (أى «جيش لبنان العربى») فأنا عندى جيشى. وإلى ذلك إنه بات كثير الانفعال بعدما لاحظ أن شخصيات مسيحية مرموقة، من بينها الشاعر سعيد عقل، تؤيد الانقلاب الذى قام به الأحدب ومن دون أن تعرف بأن وراء هذا الانقلاب صلاح خلف (أبو أياد) الرجل الثانى فى حركة «فتح» زمنذاك.

وعلى رغم «حرب الإذاعات» و«حرب التلفزيونات» و«حرب الثكنات» لم يؤكد طرف قوته وقدرته على الحسم. وفى هذه الأثناء بادر عدد من أعضاء البرلمان إلى توقيع عريضة تطالب رئيس الجمهورية (سليمان فرنجية) بالاستقالة، لأنه بموقفه المعاند تسبب بانقسام الجيش. وعندما توجه وفد من هؤلاء إلى القصر الرئاسى لتسليم العريضة وقالوا للرئيس إن من الأفضل له وللبنان الذى يزداد تمزقاً أن يحذو حذو أول رئيس جمهورية للبنان المستقل الشيخ بشارة الخورى، فإنه ردّ عليهم بالقول: ما هى الأخطاء التى ارتكبتها وتوجب استقالتى فى الوقت الذى ارتكب الأخطاء غيرى ثم جئتم تحملوننى المسئولية؟ إن رشيد كرامى هو الذى مزّق الجيش وجعله يتفسخ. وإذا كنت سمحت للمسيحيين بأن يحصلوا على بعض السلاح مقابل بحر السلاح الذى يصب عند كل الفئات ومئات شاحنات الأسلحة والذخيرة، هل هذه جريمة؟ وإذا كانوا يذكروننى بالشيخ بشارة فهو استقال فى السنة التاسعة لولايته وليس فى السنة السادسة (المدة الرئاسية التى ينص عليها الدستور). وأنا سأكمل السنة السادسة ولن أسمح لهم أن يدوسوا الدستور بسبب أهواء ركبت بعض الرؤوس.

ما الذى جعل رئيس الجمهورية يقول ذلك؟ هل هو اطمئنانه إلى «جيشه» المسمى «قوات المردة»، أى الذين يتسمون بالبأس والشدة؟ أم أنه الرهان على أن انقسام الجيش سيحسم فى نهاية الأمر لمصلحة بقائه إلى حين انتهاء ولايته الدستورية؟

قد تكون هذه المعطيات هى الدافع، إلاّ أن كلمة سر سمعها الرئيس فرنجية خلال اتصال بحليفه وصديقه الرئيس حافظ الأسد هى التى جعلته لا يتجاوب مع المطلب البرلمانى باستقالته وجعلته يردد بعد ذلك الاتصال أمام الذين يلتقى بهم: «إذا أرادوا إخراجى فلن يكون ذلك إلاّ جثة....». واللافت للانتباه أن الرد على هذا الكلام جاءه من صاحب المحاولة الانقلابية غير المسبوقة الضابط عزيز الأحدب الذى قال: «إن الشرعية التى يتحدث عنها الرئيس فرنجية لم يعد لها وجود وأنه ما دام فى الحكم فإن البلاد ستسير نحو أحطّ الدرجات....». وتزامن هذا القول مع نداء مؤثر وجهه حميد فرنجية شقيق الرئيس (ووالد سمير فرنجية النجم الساطع فى المعارضة المسيحية للرئيس لحود) يطالب فيه شقيقه بالاستقالة حرصاً على ما تبقى من أمل بإصلاح الحال. كما أن ذلك تزامن مع كلام للبابا بولس السادس جاء فيه «إن الناس فى لبنان وخصوصاً فى بيروت تُباد جماعات جماعات وأنهم هناك ينسفون جذور الحياة الاجتماعية والتعاون الممكن بين مختلف الفئات اللبنانية....».

وبعدما لم يعد هنالك مجال أمام أى تهدئة وقيام الرائد حسين عواد أحد ضباط «جيش لبنان العربى» والمشهود له (أى للرائد حسين) بدقة التصويب بإطلاق ثمانين قذيفة على القصر الجمهورى يوم ٢٥ مارس ١٩٧٦ غادر الرئيس فرنجية القصر إلى «القصر البديل» فى منطقة مسيحية مائة فى المائة وقريبة من بيروت. وفيما وصف المعارض المارونى الشهير ريمون إده المغادرة بأنها هروب عملاً بالمثل الشعبى «الهريبة تلتين المراجل» فإن الرئيس فرنجية قال إنه لم يغادر «هرباً أو خوفاً وإنما لإسماع صوت لبنان للعالم....».

بعد هذه التطورات بدأ الرئيس حافظ الأسد مجادلة مع كمال جنبلاط الذى يصر (كما ابنه بعد ثلاثين سنة مع لحود) على استقالة فرنجية بينما الأسد يرى أن يتم انتخاب بديل للرئيس ومن دون الاستقالة حفظاً على ماء الوجه... وبذلك يبقى فرنجية إلى حين انتهاء الولاية الدستورية.

وهذه المجادلة التى يقال إنها استغرقت تسع ساعات من يوم السبت ٢٧ مارس ١٩٧٦ كانت السبب فى أزمة ثقة حادة بين الحكم السورى وكمال جنبلاط (تكررت بحيثيات مماثلة إلى حد ما بعد ثلاثين سنة بين الحكم الذى ورثه الابن بشار وجنبلاط الابن (وليد) الذى ورث زعامة والده وكان محورها إصرار الرئيس بشار على التمديد للرئيس لحود ورفض جنبلاط الابن لهذا الخيار). وفى ضوء الأزمة المشار إليها جرى اغتيال كمال جنبلاط لاحقاً وسكت الابن عن ذلك ربع قرن إلى أن بدأ يقول بصيغة التلميح إن أطرافاً سورية وراء اغتيال والده. يحفزه على ذلك حادثة اغتيال الرئيس رفيق الحريرى ومحاولة اغتيال مروان حماده عضو البرلمان والساعد الأيمن لوليد جنبلاط والمنسق بينه وبين الحريرى، والإكثار من الإيحاءات بأن أطرافاً سورية هى أيضاً وراء ما حدث لحماده ثم للحريرى.

فى ضوء هذه التطورات طرح الرئيس أنور السادات بعد لقاء فى باريس مع الرئيس الفرنسى فاليرى جيسكار ديستان مبادرة كانت نقطة الضعف فيها أن السادات قال «إن سورية لم تتمكن من إيجاد حل للأزمة اللبنانية فحسب بل إنها زودت الطرفين بالأسلحة كذلك.. والمأساة الحالية هى نتيجة هذه السياسة....». وهذا الكلام سببه أن السادات كان صاغ مع مستشارى الرئاسة وبالتنسيق مع محمود رياض مبادرة كانت تقضى بإيفاد نائبه حسنى مبارك إلى بيروت. ولكن فرنجية وبإيعاز من الأسد لم يرحب بعدما لاحظ فى حيثيات المبادرة عبارة لم يتحملها وهى «إن هنالك لحظات يجد رئيس الدولة الذى يتولى أكبر المسئوليات نفسه فى موقف يملى عليه ضرورة أن يبتلع كبرياءه....». وواضح من هذه العبارة أن السادات يميل إلى فكرة أن يستقيل الرئيس اللبنانى. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يريد للمبادرة السورية التى كانت «الوثيقة

لبنان بين مشهدين ١٩٧٥ - ٢٠٠٥



الدستورية، وعلى نحو ما سبق أن أشرنا إليه الإطار العام لها، أن تنجح. وهو صراع طبيعى بين حليفين افترقا بعدما قرر السادات أن يخطو حثيثاً فى اتجاه التسوية السياسية مع إسرائيل. وتدليلاً على هذا الصراع أن صحيفة «البعث» التى تنطق بإسم الحزب الحاكم فى سورية كتبت فى شأن المسعى الساداتى تقول «إن شرط نجاح المبادرة المصرية هو أن بيدة النظام فى القاهرة مراجعة دوره الأساسى الذى ما أحداث لبنان إلاّ بعض مضاعفاته...».

رئيس لبنانى... بتعيين سورى

وسط هذا التوتر المتصاعد بدأت طائرات هليكوبتر تابعة للأسطول السادس فى البحر المتوسط الاستعداد لنقل الرعايا الأمريكان من بيروت وكان وزير الخارجية الأمريكية الدكتور هنرى كيسنجر يختار للقيام بمهمة فى لبنان دين براون سفير الولايات المتحدة لدى الأردن أيام أحداث سبتمبر ١٩٧٠ عندما فجّر الفلسطينيون طائرات الركاب الأمريكية وتفجرت الأزمة بينهم وبين الملك حسين لتنتهى إلى قمة «الهيلتون» الشهيرة فى القاهرة والتى من جرّائها قضى الرئيس جمال عبد الناصر نحبه يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠. وتدليلاً على التباهى الثورى لدى عرفات، الذى بدا فى الأزمة اللبنانية قوة ومرجعية بالغتى الأهمية يطرق الزعماء اللبنانيون بابه طالبين منه الرضى أو المساندة، فإنه قال يومها «مرحباً بالأسطول السادس الذى قيل إنه سيصل خلال أربع وعشرين ساعة. مرحباً به هنا فى لبنان ليغرق كما غرق فى فيتنام...». وفى هذه الأثناء كان عرفات قد زوّد الحشود الجنبلاطية والتقدمية واليسارية والإسلامية بضباط سبق أن تم تدريبهم فى الاتحاد السوفياتى من أجل فلسطين، فإذا بهم يخوضون مغامرة فى وطن يستضيف بنى قومهم ويؤازر قضيتهم. وهؤلاء الضباط استعملوا فى الاتصالات اللاسلكية اللغة الروسية ومع ذلك فإن ما قاموا به كان ضد قضيتهم. أما زعيمهم ياسر عرفات فإنه أخفق فى إغراق الأسطول السادس فى بحر بيروت، وبعد بضعة أشهر أحكمت خلالها سورية القبضة على لبنان كان عرفات من جملة بضعة الوف من الفلسطينيين جرى ترحيلهم بحراً لتواصل سورية الأسدية بعد ذلك ممارسة الدور وحدها وليتم انتخاب رئيس جديد للجمهورية فى أسلوب لا مثيل له فى تاريخ الانتخابات

وصلت الحال بالرمز الأكبر لدعاة الديمقراطية كمال جنبلاط إلى القول «يلزمنا حكم دكتاتورى ليخلصنا من الأوساخ التى علقت بالكثير منا»

فى العالم وليشكل هذا الانتخاب الخطوة الأولى على طريق حقبة جديدة من التعامل السورى مع لبنان اتسمت بالتعيين وعلى كل المستويات وهو ما تسبّب فى احتقانات تراكمت فى النفوس لتتفجر دفعة واحدة لمجرد أن قضى رفيق الحريرى فى العملية الترويعية يوم «عيد الحب» ١٤ فبراير ٢٠٠٥ ولتشكل هذه العملية نقطة تحوّل تاريخية بالنسبة إلى البلدين اللذين أرادهما الأسد الأب وطنين لشعب واحد لكن الأمر انتهى مع الأسد الابن (بشار) إلى أنهما شعبان ولكل منهما وطنه المستقل وعَلَمه.. وهو، بالنسبة إلى اللبنانيين، العَلَم الذى ارتفع كما لم يرتفع من قبل وبدا هذا العَلَم وكما لو أنه كان منسياً إلى أن بات رمزاً لانتفاضة هى الأولى من نوعها فى لبنان.. والأرجح أنها برسم التصدير، إنما ليس مثل تصدير الثورة الخمينية التى وجد عمقها اللبنانى متمثلاً بـ «حزب الله» نفسه يطلب من أنصاره ومحازبيه رفع هذا العَلَم وهم الذين كانوا يكتفون برفع عَلَم الحزب وصور آية الله الخمينى.. ثم خامنئى.

بعد جولات من القتال بين الميليشيات التى تكاثرت والتى بات من المستحيل وضع حد لها ما دام الجيش انقسم «جيوشاً»، وسمح ما يسمى بـ «جيش لبنان العربى» لنفسه بقصف مقر رئاسة الجمهورية بالصواريخ الأمر الذى أدى إلى انتقال الرئيس إلى مقر آخر فى سابقة لا مثيل لها... بعد هذه الجولات وما تسببت به من مئات الضحايا ومن تدمير ونهب وخطف، استطاعت الشرعية اللبنانية متمثلة بالبرلمان إحداث الخطوة المهمة. فقد اجتمع أعضاء البرلمان فى غير مقرهم يوم السبت ١٠ أبريل ووسط إجراءات أمنية تولتها قوات تابعة للحركة الانقلابية التى قادها العميد الأول فى الجيش عزيز الأحدب. وكانت الجلسة من النوع المثير ذلك أنه تمّ على عجل وضع مقاعد للنواب التسعين الذين حضروا من أصل ٩٨ هم عدد أعضاء البرلمان، وغاب عن الجلسة ثمانية من بينهم طونى فرنجية نجل رئيس الجمهورية وهو أمر طبيعى لأن الجلسة هدفها اختصار ولاية والده. كذلك غاب ريمون إده الخصم العنيد لفرنجية ليس لأنه ضد ما ترمى إليه الجلسة وإنما تمسكاً منه بالأصول الدستورية، ذلك أن التعديل الذى أقرته الجلسة يستوجب الإجماع. وما دام هنالك متغيبون فليس هنالك إجماع.

انتهت الجلسة بتعديل مادة فى الدستور هى المادة ٧٣ وبحيث بات فى الإمكان قبل موعد انتهاء ولاية رئيس الجمهورية بمدة شهر على الأقل وستة أشهر على الأكثر أن يلتئم مجلس النواب بناء على دعوة رئيسه لانتخاب الرئيس الجديد. وقبل التعديل كانت المدة هى «شهراً على الأقل وشهرين على الأكثر».

فى ضوء ذلك بات ممكناً انتخاب رئيس جديد مع بقاء الرئيس الحالى (أى سليمان فرنجية) وهو ما أراده أصلاً الرئيس حافظ الأسد. ويوم السبت ٨ مايو ١٩٧٦ وفى ظل أجواء متفجرة أمنياً وسياسياً تولت «منظمة الصاعقة» فى شخص رئيسها زهير محسن وهى الذراع الفلسطينية للحكم السورى فى لبنان إحضار نواب البرلمان اللبنانى واحداً واحداً إلى القاعة نفسها التى كان تمّ فيها اجتماع تعديل المادة ٧٣ من الدستور. وكان سبق هذا الإجراء أن الرئيس حافظ الأسد قال بصريح العبارة يوم ١٢ أبريل، أى بعد يومين من اطمئنانه إلى أن التعديل قد تمّ على نحو ما يريد وبات كمال جنبلاط وحلفاؤه وبقية المعارضين لفرنجية من الأقطاب المسلمين والمسيحيين فى مأزق، كلاماً أساسياً أبرز ما فيه العبارة الآتية: «إننا مستعدون لأن نتحرك إلى لبنان لنقف ضد كل معقّد (يقصد كمال جنبلاط) وضد كل ظالم بغض النظر عن ادعاءاته الدينية...». وهذا الكلام جاء رداً على كلام قاله قبل ذلك كمال جنبلاط واستفزت إحدى عباراته الرئيس السورى. وهذه العبارة هى: «لقد دخل لواء سورى مدرع الأراضى اللبنانية. بناء على طلب من دخل ولماذا دخل ما دامت الأزمة بدأت تتجه نحو الحل؟».

بعد اطمئنان زهير محسن (الذى اغتيل فى مدينة «كان» الفرنسية بعد ذلك حيث كان فى مهمة أو فى رحلة استجمام من متاعب الحرب فى لبنان) إلى أن النصاب الذى يجيز انتخاب رئيس الجمهورية قد تم، أرسل «قواته» إلى فندق «كارلتون» حيث يقيم الياس سركيس لإبلاغ الرجل الذى كان حاكماً للمصرف المركزى أن عليه التواجد حيث هو وعليه أن يكون مستعداً لتلقى نبأ سار. وخلال ساعتين انتهت أغرب عملية انتخاب فى تاريخ الرئاسات وفاز سركيس بالمنصب بـ ٦٦ صوتاً ووُجدت ثلاث أوراق بيضاء. وهكذا تضيع على ريمون إده الذى هنالك ما يشبه الإجماع اللبنانى عليه فرصة الترؤس. ثم يتبين أن المبعوث الأميركى دين براون الذى عيّنه كيسنجر كان ينشط لإبعاد كأس الرئاسة عن فم الشخص الذى يستحقها. وكان لافتاً فى هذا الصدد تصريح لكمال جنبلاط جاء فيه «إذا كان السوريون لا يريدون ريمون إده رئيساً للجمهورية فليس من الضرورى أن يدخلوا ويحتلوا لأننا عندئذ نصبح أكثر إصراراً على تأييده...».

كلمة سر سمعها الرئيس فرنجية خلال اتصال بحليفه وصديقه الرئيس حافظ الأسد هى التى جعلته لا يتجاوب مع المطلب البرلمانى باستقالته وجعلته يردد بعد ذلك الاتصال أمام الذين يلتقى بهم: «إذا أرادوا إخراجى فلن يكون ذلك إلا جثة»

كذلك كانت هنالك أربعة مواقف لافتة. ثلاثة لمصلحة التدخل السورى فى لبنان صدرت عن العقيد معمر القذافى الذى قال رداً على دعوة أطلقها الرئيس أنور السادات فى شأن دخول قوات عربية متعددة إلى لبنان بدل دخول قوات سورية فقط «إن دعوة السادات مدعاة للسخرية والسخف» وعن كيسينجر الذى قال «إن سورية اتبعت خطاً معتدلاً ومفيداً فى لبنان وأن الولايات المتحدة تعاونت معها فى الجهود السياسية...» وعن الرئيس الأمريكى (زمنذاك) جيرالد فورد الذى أشاد بـ «الموقف المسؤول لكل من سورية وإسرائيل...» وهذه التصريحات وبالذات كلام كل من فورد وكيسينجر تأكيد بأن الدخول العسكرى السورى إلى لبنان كان بغطاء أميركى مثل الإيحاء الذى كان لصدام حسين كى يجتاح الكويت. ويبقى الموقف الرابع الذى هو للرئيس صدام وجاء متمثلاً فى قوله: «إننا ضد التدخل السورى فى لبنان ولا نعتقد أنه تدخل نزيه، وأن الواجب القومى يستدعى إيجاد صيغة عربية لإنقاذ لبنان من محنته...» هل كان التدخل الصدامى فى الكويت نزيهاً؟!

رأى اللبنانيون فى انتخاب رئيس جديد للجمهورية يتسلم الرئاسة بعد انتهاء ولاية الرئيس سليمان فرنجية بارقة أمل فى التهدئة مع أن الأمور بين انتخاب سركيس وانتهاء ولاية فرنجية سارت فى اتجاه بالغ الضراوة. لكن سنوات سركيس الرئاسية كانت سنوات العذاب له والتعذيب للبنانيين. وكانت سنة الاغتيالات على مستوى القمم حيث جرى يوم ١٦ مارس ١٩٧٦ اغتيال كمال جنبلاط زعيم «الحركة الوطنية اللبنانية» على مقربة من حاجز عسكرى ونشأت عن ذلك اضطرابات ذهب ضحيتها فى مناطق درزية ١٧٧ شخصاً تمت تصفيتهم. ويبدا اغتيال جنبلاط بمثل اغتيال رفيق الحريرى يوم الاثنين ١٤ فبراير ٢٠٠٥ وبغرض إلغاء الشخص الذى يستطيع توحيد الصف حول قضية بالغة التعقيد. بعد واقعة كمال جنبلاط حدثت مواجهة بين ضباط لبنانيين وضباط سوريين وبعد أقل من سنتين أمضاهما الياس سركيس رئيساً يقاسى كل أنواع العذاب النفسى اجتازت قوات إسرائيلية الحدود، واغتيل طونى فرنجية نجل الرئيس الذى كان إستسلم للعزلة بعيداً عن الناس وجرت محاولة لاغتيال السفيرين السعودى والكويتى، واختفى الزعيم الروحى، السياسى للشيعة موسى الصدر يوم ٣٠ أغسطس ١٩٧٨ خلال زيارة إلى ليبيا مع اثنين من مساعديه، وتشعب الانتشار العسكرى السورى فى معظم المناطق اللبنانية. ورداً على ذلك اجتاحت المدرعات الإسرائيلية بقيادة أرييل شارون الأراضى اللبنانية وصولاً إلى العاصمة بيروت، الأمر الذى انتهى بترحيل ياسر عرفات ومجموعات من المقاتلين. وكان لافتاً أن الزعيم الفلسطينى لم ينتقل إلى ميناء اللاذقية وإنما اتجه غرباً نحو اليونان ليؤكد أن الصديق اليونانى أكثر رحمة من الأخ السورى، علماً بأن عرفات كان فى خضم الأزمة اللبنانية يحاول ضرب الطموح السورى فى وضع اليد على لبنان الذى بدا لبضع سنوات أنه «دولة عرفاتية».

كانت مشكلة الياس سركيس أنه كمن يتم إنزاله بالمظلة. فلا القرار قراره. ولا ثقة الناس به متكاملة ما دام تم تعيينه بغير الإرادة اللبنانية. وبعدما حاول التصرف بما يؤكد استقلاليته عن القرار السورى ما دام بات رئيساً للبلاد، فإن محاولته قوبلت بالتحفظ من جانب الذى وضعه فى المنصب الرئاسى، أى حافظ الأسد. وبلغ التحفظ الذروة عندما فوجئ هذا الأخير بسركيس يزور يوم ١٨ سبتمبر ١٩٧٦ الرئيس السادات فى الإسماعيلية ويلقى من الرئيس المصرى وبحضور أربعة من المساعدين بينهم حسنى مبارك (الرئيس الحالى) اهتماماً ملحوظاً مع أنها المرة الأولى التى يلتقى فيها السادات بسركيس. وبدا هذا الاهتمام شبيهاً باهتمام الرئيس الراحل عبد الناصر بالرئيس اللبنانى (الراحل) شارل حلو عندما جاء إلى القاهرة ليشارك فى القمة العربية التى تم عقدها عام ١٩٦٤ مع أنه كان ما زال رئيساً منتخباً. ولقد خشى الرئيس حافظ الأسد من أن يخطف الرئيس السادات الدور منه وينجح فى استضافة مؤتمر حوار فى القاهرة يشارك فيه السياسيون اللبنانيون ويتوصل إلى صيغة تفاهم. وعندما لاحظ السادات عدم حماسة سركيس للفكرة فإنه صرف النظر عنها وتحدث عن الرئيس السورى بصيغة ودودة ربما حرصاً على سركيس من غضبة الأسد وربما لعدم قطع الأواصر نهائياً مع سورية. لكن على رغم ذلك استمر الأسد على حذره من سركيس خصوصاً بعدما لم يراع هذا الأخير الخصوصية التى تطلبها سورية للعلاقة مع لبنان، وأنه لو كان يراعيها لكان جاء إلى دمشق ومنها سافر إلى القاهرة على نحو ما سبق أن فعله عندما توجه يوم ١٧ أكتوبر إلى الرياض عن طريق دمشق للمشاركة فى القمة المصغرة التى عقدت هناك بعدما نقلته من بيروت إلى دمشق طائرة هليكوبتر سورية. وفى تلك القمة حدثت مصالحة بين السادات والأسد بتمنيات ومساع من السعودية، وهذا حقق للوجود العسكرى السورى بداية شرعية عربية شاملة.

استمرت أحوال الرئيس الياس سركيس فى مد وجزر انعكست على وضعه الصحى وبات ينتظر اللحظة التى يترك فيها الرئاسة. فالأهوال كثيرة. والضغوط السورية أكثر. والتصفيات لا تتوقف ومن أبرزها ما فعله زعيم الميليشيات المسيحية بشير الجميل الذى ارتأى اجتياح مراكز عسكرية تابعة للركن المسيحى المارونى كميل شمعون متسبباً بمقتل وجرح المئات. وكان واضحاً أن هذه العملية وغيرها كثير كانت تمهيداً لانتقال «الشيخ بشير» على نحو مناداة مريديه وأصدقائه له من الزعيم الأقوى فى «مجتمع الميليشيات» إلى ترؤس لبنان بعد الياس سركيس وضمن صفقة تنوعت أطرافها العربية والدولية بغرض الضغط على سورية التى كانت تمددت فى لبنان أكثر مما يجب وتتحمل المعادلة الإقليمية. ويوم ٢٣ أغسطس ١٩٨٢ جرى انتخاب بشير الجميل فى الكلية الحربية وفاز بأصوات ٥٧ نائباً من أصل ٦٢ حضروا الجلسة. وكان لافتاً أن النواب المسلمين قاطعوا الجلسة عدا قلة غامرت ودفع أصحابها الثمن حيث أن قذائف حارقة تم إطلاقها على منازل ومكاتب عدد من هؤلاء. وفيما قوبل هذا الانتخاب بالاستهجان كون بشير الجميل هو ثانى رئيس عربى يتعامل مع إسرائيل بعد الرئيس السادات، فإن مناحيم بيغن رئيس وزراء إسرائيل كان فى غاية الابتهاج وبعث ببرقية تهنئة إلى الشيخ بشير بدأها بعبارة «صديقى العزيز». أما الرئيس السلف الياس سركيس الذى قاربت ولايته على الانتهاء فقال لبعض زواره: «من كان يصدق. بشير الجميل رئيس للجمهورية وياسر عرفات يغادر بيروت. الله أكبر. إنها المعجزة. لقد نجا لبنان...».

ومقاطعة أكثرية النواب المسلمين لجلسة الانتخاب كان لها ما يبررها على أساس أنه من الأفضل تأجيل الانتخاب والتمديد للرئيس سركيس وذلك على أساس أنه لا يجوز أن يتم انتخاب رئيس جديد فيما هنالك مائة ألف جندى إسرائيلى فى لبنان. وفى هذا الصدد كان لوليد جنبلاط تصريح شهير جاء فيه «إن بشير الجميل هو مرشح الدبابات الإسرائيلية والتسلط والتقسيم ومرشح إلغاء الهوية العربية والإسلامية عن لبنان».



السلاح كان الأعلى صوتا فى لبنان طيلة سنوات الحرب الأهلية



لبنان بين مشهدين ١٩٧٥ - ٢٠٠٥

لم تصمد رئاسة بشير الجميِّل على رغم زيارة قام بها إلى السعودية ولقاءات عربية فى السر حدثت وعمل من أجل إنجاحها الرئيس الياس سركيس. ويوم ١٤ سبتمبر ١٩٨٢ تمت تصفية بشير الجميِّل فى عملية تفجير ضخمة لمقر قيادته كزعيم ميليشيا، بعدما كان ترأس اجتماعاً موسعاً لقادة الميليشيات المسيحية وأنجز كتابة الخطاب الذى سيلقيه أمام البرلمان. وقد تعاملت إسرائيل مع الحادثة بطريقة استفزازية لكنها طبيعية كون الرئيس الشاب الذى لم يتسنَ له ممارسة المنصب الرئاسى من أصدقاء إسرائيل. فقد حلقت طائرتان إسرائيليتان فوق الجنازة أثناء التشييع. كما أن أرييل شارون وزير الدفاع يرافقه الرئيس الجديد لـ «الموساد» حضرا لتقديم العزاء. وقيل إن أرييل شارون ردد بالعبرية أمام أفراد العائلة وهو يعزيهم: «هذه المرة فقدناه حقاً». وكان يشير بذلك إلى ثلاث محاولات اغتيال سابقة نجا منها الشيخ بشير من بينها واحدة جرت يوم ٢٣ فبراير ١٩٨٠ بواسطة سيارة مفخخة وقضت فى العملية ابنته (مايا) وثلاثة من مرافقيه.

ولم يقتصر رد الفعل الإسرائيلى على إبداء «اللياقات». فبعد يومين حدثت فى مخيمى صبرا وشاتيلا للاجئين فى قلب العاصمة بيروت «أم المجازر» تولى قيادة تنفيذها أرييل شارون نفسه بمساعدة عناصر قيادية من الميليشيات المسيحية وذهب ضحية هذه المجزرة مئات الفلسطينيين. وساد اعتقاد بأن المجزرة حدثت كى لا يحدث تفاهم بين الرئيس الخَلَف أمين الجميِّل شقيق بشير، والذى تمَ ما يشبه التوافق المسيحى - الإسلامى عليه ولذا تم انتخابه يوم ٢١ سبتمبر ١٩٨٢ كمرشح إجماع وجاء الانتخاب بأغلبية ٧٧ صوتاً من أصل ٨٠. وكان مثيراً للدهشة أن صور الرئيس أمين الجميِّل ارتفعت فى شوارع إسلامية ومسيحية من بينها بعض شوارع مخيمى صبرا وشاتيلا... وعلى الطريقة نفسها التى اعتمدها الرئيس أنور السادات عندما قال يوم انتخابه أمام مجلس الأمة المصرى خلفاً لعبد الناصر «لقد جئتكم على طريق جمال عبد الناصر» ثم انحنى أمام تمثال للرئيس فى المجلس، فإن الشيخ أمين قال لأعضاء مجلس الأمن الكتائبى (الذى ينتمى إليه الاثنان بشير وأمين) لمجرد أن يتم انتخابه «إننى مؤتمن على رسالة بشير الجميِّل وسأدافع عنها مهما كلفنى ذلك من تضحيات...».

مع تسلم أمين الجميِّل الرئاسة وبما يشبه الإجماع على انتخابه سادت أجواء من الانفراج تزامنت مع وصول القوات المتعددة الجنسية وحلولها محل القوات الإسرائيلية التى أخلت مواقعها فى المنطقة الغربية من بيروت باستثناء المطار والمرفأ. واكتمل وصول القوات المتعددة الجنسية بوصول القوات الأمريكية إلى شاطئ محلة الأوزاعى قرب المطار. ونشط الرئيس أمين الجميِّل دولياً وعربياً وطرح من على منبر الأمم المتحدة على هامش زيارة رسمية قام بها فى أكتوبر للولايات المتحدة أتبعها بزيارة لفرنسا والفاتيكان شعاراً جذاباً هو «أعطونا السلام وخذوا منا ما يُدهش العالم». كما أنه برعاية من الملك الحسن الثانى عقد اجتماعاً مع صلاح خلف (أبو أياد) الرجل الثانى فى «حركة فتح» كان الهدف منه احتواء مرارة مجزرة مخيمى صبرا وشاتيلا التى نفذها أرييل شارون بمساندة أشخاص لبنانيين يدينون بالولاء لبشير الجميِّل من بينهم إيلى حبيقة الذى فرضه الحكم السورى وزيراً بعد ذلك وعلى رفيق الحريرى نفسه. وبعدما أبرم الرئيس أمين الجميِّل اتفاقاً مع إسرائيل بدأت المفاوضات من أجله يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٨٢ وانتهت بإعلان الاتفاق يوم ١٧ مايو ١٩٨٣، انتكست الأوضاع لأن الحكم السورى اعتبر أن الاتفاق تم على حسابه فعمل على إلغائه من خلال الجيوب السياسية والمخابراتية السورية المنتشرة فى لبنان وكذلك من خلال شخصيات لبنانية وفلسطينية تدور فى الفلك السورى. ولقد تم الإلغاء فى فترة تزايدت فيها عمليات احتجاز الرهائن الأجانب وأتاح المجال أمام تكليف القطب السياسى السنى المرموق رشيد كرامى تشكيل حكومة جديدة نجح الرجل فى أن تحظى بالقبول السورى من جهة، وتحقق تهدئة نوعية من جهة أخرى، وتمتص الآثار النفسية الناجمة عن أن لبنان أبرم اتفاقاً مع إسرائيل لم يأت لمصلحته فى أى حال. ولكن هذه الحكومة التى تشكلت فى مارس ١٩٨٤ لم تستطع حل التعقيدات التى لا حصر لها. وبعدما لقى رئيسها مصرعه فى عملية تفجير طائرة الهليكوبتر التى كان يستقلها وعلى الطريقة نفسها التى تم فيها تفجير الطائرة التى كانت تقل الرئيس العراقى الأسبق (الراحل) عبد السلام عارف وكذلك الطريقة التى تم فيها تفجير الطائرة التى كانت تقل الرئيس الباكستانى الأسبق (الراحل) ضياء الحق، فإن الوضع ازداد تدهوراً وبدأت تحدث مواجهات غير متوقعة وفى المناطق المسيحية والإسلامية مثل مواجهة سمير جعجع مع إيلى حبيقة حيث يريد الثانى بتأييد من سورية تصفية الأول، ومواجهة «حركة أمل» التى يتزعمها نبيه برى (رئيس البرلمان لاحقاً) بعد اختفاء الإمام موسى الصدر فى ليبيا مع الفصائل الفلسطينية.. وهى مواجهة وصلت وبدعم من سورية حظى به نبيه برى إلى درجة فرض حصار على المخيمات الفلسطينية تسبب فى التجويع والتعطيش وحدوث حالات مرضية مأساوية.

وكان مثيراً للدهشة أن الرئيس أمين الجميِّل الذى أبرم مع إسرائيل ما سمى (اتفاق ١٧ أيار) حرص على أن يزور دمشق فجأة وللمرة الأخيرة يوم ٢١ سبتمبر ١٩٨٨ وذلك بغرض ترتيب عملية الخلافة. وفوجئ هناك بأن أبريل غلاسبى التى عملت فى السفارة الأمريكية فى بيروت وشغلت فى وزارة الخارجية منصب المدير لدائرة مختصة بشئون لبنان وسورية والأردن والشئون الفلسطينية عملت سلفاً مع الحكم السورى على أن يكون النائب مخايل الضاهر (مارونى من المنطقة الشمالية من لبنان) هو من سيخلف الجميِّل. وهنا نلاحظ أن الجميِّل عمل على خطة استهدفت بعثرة اتفاق غلاسبى مع الحكم السورى وساعده على ذلك أن الدكتور سليم الحص الذى شكَّل حكومة بعد اغتيال رشيد كرامى استقال وأحدثت استقالته ثغرة دستورية ملأها الجميِّل بإسناد رئاسة الحكومة إلى الجنرال ميشال عون الذى وجدها فرصة لكى يستأثر بالزعامة المسيحية، فبدأ مواجهة مع القطب المسيحى المارونى الأقوى سمير جعجع تسببت فى سقوط مئات القتلى والجرحى فى صفوف سكان المناطق المسيحية وكان هذا التصرف من جانب الإثنين موضع ارتياح الحكم السورى. ونلفت الانتباه هنا إلى أن غلاسبى هى نفسها التى ورطت نظام الرئيس صدام حسين فى موضوع احتلال الكويت وأنها فى الموضوع اللبنانى لم تكن تتقاطع مع التوجه السورى، عن حسن نية كان ذلك أو بغرض توريط نظام الرئيس حافظ الأسد لكى يغرق أكثر وأكثر فى المتاعب اللبنانية وبحيث يدفع الثمن لاحقاً وهذا ما حدث له.

حاول الجنرال ميشال عون أن يؤكد للدول العربية فى مؤتمر عقدته فى تونس مشروعية ترؤسه للحكومة بعدما استقال الدكتور سليم الحص. ثم تبين من الناحية الدستورية أن هنالك حكومتين فى لبنان. حكومة برئاسة الجنرال المارونى ميشال عون مكلفة من جانب الرئيس أمين الجميِّل وحكومة برئاسة القطب السنى سليم الحص رفض رئيسها (أى الحص) اعتبارها مستقيلة على رغم أنه قدم استقالتها وهو لغز من جملة الألغاز فى اللعبة السياسية اللبنانية. أما لماذا هى

السادات كان قد صاغ مع مستشارى الرئاسة مبادرة تقضى بإيفاد نائبه حسنى مبارك إلى بيروت. ولكن فرنجية وبإيعاز من الأسد لم يرحب

مستقيلة وفى الوقت نفسه غير مستقيلة وبالتالى فهى شرعية فلأنه لم يصدر مرسوم بقبول الاستقالة. وكان مثيراً للدهشة أن رئيسى حكومة لبنان توجها إلى تونس للمشاركة فى مؤتمر وزراء الخارجية العرب خلال ديسمبر ١٩٨٨، واحتار الوزراء مع من سيتعاملون عدا وزير خارجية العراق طارق عزيز المؤيد لـ «حكومة ميشال عون» ووزير خارجية سورية عبد الحليم خدام المؤيد لـ «حكومة سليم الحص».

كذلك أخفق ميشال عون فى الحصول على القبول الأمريكى به رغم سعى أمين الجميل من أجل ذلك، بدليل أن جون ماكارثى الذى عينته الإدارة الأمريكية سفيراً لدى لبنان لم يقدم أوراق اعتماده إلى ميشال عون على أساس أن أوراق الاعتماد تقدم لرئيس الجمهورية.

ومع أن مؤتمر تونس أثمر مبادرة هدفها تسوية الوضع فى لبنان وتشكلت لجنة سداسية لهذا الغرض إلا أن عدم مؤازرة الحكم السورى لها جعلها تتعثر ويرتئى الملوك والرؤساء العرب الذين عقدوا فى مايو ١٩٨٩ قمة فى الدار البيضاء إعادة النظر فى تشكيل اللجنة بحيث باتت ثلاثية تضم قادة السعودية والمغرب والجزائر الملك فهد بن عبد العزيز والملك الحسن الثانى والرئيس الشاذلى بن جديد، وأسند هؤلاء إلى وزراء الخارجية وضع صيغة الحل. وبعدما نجح الدبلوماسى الجزائرى الأخضر الإبراهيمى فى استنباط صيغة حل يحقق انسحاباً سورياً مشرفاً من لبنان فإن الحكم السورى لجأ إلى تكتيك وعمليات جعل اللجنة تقرر تجميد مهمتها وتزامن ذلك مع إشارات ومؤشرات تعكس انطباعاً بأن إدارة الرئيس جورج بوش (الأب) اختارت أن تتفهم الموقف السورى ولو كان ذلك ضد قناعاتها وقررت ممالأة الرئيس حافظ الأسد من خلال نفض اليد وأيادى آخرين يجارونها من ظاهرة الجنرال ميشال عون، وهذا سببه أن هذه الإدارة كانت فى صدد التحضير للمواجهة مع العراق وأنها تريد مساندة سورية لها فى هذه المواجهة.. وهو ما تبين بعد ذلك. وعندما شعر الجنرال عون بذلك بدأ يقول عن السياسة الأمريكية كلاماً مماثلاً لما كان يقوله عن السياسة السورية تجاه لبنان. ولكن لأنه لا ثوابت ولا مبادئ راسخة لأصحاب الطموحات السياسية فإن السياسة الأمريكية فى عهد بوش الأب التى انتقدها الجنرال عون باتت فى نظره مثالية فى عهد بوش الابن ما دام الفاعلون فى صياغة توجهات هذه السياسة احتضنوه وحققوا له بعدما حدثت الفاجعة الحريرية بثلاثة أشهر مبتغاه فى العودة إلى لبنان من منفاه الفرنسى متطلعاً إلى أن يكون هو الرئيس الذى سيحل محل الرئيس لحود أو إنه من سيترأس عام ٢٠٠٨ بعد أن تنتهى فترة التمديد ثلاث سنوات التى أرادها مستعجلاً الرئيس بشار الأسد لصديقه الجنرال لحود.. وهو قرار كان مثل عود كبريت جرى إشعاله قرب حقل نفط ونشأ عن ذلك اندلاع حرائق أمكن بعض الشىء إطفاء ما تيسر من لهيبها باستصدار قرار مجلس الأمن الدولى ١٥٥٩ ثم القرار التالى ١٥٩٥ وذلك بإلحاح أمريكى - فرنسى أوضحت التطورات أن الموضوع اللبنانى وبالذات اغتيال الصديق الاستثنائى للإدارة البوشية والرئاسة الشيراكية رفيق الحريرى كان هو السبب فى زوال حالة الجفاء بين الدولتين الكبريين.

وما دامت الإدارة البوشية اختارت ممالأة الحكم السورى لـ «الدواعى العراقية» فإنه بات على الأطراف العربية المتفهمة للتوجه الأمريكى بالنسبة إلى المنطقة مثل السعودية والمغرب.. والجزائر إلى حد ما إنهاء مرحلة «اللجنة الثلاثية». وهنا بدأت المرحلة الأهم فى تاريخ الأزمة اللبنانية. وصدرت الصحف السعودية يوم الثلاثاء ١٩ سبتمبر ١٩٨٩ وعلى صفحاتها ما أسمته «النص الرسمى الكامل لوثيقة الوفاق الوطنى اللبنانى». وحدث ذلك بعدما كان وزير الخارجية السعودية الأمير سعود الفيصل تلا يوم السبت ١٦ سبتمبر بياناً حدد فيه يوم السبت أول أكتوبر موعداً لبدء اجتماعات أعضاء البرلمان اللبنانى والذى كان تم إنجاز ترتيبات مكان الانعقاد فى مدينة الطائف فى السعودية.

وبهذا المؤتمر التاريخى أطفئت الشرارة التى أشعلت لبنان على مدى ست عشرة سنة باستعادة الشرعية مكانتها محل ظاهرة الميليشيات التى كانت تشعل فى كل يوم شرارات حارقة وتتسبب فى إزهاق أرواح وتدمير الوطن.

وتشاء الأقدار أن ظاهرة رفيق الحريرى كانت نتاج هذا المؤتمر، وأن الشرارة الحارقة التالية حدثت بسبب اغتيال الرجل فى عملية ترويعية أفرزت وضعاً كانت اللبنة الأساسية له وضعت من خلال حادثة الأوتوبيس يوم ١٣ أبريل ١٩٧٥ واستمر هذا الوضع يتفاعل حتى يوم ١٤ فبراير ٢٠٠٥. وبعد ثلاثة عقود من هذا الوضع غير المسبوق فى العالم العربى اهتزت المعادلة العربية والإقليمية والدولية. وتلك مرحلة توجب على المتابع وقفة تأمل طويلة وعميقة فيها. ■

الجزء الثانى. والأخير - فى العدد القادم

كتاب الزاوية

زكى نجيب محمود

مجتمع جديد أو الكارثة

المفكر والفيلسوف الراحل زكى نجيب محمود أمضى حياته نصيرًا للعمل والعقل والتقدم، داعيًا إلى نهضة مصرية وعربية قائمة على الفردية العاقلة المسئولة والحرية والحوار والإيمان بالمستقبل والاستعداد له. وحارب اللاعقلانية واللا علمية والجهل محذرًا من استشراء الإيمان بالخرافات والسحر والشعوذة. وقد أصدر الراحل الكبير مؤلفات وترجمات كثيرة تمثل منظومة فكرية قائمة على المنهج العلمى والتفكير العقلانى. ومن أهم مؤلفاته «مجتمع جديد أو الكارثة» الصادر عن «دار الشروق» والذى يعالج فيه علل المجتمع العربى. وتنشر «وجهات نظر» مقتطفات من الكتاب. (الطبعة الخامسة، ١٩٩٣).

نقطة البدء

إنه إذا قيل لنا: أين نقطة البدء التى منها بدأت نهضتنا الحديثة كلها؟ لكان الجواب الصحيح هو: كانت البداية لحظات دعا فيها الدعاة إلى صحوة «العقل» فى وجه الموجة العاتية التى غمرتنا بطوفانها من خرافات. وما الخرافة؟ هى قبل كل شىء، ربط المسببات بغير أسبابها. فإذا مرض المريض - مثلاً - نسبنا المرض إلى أرواح شريرة حلت ببدنه، ولم نقل أنها جراثيم هى التى حلت بالبدن؛ فى الحالة الأولى نحاول أن نطرد من البدن ما ليس له وجود. فنكون أتعس حالاً من دون كيخوته وهو يحارب طواحين الهواء، وأما فى الحالة الثانية فنحاول أن نقضى على جراثيم المرض بما يفتك بها ويمحوها.

دخل البابا يوحنا بولس الأول غرفة نومه فى الساعة ٩.٣٠ من مساء الأربعاء ٢٨ سبتمبر ١٩٧٨ . ولم يشاهد بعد ذلك حياً. فقد أعلنت وفاته بأزمة قلبية فى صبيحة اليوم التالى. أثارت الوفاة الشبهة، فلم يكن قد مضى على انتخابه سوى ٣٣ يوماً، ولم يكن يعانى من مرض خطير، ولم يكن يتناول سوى دواء ضد انخفاض الضغط.

سرعان ما سرت شائعات بأن البابا مات مسموماً، لأنه كان يعتزم إجراء تحقيق حول الفساد المالى فى الفاتيكان، ولأنه كان يريد المضى قدماً فى تنفيذ القرارات الليبرالية للمجمع الفاتيكانى الثانى الذى انعقد فى عام ١٩٦٥، وفى مقدمتها قبول تنظيم الأسرة ووضع ضوابط لتحديد النسل.

فى عام ١٩٨٤، صدر كتاب بالإنجليزية بعنوان «بسم الرب»، يؤكد فيه مؤلفه الكاتب البريطانى ديفيد يالوب نظرية «المؤامرة». وقال إنه توصل إلى ذلك بعد تحقيقات مكثفة استغرقت ثلاث سنوات، متهماً ليتشيو جيلى. وكان جيلى هذا رئيس العصبة الماسونية الإيطالية المشبوهة بعلاقتها الغامضة بالفاتيكان، وبرجال المصارف المتعاملين مع مصرفه.

يمضى يالوب قائلاً إن هناك شركاء لجيلى فى «المؤامرة»، هم الأسقف مارشينكوس) رئيس مصرف الفاتيكان، والكاردينال جون كودى، والكاردينال جان فيو، ثم هناك رجل المصارف روبرتو كالفى. وكان رجال الدين الثلاثة على رأس قائمة متهمة بالفساد أعدها البابا، واعتزم التحقيق معهم ونقلهم من مناصبهم. وكان الكاردينال فيو على علم بهذه القائمة من البابا نفسه.

يورد يالوب تفاصيل مذهلة عن الساعات التى تلت الوفاة. فقد حضر الكاردينال فيو إلى غرفة البابا، وجمع أدويته، وانتزع رزمة الأوراق التى كانت فى يده، وأخذ معها نظارته وخفيه. وضاعت بعد الزيارة وصية البابا الشخصية. وبعد تشخيص سطحى، أمر الكاردينال فيو بتطبيب الجثمان وإعداده للدفن بسرعة. ومن شأن التطبيب الحيلولة دون إجراء تشريح كامل لتحديد أسباب الوفاة. وينسب يالوب إلى القسين اللذين قاما بعملية التطبيب أن الجثمان كان حاراً، الأمر الذى يدل على أن البابا مات باكراً، وليس فى الساعة الحادية عشرة ليلاً، كما أعلن رسمياً.

يسهب يالوب فى تقديم تفاصيل عن الأسماء المشبوهة. نكتشف مثلاً أن اثنين منهم أمريكيان: الأسقف المريب مارشينكوس، والكاردينال جون كودى، وهو رجل دين ارتبط بفضائح كثيرة. وينتهى المؤلف إلى الاعتقاد بأن البابا مات بسم «ديجيتاليس»، الذى كان جيلى يوصى أعضاء عصبته الفاشية بحمله دائماً.

ثم نكتشف أن «البنكير» كالفى كان محور العمليات المالية والمصرفية المشبوهة مع صديقه مارشينكوس، عبر شبكة من المصارف الإيطالية ومصارف جزر البحر الكاريبى، وأدت كلها إلى تبديد عشرات ملايين الدولارات من أموال الفاتيكان. كالفى هذا ما لبث أن وجد مشنوقاً ومعلقاً تحت جسر فى لندن، أما مارشينكوس فقد بات أسير الفاتيكان، لأن خروجه سيعرضه للقبض عليه فوراً، والتحقيق معه ومحاكمته أمام القضاء الإيطالى.

صدرت كتب كثيرة بالإيطالية والإنجليزية وغيرهما تؤكد أو تنفى واقعة «المؤامرة». للأمانة مع الرواية، فقد اخترت أحد أهم الكتب النافية. وهو كتاب «لص فى الليل» للبريطانى جون كورنويل الصادر عام ١٩٨٩ . يؤكد كورنويل بأسلوب يحاكى الأسلوب البوليسى والمخابراتى لجون لوكاريه أن البابا يوحنا بولس الأول مات ميتة طبيعية بجلطة رئوية، وليس بالسم، إنما كانت الوفاة نتيجة إهماله الشخصى، ثم إهمال سكرتاريته وكرادلة الفاتيكان المحافظين المعادين له. لقد شكا فى أيامه الأخيرة من آلام حادة فى صدره، فقوبل باللامبالاة، فلم يتم نقله إلى المستشفى، أو استدعاء طبيب لفحصه.

كورنويل يقول إن هذا البابا مات نتيجة «انعدام التعاطف معه والحب له» فى غمرة صراعات البلاط الفاتيكانى التى كان محورها الأسقف الأمريكى مارشينكوس. ويضيف أن الكرادلة كانوا ينظرون إليه كبابا «خفيف» وليس على قدر المهمة. الغريب أنه هو - كما يقول المؤلف - كان يشاركهم فى هذه النظرة، وكان يتمنى موته، نتيجة المضايقات المستمرة له، ولا سيما من قساوسة ورجال منظمة «أوبوس دى» الغامضة ذات

البابا



اللغــــــــز!

غســــــان الإمــــــام

لم يحظ جالس على مقعد البابوية فى الفاتيكان بمثل ما حظى به البابا الراحل يوحنا بولس (الثانى) سواء فى حياته التى شهدت لحظات «مفصلية» فى التاريخ الحديث، لا أحد يعلم يقينًا إلى أى مدى اقتربت إصابعه منها، أو بعد وفاته التى شهدت احتشادًا إعلاميًا غير مسبوق.

عن البابا الذى لم تخل لحظة اعتلائه الكرسى قبل ٢٧ عامًا من إثارة، كما حدث بالضبط مع محاولة اغتياله، وكثير من زياراته و«اعتذاراته» التى أعلنها ـ أو التى طولب بها، صدرت كتب كثيرة، كانت مثله مثيرة للجدل. ربما كان أهمها الإشارات الواردة فى كتاب الصحفى الأمريكى الأشهر بوب وودوارد عن خفايا الـ CIA والذى صدر قبل سنوات. هنا قراءة فى بعض هذه الكتب.

النفوذ الواسع فى الفاتيكان. فهى أيضًا لم ترغب فى بابا متحرر.

هل هناك علاقة بين الرحيل المفاجئ والغامض لبابا ليبرالى «خفيف الوزن»، والإتيان المفاجئ أيضًا ببابا بولندى محافظ «ثقيل الوزن». وإذا كانت هناك علاقة، فمن رتبها وقام بالمهمة؟

ليس هناك ما يوحى ويؤكد أن للبابا البولندى يوحنا بولس الثانى علاقة من قريب أو بعيد بالميتة الغامضة لسلفه. الواقع إنى أجد انقطاعًا وتعتيمًا تامين فى الإعلام والمعلومات عن الملابسات والمداولات التى أدت إلى إيصال كاردينال بولندى إلى البابوية. وحتى الكتاب الذى سوف أقدمه لاحقًا، ويفضح علاقته بالدبلوماسية والمخابرات الأمريكية، لا يشير إلى ما إذا كان هناك دور مخابراتى أمريكى فى ترحيل البابا الإيطالى، من خلال الاستعانة مثلاً برجلى الدين الأمريكيين مارشينكوس وكودى، أو فيو.

كل ما عثرت عليه هو مقالة فى «هيرالد تريبيون» الأمريكية نشرها جيمس نيتشلر السفير الأمريكى فى روما الذى عاصر التغيير فى الفاتيكان.

يقول السفير إن وفدًا أمريكيًا ضخمًا برئاسة زبيغنيو برزيجنسكى رئيس مجلس الأمن الوطنى فى عهد الرئيس جيمى كارتر (٧٧ ـ ١٩٨٣) توجه إلى روما للمشاركة فى الاحتفال بتدشين عهد البابا البولندى. ويصف الزيارة بأنها «غيرت مجرى الحرب الباردة». فقد كانت من تفكير وتدبير «العصبة البولندية» المحيطة بكارتر، وفى مقدمتها برزيجنسكى نفسه. وضم الوفد أيضًا توماس أونيل رئيس مجلس النواب، وهو كاثوليكى كبرزيجنسكى، ونوابا وشيوخًا من الكاثوليك من أصل بولندى.

يمضى السفير الأمريكى الأسبق فى القول إن مشروع استخدام البابا البولندى فى الحرب الباردة كان له فعل السحر فى نفس كارتر وهكذا، تم تدشين العلاقة مع الفاتيكان من خلال اتفاق سرى بين برزيجنسكى والكاردينال أغوستينو كازارولى وزير خارجية البابا، وأنشئ على الأثر خط ساخن بين واشنطن والبابا، وتبادلت رسائل متعددة بينه وبين كارتر حول مختلف الشئون الدولية، مع تركيز بشكل خاص على «الاضطرابات» فى العالم الشيوعى.

برزيجنسكى مازال حيًا، لكنه يرفض إطلاقًا الحديث عن فترة «التعتيم» المذكورة، وما إذا كان له دور فى إيصال البابا البولندى. كما يرفض الحديث عن شهرة «السيف الدينى» الإسلامى والمسيحى فى وجه الشيوعية «الكافرة». لقد تنبأ هذا المفكر السياسى بتدخل أمريكى فى المنطقة العربية منذ عشر سنوات. وهو يقول الآن إن هذا التدخل سيتوسع. ثم يضع المنطقة داخل شكل هندسى يمتد من الأدرياتيكى إلى آسيا الوسطى وحدود الصين، ومن أوكرانيا إلى المحيط الهندى والخليج العربى، ويعتبرها منطقة عنف واضطراب.

أصل الآن إلى الكتاب الذى أشرت إليه «قداسته: يوحنا بولس الثانى والتاريخ الخفى لعصرنا» الذى صدر فى عام ١٩٩٦ وطبع عدة طبعات بعد ذلك. وفيه يكشف المؤلفان الأمريكى كارل بيرنشتاين والإيطالى ماركو بوليتى عن «الحلف المقدس» الذى قام بين أمريكا ريجان وفاتيكان يوحنا بولس الثانى، ضد الماركسية والعالم الشيوعى خلال الحرب الباردة.

أود أن أذكر هنا أن بيرنشتاين هو المؤلف الحقيقى للكتاب، وأشير إلى أنه صحافى محقق ذو اتصالات واسعة بالطبقة السياسية الحاكمة فى الولايات المتحدة وأجهزتها المخابراتية. إنه بيرنشتاين الذى شارك زميله بوب وود ورد فى نشر الكتاب الذى فضح استخدام الرئيس ريتشارد نيكسون للمخابرات المركزية فى «التجسس» على الحزب الديمقراطى، وأدت الفضيحة إلى سقوط نيكسون فى عام ١٩٧٤.

يقدم بيرنشتاين البابا يوحنا بولس الثانى «لاعبًا محنكًا» فى اللعبة السياسية الدولية، مشكلاً «حلفًا مقدسًا» مع الرئيس ريجان لإلحاق الهزيمة بالشيوعية. ثم يعدد لقاءات البابا المنتظمة مع مسئولين كبار ودبلوماسيين ورجال مخابرات أمريكيين. وينوه هنا بـ «صلواته» التى أداها مع وليم كايسى مدير المخابرات المركزية آنذاك.

يضيف بيرنشتاين أن البابا كان يتلقى بانتظام معلومات مخابراتية سرية وصورًا بالأقمار الصناعية وتقارير عن تحركات عسكرية فى بولندا. المؤلف لا يقول ماذا فعل البابا بكل هذا الركام المخابراتى، إنما أعتقد أنه كان مطلوبًا منه تقديم إيضاحات عنها، نظرًا لمعلوماته عن بولندا التى تفوق معلومات المخابرات المركزية، حسب قول روبرت جيتس نائب كايسى وخليفته. أما الغرض من إطلاع البابا على صور التحركات العسكرية، فهو جلب معلومات من قساوسة الكنيسة البولندية، لا سيما أن بولندا كانت مقرًا لحلف وارسو، وتعسكر فيها قوات روسية ضخمة. والمخابرات المركزية تريد أن تعرف ما إذا كانت هذه التحركات مجرد مناورات، أم لشن هجوم مفاجئ على أوروبا الغربية.

يمضى بيرنشتاين فى الرواية الخبرية من دون تعليق عليها، فيقول: «لا مجال للشك فى أن البابا منح مدير المخابرات المركزية وليم كايسى بركته»، و«المدهش أيضًا أن مدير المخابرات والحبر الأعظم دخلا فى علاقة حميمة وروحية». وكان من شأن ذلك انتشار «شائعات» عن قيام الفاتيكان بأنشطة تجسسية لحساب الأمريكان. ثم يصل إلى القول إن الفاتيكان ساهم فى إيصال معدات إلكترونية، وربما تجسسية، أيضًا لحركة التضامن (سوليداريتى).

مع ذلك، يبقى بيرنشتاين حذرًا، فهو يستدرك قائلاً: «لقد اتبعا ـ الجانبان ـ أهدافهما الأحادية على سكتين محاذيتين: إبقاء كل منهما للآخر على علم. وأيضًا الأخذ بعين الاعتبار الحساسيات، بحثًا عن أرضية مشتركة أخلاقية وسياسية، متورطين بانتظام بالاطلاع على إمكانيتهما المخابراتية الضخمة، لكنهما لم يقوما بنشاطات سرية مشتركة».

أثار الكتاب عاصفة من التعليقات المتراوحة بين الدفاع عن «نظافة» البابا، وبين التأكيد على دوره التجسسى. مدير المخابرات جيتس يقول إنه كان يعد معلومات للبابا عن بولندا والاتحاد السوفيتى. وكان رجال المخابرات المركزية ينقلونها إليه شخصيًا. لكن جيتس ينفى أنه كان يطلب معلومات من البابا.

عميل ريجان والبابا

فى كتابه «كايسى» يقول المؤلف جوزيف بيرسيز: إن وليم كايسى درس فى مدرسة جيزويتية، ثم درس فى جامعة أمريكا الكاثوليكية فى واشنطن، وحمل شهادة فى القانون من جامعة القديس يوحنا (١٩٣٧). ثم انضم إلى المخابرات الأمريكية العاملة فى أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية. كان كايسى عاشقًا للعمليات السرية. لم يكن ناجحًا فى العمل السياسى، إنما أدار حملة ريجان الانتخابية، فكافأه بتعيينه مديرًا للمخابرات المركزية، فلعب دورًا كبيرًا فى الاتصال ببابا الفاتيكان، فى التنسيق معه لمحاربة الشيوعية فى أمريكا اللاتينية. كما كان له دور كبير فى فضيحة تزويد إيران بالأسلحة خلال الحرب العراقية.

أعود إلى عام ١٩٨٧، فقد أصدر بوب وود ورد آنذاك كتابًا مهمًا بعنوان (عالم الـ سى. آى. إيه

السرى) وضمنه أحاديث ومقابلات مع كايسى حتى وفاة الأخير فى العام ذاته بسرطان الدماغ ويشير كايسى فيها إلى تمويل الكنيسة الكاثوليكية فى نيكاراجوا ضد نظام الساندينستا الماركسى. ولا شك أنه كان هناك تنسيق كبير بين البابا البولندى وأمريكا فى العمل ضد حركات القساوسة اليساريين والليبراليين الذين تأثروا بالاشتراكية، وحاولوا فك «الحلف المقدس» بين الكنيسة والأنظمة الدكتاتورية هناك. وبين القساوسة الذين حرمهم البابا أربعة كانوا وزراء فى حكومة الساندينستا.

بالمناسبة، أحيل المهتمين بمتابعة نشاط المخابرات المركزية فى العالم العربى إلى كتاب وود ورد. فقد أدلى كايسى بمعلومات مثيرة عن «عملاء» الـ سى. آى. إيه»، وبينهم ملوك ورؤساء كجعفر نميرى. وبين الزعماء بشير الجميل الرئيس اللبنانى الأسبق الذى تم انتخابه خلال الاحتلال الإسرائيلى (١٩٨٢). ويقول كايسى إنه تم «توظيفه» خلال إقامته فى واشنطن فى أوائل السبعينيات للتدرب على المحاماة. ويضيف أن الجميل ظل يقبض مرتبه إلى آخر يوم فى حياته. ثم يتحدث كايسى عن علاقة المخابرات المركزية بالرئيس السادات وبالطبقة السياسية المصرية آنذاك.

هل كانت المخابرات السوفيتية وراء محاولة اغتيال البابا يوحنا بولس الثانى فى عام ١٩٨١؟

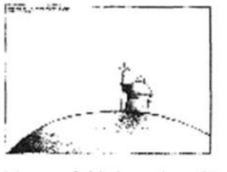
لا شك أن المخابرات السوفيتية كانت تملك معلومات عن نشاطات البابا «المخابراتية والتجسسية» فى بولندا وغيرها، غير أن علاقتها بمحاولة اغتيال البابا ظلت مجال أخذ ورد إلى الآن، وذلك بسبب دهاء وتناقضات المتهم محمد على أغجه الذى قام بالعملية.

ملابسات الاغتيال تشكل قصة مثيرة من القصص الغامضة خلال الحرب الباردة. أغجه شاب من ملاطية فى الشرق التركى الفقير، يصحو فى بواكير شبابه على الاستقطاب الدموى بين اليمين واليسار المتطرفين. كان لابد من انتماء، فاختار منظمة «الذئاب الرمادية» التابعة لحزب العمل التركى اليمينى المتطرف. بدأ أغجه حياته السياسية باغتيال عبدى عبجى (١٩٧٩) رئيس تحرير صحيفة (ملييت) الداعية إلى التسامح. اعتقل. حكم عليه بالإعدام. هرب من السجن، ليرسل رسالة إلى الصحيفة ذاتها يهدد باغتيال البابا (قائد الصليبيين) الذى كان يعتزم زيارة تركيا.

لم يكذب أغجه خبراً. فقد أقدم فى عام ١٩٨١ على إطلاق الرصاص على البابا خلال قداس فى ساحة القديس بطرس. استقرت رصاصتان فى بطن البابا وكتفه. اعتقل أغجه. راح يدلى فى التحقيق بإفادات متناقضة دوخت المحققين الإيطاليين المحترفين، فتارة يدعى أنه تصرف وحده، لأنه «المسيح المنتظر»، وتارة يقول إنه عميل لمافيا

«الذنب الوحيد
فى الجاسوسية أن يلقى القبض
عليك متلبساً بجرمك»

ريتشارد هيلمز



البابا اللغز!

التهريب التركية، وتارة يقول إن المخابرات البلغارية هى التى دفعته. حكم على أغجه بالسجن المؤبد، لكن المتهمين البلغار والأتراك تم الإفراج عنهم (١٩٨٦) لعدم كفاية الأدلة.

هنا تتشابك المعلومات والتأويلات. معلومات تقول إن أغجه عميل «مبرمج» للمخابرات السوفيتية منذ بواكير شبابه، وتم تدريبه فى معسكرات الفلسطينيين فى سوريا ولبنان. ودعم هذا المنطق ضابط مخابرات سوفيتى هارب إلى أمريكا. قال النقيب فكتور شيموف أن كولونيلا سوفيتيا يدعى سولوفييف أبلغه خلال زيارته لبولندا (١٩٧٩) أنه تلقى برقية من يورى أندربوف مدير الـ (كى. جى. بى) يقول فيها: «احصلوا على المعلومات الممكنة عن كيفية الاقتراب من البابا جسدياً». وفسرت البرقية على أنها أمر بالاغتيال. ثم وبخ أندربوف الذى حل محل بريجنيف القادة البولنديين وقيادات المخابرات متسائلاً: كيف تسمحون بانتخاب مواطن من بلد اشتراكى بابا لروما؟

لقد ضاعت الحقيقة، لأن أغجه ربما كان عميلاً مزدوجاً، وكاذباً كبيراً. وفى صراعات الحرب الباردة، حاولت المخابرات الأمريكية والإيطالية الضغط عليه لاتهام الروس بالجريمة، فيما اندفع الروس للدفاع عن البلغار. أما المافيا التركية فربما كانت عميلة للبلغار، فى حين كانت تتبادل «المنافع» مع «الذئاب الرمادية».

الطريف أن لا أحد يدرى ماذا دار بين البابا وأغجه عندما زار الأول الأخير فى سجنه. خرجت الصحافة الإيطالية تقول ساخرة إن أغجه ربما حاول إقناع البابا «الصليبى» بأنه هو فعلاً «المسيح المنتظر».

كارول فوجتيلا شاب من الريف البولندى أفاق وعيه السياسى فى مراهقته وبواكير شبابه على وطن محاصر. كانت بولندا الكاثوليكية فى الفترة بين الحربين العالميتين الأخيرتين (١٩١٩ - ١٩٣٩) محاطة بدولتين كبيرتين: ألمانيا النازية (اللوثرية) وروسيا السوفيتية (الأرثوذكسية). وكغيره من شباب جيله، رأى فوجتيلا فى الدين (الكثلكة) بديلاً وتعويضاً عن عجز الوطن عن مواجهة مطامع هذين الجبارين.

تخلى فوجتيلا عن حياة المدينة ولذائذ شبابه من رياضة وفن ونساء، ودخل السلك الكهنوتى، ربما ليتجنب تجنيده فى الحرب، لكن لا يمكن الإنكار أن إيمانه الدينى كان قوياً إلى آخر يوم فى حياته. وكانت الصدمة كبيرة للقس فوجتيلا. انسحبت ألمانيا النازية، لكن الوطن كله بات فى قبضة السوفييت، وبدأ صبغ المجتمع بالصبغة الماركسية. وكان الجهد الشيوعى منصباً على تحييد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية فى بلد كاثوليكى شديد الإيمان.

كرجل دين نشيط ومتحمس، كان فوجتيلا تحت رقابة البيروقراطية الحزبية والمخابراتية، غير أن شعبيته المبكرة بين «المؤمنين» حالت دون اعتقاله أو تصفيته، وإن لم تحل دون قمعه. واستفاد فوجتيلا فى السبعينيات من «الوفاق» الذى قام بين أمريكا والاتحاد السوفيتى، فقد تراخت قبضة الرقابة على أسقف كراكو، بحيث راح يتجرأ على القيام بجولات دينية فى بولندا وأوروبا الشرقية، على الرغم من أن معظمها أرثوذكسى الديانة.

لا ضرورة هنا لإعادة التذكير بعلاقة الكنيسة الكاثوليكية بالولايات المتحدة، إنما أقول إن شهرة الأسقف ثم الكاردينال فوجتيلا تجاوزت «الستار الحديدى» إلى الغرب، وكانت فى مقدمة العوامل التى أدت إلى وصوله إلى كرسى البابوية فى روما (١٩٧٨)، إثر الموت المفاجئ للبابا يوحنا بولس الأول، غير أن حرصه على سلامته داخل الفاتيكان دفعه إلى الإتيان بـ «سكرتارية» من قساوسة بولنديين شكلوا مكتبه الإدارى إلى آخر يوم فى حياته.

ماذا يفعل بابا بولندى فى كنيسة بدأ تحررها المتسارع منذ المجتمع الفاتيكانى الثانى يزرع الأمل لدى ٩٥٥ مليون كاثوليكى، الأمل فى تكييف العقيدة وفق حاجات الحياة اليومية المعاصرة؟

دهشة «المؤمنين» بوصول بابا من العالم الشيوعى، ما لبثت أن انقلبت إلى خيبة، ولا سيما فى أوساط مثقفى اللاهوت. لقد استفاد البابا الجديد من الشكوك التى بدأت تراود مفكرى أوروبا مؤمنين وغير مؤمنين بالماركسية، لإعلان عدائه السافر للماركسية. رفض البابا جدلية صراع الطبقات. دعا إلى جدلية روحية معتبراً الشيوعية «ثورة ضد الرب»، وعنفاً ضد كبرياء الفرد المستلهمة من الإيمان بالله.

الواقع أن التطبيق الماركسى السوفيتى للماركسية أدى إلى بيروقراطية مترهلة فى الحزب والدولة، راحت معالم التراخى والانكسار النظرى تظهر واضحة، فى سنى خرف بريجنيف، الأمر الذى دعم موقف وفكر البابا البولندى المعادى للشيوعية، ووظفت آلة الدعاية الغربية المتفوقة الموقف البابوى، لإقناع العالم بأن الشيوعية قضية خاسرة، وانهيارها بات مسألة وقت فحسب. وركزت الكنيسة على الإيحاء للشعوب السلافية بأن الماركسية مسئولة عن إقصائهم عن قيم الثقافة الأوروبية الغربية.

كان البابا يوحنا بولس الثانى فى الواقع النظرى والميدانى بابا الحرب الباردة. هو أيضاً استفاد من الحملة الماركسية لخنق وتطويق الفكر الكاثوليكى الدينى وغير الدينى، فى حملة أكثر صرامة وسرية. الدكتوراة فى الفلسفة لم تنفع دون عدائه لفلسفة الشك كأداة للوصول إلى اليقين. جرى تطهير الكنائس والمدارس والجامعات الكاثوليكية من المفكرين والمدرسين الليبراليين. فلا حوار ولا التقاء مع «المرتدين». لا قبول بتقدم العلم والفكر والعقل على الأخلاق والفضائل الكاثوليكية الاجتماعية والعائلية. نعم، للحرية لكن فى يدها وعلى عقلها قيد دينى، لأن «العقلانية المادية» أدت إلى

انحلال وتفكك المجتمع المسيحى، ولا سيما فى الغرب الأوروبى.

هل كان لدى البابا الراحل مشروع دينى وسياسى؟

لم يكن هناك مشروع رسمى معلن، لكن تمت بلورته من خلال الإعلام والمنشورات الفاتيكانية وتصريحات كرادلتها المحافظين. البابا يريد أوروبا من الأطلنطى إلى الأورال «قلعة مسيحية»، من خلال وحدة دينية تضم الكنائس كلها، وفى مقدمتها الكنيسة الأرثوذكسية. يوحنا بولس الثانى هو، إذن، بابا الصحوة الكاثوليكية، البابا المبشر بقلعة موحدة وجامعة للأمة والدين والثقافة، بحيث يصبح الإيمان خبزًا يوميًا «للمؤمنين». إنه بابا عصرنة الكاثوليكية، من دون تمريرها عبر العلمانية المادية «المجردة من الروح».

من هنا، ومن خلال هذا الإيمان الدينى الصارم، اصطدم البابا بعد نهاية الحرب الباردة، بقيم «الرأسمالية المتوحشة»، التى بشرت بها تاتشر وريجان وفلاسفة السوق من ملتون فريدمان إلى فون هايك. ومن هنا، كان رفض البابا العلنى والناقد لـ «مدينة الخطيئة»، التى أقامها جيل بيل كلينتون. وهكذا، فهو ضد العولمة و«الأنانية المادية»، التى تحول دون نقل التقنية والسلع إلى جمهوره الأكبر والأفقر فى العالم الثالث. هو أيضًا يلوم الدولة الصناعية التى تدمر البيئة ومعها الفضائل المسيحية، وتوسع الهوة بين الذين يملكون والذين لا يملكون، وتنقل المجتمع كله إلى عالم مادى، عالم بلا روح.

هذه الملائكية المتطهرة المضادة لـ «الأنانية المرفهة» عند الأغنياء، لم تحل دون ممارسة نقد عقلانى قوى وأحيانًا جارح إلى مسلمات البابا الدينية، ولأسلوبه الصارم فى إخماد حرية النقد والفكر فى كنيسته وجامعته ومدارسه. فهذه الأفكار والمواقف التى حملها معه من بلد «متخلف» نسبيًا إلى روما الفاتيكانية كانت بمثابة عودة ذكية إلى كنيسة القرون الوسطى، حيث الدين هو المرجع اليومى والحياتى والسياسى.

رأى مثقفو اللاهوت والمفكرون الليبراليون فى البابا مثقفًا لكنه مثقل برؤى متناقضة بين حملته على الماركسية ورفضه للرأسمالية. إنه بابا ذكى ويحاول فرض منطقه الذاتى ومفاهيمه الجامدة فى الرؤى الليبرالية والاشتراكية الأوروبية والأمريكية، يبدو البابا يوحنا بولس الثانى مجردًا من إهاب المظهر «السبور» و«المودرن» الذى ظهر فيه. فهو بابا الطقوس والقداديس والتماثيل والقديسين الذين طوبهم بالعشرات. إنه يجسد عندهم كنيسة القرون الوسطى المراتبية التى قاومت حتى نهاية القرن التاسع عشر عصر التنوير، وتحالفت مع «النظام القديم» ضد الماركسية والاشتراكية والصحافة الحرة، الكنيسة

«مـن يمـلـك بـرلين يمـلك ألمانيـا، ومن يمـلك ألمانيـا يمـلـك أوروبـا»

لينيـن



البابا اللغز!

التى رفضت العلمانية وكفرتها، لمحاولتها الفصل بين الدين والدولة، بين التعليم والتلقين.

البابا الراحل الذى طرد مفكرى اللاهوت من كنيسته كما طرد المسيح «الفريسيين» من الهيكل، هو البابا المعصوم و«المقدس» و«ممثل الله على الأرض». لم يتخل البابا عن حكمه المطلق فى ذروة حملته على الدكتاتورية فى العالمين الرأسمالى والماركسى، و«الحاكمية لله»، فى كنيسة اعتبرها امتدادًا للكنيسة الأولى. وهو فى حكمه لم يبتعد كثيرًا عن مبدأ «الحق الإلهى المقدس» فلكى «تكون إمبراطورًا يجب أن تكون مقدسًا».

الواقع أن الكنيسة الكاثوليكية مرت بمراحل زمنية ثلاث: «المرحلة التطهيرية»، التى تم فيها سحق «البدع» ورفض الكنائس الأخرى. المرحلة الثانية (١٦٠٠ - ١٧٠٠) هى مرحلة الكنيسة الكاثوليكية الغربية: وحدة أوروبا، والقبول التدريجى بفصل الدينى عن الزمنى، والتسليم بسلطة الأباطرة والملوك والنبلاء، على أن تكون «شرعية» المباركة المقدسة من كنيسة البابا. ثم المرحلة الأخيرة التى حاولت فيها الكنيسة التكيف مع عصر التنوير، والتسليم الذى لا مفر منه بمفاهيم الثورات البورجوازية والعلمانية التى أشاعت قيم التعددية فى المجتمعات والأفكار، بحيث بات مستحيلاً على أى بابا أن يعود فيخضع السياسى للدينى، والعقل المطلق لـ «المقدس».

التناقضات فى موقف البابا الراحل من القضايا الاجتماعية تفسر جموده الفكرى وعجزه عن تلمس آثار سياسته الرافضة للتكيف مع الحياة المعاصرة. كان ضد الإجهاض بحجة أنه قتل للحياة. كان ضد تنظيم الأسرة وتحديد النسل، بحيث تجاوز إنتاج الأولاد فى عالم الفقراء إنتاج السلع الضرورية لحمايتهم من الجوع والمجاعة.

كان البابا ضد ثورة الفراش، ضد كازانوفا ودون جوان وكلينتون ومونيكا. رفض الهندسة الوراثية، والتلقيح الصناعى والاستنساخ، فهو عند الجيل الذى رأى الحياة فى الستينيات ضد «الثورة الجنسية»، ضد موانع الحمل، بما فيها الحبوب التى اخترعها عالم كاثوليكى، وتذرع بالطهارة العذرية، بدلاً من الواقى الذكرى. نعم، مازال الإجهاض يقتل نصف مليون امرأة كل سنة، لكن «المؤمنين» من أزواج وعشاق الذين لم يستعملوا الواقى تسببوا فى موت ملايين النساء والرجال، وجردوا أفريقيا من شبابها الذى هو أملها فى المستقبل.

كيف تمكن البابا الراحل من التغطية على كل هذه التناقضات النظرية والاجتماعية فى فلسفته الدينية، وموقفه الغامض والمرتبك من العصرنة والديمقراطية والحرية؟

الأصولية المسيحية التى بشر بها البابا حاكت الأصولية الإسلامية فى استغلالها «ثورة» الإعلام الجماعى، من دون استخدام عنفها ودمويتها. استغلت الكنيسة إلى أبعد استغلال «البابا الإلكترونى»: بابا وسيم وجذاب، يقضى أسعد أوقاته فى قداديس الهواء الطلق، ويجمع فيها ملايين «المؤمنين» المؤقتين، بحيث نافس وتفوق على جاكسون ومادونا وملوك الروك والراك والبوب. إنه البابا الساحر الذى يتكلم سبع لغات، البابا الخطيب الذى يهز بإيمانه العميق جماهير البسطاء فى دعوته إلى التعلق الغيبى بالعناية المقدسة التى أنقذته من الاغتيال هو وشريكه ريجان، وساعدتهما فى التغلب على «إمبراطورية الشر» الكافرة.

حتى فى الأمراض التى تكاثرت على البابا، بعد محاولة اغتياله، استغلتها الكنيسة فى محاولة استعادة «المؤمنين الضالين» إلى أحضان «المدينة الفاضلة». كان البابا المعروض فى قفصه الزجاجى الواقى من الرصاص ملهمًا ومحمسًا لعفوية الفقراء المؤمنين والمحرومين. وكان فى مظهره المرضى جاذبًا لهم إلى عروضه القداسية. لقد هتفوا وصفقوا له. أحبوه واحترموه، لكنهم تفرقوا بمجرد أن غاب عنهم. فتحريمه الطلاق، ورفضه سيامة المرأة قسيسة وكاهنة، و«ممنوعاته» الجنسية أبعدت المؤمنين عن كنيسة تقية، لكنها غير مسايرة للعصر.

أحسب أن أصولية البابا الراحل فى إيمانها، وفكرها المبسط، وفى رفضها العصر، قريبة الشبه بالأصولية الإسلامية المتشددة، الرافضة لعالم تكرهه وتحاربه، لأنها غير قادرة على التكيف مع انفتاحه ومجاراته فى تطوير علمه وتقنيته وأفكاره المتسامحة.

الفرق الوحيد فى أن البابا رفض العنف، ناضل وجاهد بالكلمة والصلاة من أجل عالم حائر، ثم غادره تاركًا إياه ظالمًا ومظلومًا، غنيًا وفقيرًا، كما وجده.

كان حكم البابا يوحنا بولس الثانى الطويل (٢٦ سنة) فرصة لتدخل الكنيسة الكاثوليكية فى علاقة جدلية مع الأديان الأخرى والدول والشعوب. وقد اتسمت هذه العلاقة بكثير من الحيوية والحرارة والفهم المتبادل. وتجاوزت خلالها الكنيسة كثيرًا من المواقف التاريخية والدينية التى عرقلت تنمية علاقات صحية وإيجابية بين الأديان.

فى المبادرة إلى الاقتراب من الأديان، تحولت الكنيسة من التكفير إلى الحوار، لكن من دون اعتراف تام بهذه الأديان. تم البحث عن نقاط الالتقاء وموارة فواصل الخلاف، من غير التخلى عن الاعتقاد بأن الكثلكة هى «الدين المقدس الكامل»، فيما الأديان الأخرى ناقصة أو غير معترف بها.

فى الرؤية الكاثوليكية التاريخية، كان المسلمون «كفارًا»، ولذلك جرى غزوهم، مع التطور الكبير فى الفكر اللاهوتى، بات من الممكن الدخول فى حوار مع الهيئات والمرجعيات الدينية الإسلامية، من غير الاعتراف بالإسلام دينًا، فى حين أن الإسلام يعترف بالمسيحية واليهودية كدينين سماويين،

وإن كان يعتقد أنهما تعرضا إلى بعض التحريف.

فى الفقه الكهنوتى، فمن خلال السيد المسيح فقط يمكن للإنسان الخلاص، لكن ليس على الكثلكة أن تحرم غير المسيحيين من الخلاص. بل ذهبت بعض منشورات وبيانات فقهية إلى القول إن الله تكلم بلسان المسيح والأنبياء والرسل، وربما تكلم أيضاً بلسان محمد والقرآن.

هذا الحوار لم يمنع الكنيسة الكاثوليكية من الدخول فى منافسة ميدانية حادة مع البروتستانتية فى أمريكا اللاتينية، ومع الإسلام فى أفريقيا. غير أن اهتمام البابا الراحل انصب على محاولة مصالحة الكنيسة الأرثوذكسية، وصولاً إلى الوحدة المسيحية، بعد الانشقاق الكبير فى القرن الحادى عشر بين الكنيستين، إثر خلاف عميق حول طبيعة المسيح وعصمة البابا وقداسته اللتين لا يؤمن بهما الأرثوذكس.

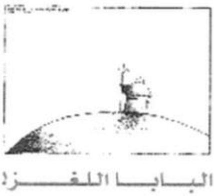
لم يتمكن البابا من تحقيق تقدم كبير فى هذا المجال، بسبب الفتور لدى الكنيسة الأرثوذكسية، على الرغم من الاعتذار الحار لها عما سببه الكاثوليك للأرثوذكس من «عذاب» طوال الألفية الميلادية الأخيرة. وكان جواب الجمهور الأرثوذكسى دائماً هو التنديد العلنى بـ «البابا المهرطق».

كان البابا الراحل كثير الاعتذار. اعتذر عن التعذيب والحرق. اعتذر عن الإكراه على تغيير الدين. اعتذر عن محاكم التفتيش. هذه الاعتذارات لم تكن عن الكنيسة، فقد ظلت «معصومة ومقدسة» لديه، وإنما عن رجالها. لم أعثر على اعتذار عن رفض العلم واضطهاد العلماء فى القرون الوسيطة. كذلك لم يعتذر البابا للعرب والمسلمين عن الحروب الصليبية التى ساهم البابوات فى شنها، وحشد «المؤمنين» فى أتونها. لم يعتذر صراحة عن الحروب الدينية التى أشعلتها الكنيسة ضد الكنائس «المنشقة»، من لوثرية وبروتستانتية التى استمرت عشرات السنين. قتّل كاثوليك أيضاً فى هذه الحروب بسيوف الكاثوليك. لم يكن هناك من وقت للتفريق بينهم وبين أعدائهم. كان القساوسة الكاثوليك يعتذرون، تاركين للسماء أن تفرز «المؤمنين» عن «الكفار».

لكن اليهود بالذات كانوا المستفيد الأكبر من الاعتذارات البابوية الحديثة. فقد خصهم البابا الراحل بعد الأرثوذكسية بالاعتذار وطلب الغفران. يعترف اليهود بأن ما فعله البابا من أجلهم أكثر مما فعله كل البابوات على مدى ألفى سنة. فى كتابه «عبور عتبة الأمل» يخص «اليهودية» بباب منفرد، معتبراً إياها «أقرب الأديان إلينا»، مشيداً بـ «الجذور اليهودية» للمسيحية، مباهياً بالصداقات الشخصية الحميمة التى ربطته بكثير من اليهود، منوهاً بالحوارات المستمرة مع المرجعيات الدينية اليهودية.

«المنتصرون الأوائل (فى الحرب ضد العراق) هم أولئك الذين يريدون صدام الحضارات والثقافات والأديان»

جاك شيراك



لا شك أن الكنيسة الفاتيكانية فعلت ذلك نتيجة للنفوذ الكبير لليهود فى العالم الغربى على السياسة والمال والإعلام، ونتيجة للضغط الذى مارسوه عليها. مع ذلك لم تسلم الكنيسة من كراهية اليهود للكاثوليك. فهذا الإعلام هو الذى يركز على الفضائح الجنسية التى يرتكبها القساوسة «المحرومون من الزواج» فى الكنائس والأديرة، وبصورة خاصة فى الولايات المتحدة، حيث التحق كثير من الرهبان بـ «الثورة الجنسية». كان البابا كلما قدم تنازلاً، كذهابه إلى أبعد مما ذهب إليه المجمع الفاتيكانى من تبرئة اليهود من «دم المسيح»، كان اليهود يطالبونه بتنازلات أكثر وأكثر.

استغل البابا الراحل اتفاق أوسلو ليعترف اعترافاً كاملاً بإسرائيل (١٩٩٣)، وليتبادل التمثيل الدبلوماسى معها (١٩٩٤)، لكن سفارته بقيت فى يافا. وبات القانون الإسرائيلى يسرى على أملاك الكنيسة فى الأراضى المحتلة. الاعتراف الجرىء بإسرائيل لم يمنع من المطالبة بـ «الحقوق المشروعة» للفلسطينيين فى وطن ودولة، وإدانة عذابهم والصلاة من أجلهم، فى مقابل العيش بسلام مع دولة إسرائيلية وراء «حدود آمنة». غير أن البابا لم يفكر يوماً بدعم الكلمة والصلاة بإرسال فريق من كرادلته وأساقفته للسير، مثلاً، فى مسيرة الآلام على خطى السيد المسيح، للتأكيد على حرية العبادة فى الدولة اليهودية.

فى أضعف الإيمان ظلت الكلمة هى الأداة. أيد البابا عملية السلام، على أساس قرارات الأمم المتحدة. طالب بوضع دولى للقدس، ووقف استيطان المنطقة الشرقية (العربية) فيها، واعتبره «احتلالاً غير قانونى». بل رفض اعتبار القدس عاصمة أبدية لإسرائيل.

فى زيارته لإسرائيل والأراضى المحتلة، حظى البابا بضيافة إسرائيلية رسمية كرئيس دولة. هذا لم يمنع ألسنة الحاخامات الطويلة والشارع اليهودى الذى تربى على الكراهية من تعيير «قداسته» بأنه «صنم معبود»، واتهام كنيسته بأنها لم تعمل كثيراً لإنقاذ اليهود من «المحرقة» النازية خلال الحرب العالمية الثانية.

فى المقابل، فقد لقى البابا احتفالاً رسمياً وترحيباً شعبياً، لدى الدول العربية التى زارها. على الرغم من أنه رفض الاعتذار فى دمشق عن الحروب الصليبية، وأصر على إقامة صلاة «مشتركة» مسيحية إسلامية فى المسجد الأموى، ثم قداس كبير أمام ضريح يوحنا المعمدان (يحيى)، متجاهلاً ضريح صلاح الدين الأيوبى الملاصق للمسجد. لم يكن له ما أراد. فقد أحبطت المؤسسة الدينية السورية مشروع القداس والصلاة المشتركة. واكتفى البابا بملامسة ضريح يحيى، وبتمتمة صلاة قصيرة قبل الانصراف.

فى المقارنة بين موقف البابا الراحل مع العرب والمسلمين ومواقف بابوات سابقين فى القرنين الماضيين، يبدو يوحنا بولس الثانى إيجابياً، وإن لم يكن متجاوباً تماماً. لابد من التذكير بالراحة التى أبداها البابا بندكتوس الخامس عشر لاجتياح القوات البريطانية فلسطين. قال البابا عشية انعقاد مؤتمر فرساى: «ثم من منا لا يتذكر ما بذله أسلافنا (الصليبيون) من جهود فى سبيل استعادة هذه الأماكن المقدسة من أيدى غير المسيحيين؟».

أما البابا بيوس العاشر فقد سأله تيودور هيرتزل مؤسس الحركة الصهيونية: «هل نستطيع الاعتماد على الفاتيكان فى وطن قومى؟»، رد البابا بجفاء: «لم يعترف اليهود بنا، لذلك لا نستطيع الاعتراف بالشعب اليهودى»، ثم أردف مخففاً من وطأة الجواب: «إذا جئتم إلى فلسطين واستقر شعبكم هناك، فإننا مستعدون بكنائسنا وقساوستنا لمساعدتكم جميعاً».

لعل هذه المواقف الماضية واللاحقة للكنيسة الكاثوليكية تغنى عن كل تعليق.

هل لعبت الدبلوماسية الأمريكية وأدواتها الخفية والظاهرة «دوراً» ما فى دفع الكاردينال الألمانى جوزيف راتزينجر إلى السدة البابوية، كما فعلت، على الأغلب، فى «تصعيد» البابا الراحل؟

ما من أحد يستطيع أن ينفى أو يجزم الآن، بانتظار «الدخان الأسود» الذى قد ينطلق فجأة ليس من مداخن الفاتيكان هذه المرة، وإنما من «المداخن» الصحفية وقنوات الدبلوماسية السرية. غير أنى أقول إن من خلال التحقيقات الصحفية التى نشرت قبل تحول الكاردينال راتزينجر إلى البابا بنديكت السادس عشر، يمكن للمراقب السياسى أن يلاحظ الرغبة الأمريكية الملتهفة لانتخاب بابا من العالم الثالث، لتكون مواقفه من الإسلام والأصولية الإسلامية «الإرهابية» أكثر تحدياً ومجابهة، مما كان عليه موقف البابا الراحل.

على أية حال، لا أعتقد أن تُقى وتقية إدارة بوش غير مرحبتين فى بيتها وسرها بالبابا الجديد. لماذا؟ لأن انتخاب بابا ألمانى محافظ من شأنه تشجيع إدارة بوش ومرجعيتها المسيحية المحافظة على العيش فى أمل تحول «أوروبا القديمة»، على حد تعبير الوزير رامسفيلد، إلى «قلعة مسيحية» كان البابا الراحل يحلم بها، تماماً كما يجرى إحياء الذاكرة الدينية للأمريكيين، فى «هوجة» لا عقلانية، لم يعرفها أى مجتمع غربى فى عصر الحداثة العلمانية.

وهكذا، فمعركة إدارة بوش وأمريكا الآن مع أوروبا «العلمانية»، مع أوروبا «القديمة»، مع أوروبا شيراك وشرويدر، أوروبا «اللا مسيحية» التى ترفض مسايرة السياسة الأمريكية الاستفزازية المبطنة بالقبضة الإيمانية للمحافظة المسيحية - اليهودية الجديدة، وتقاوم من خلال الموقف الأوروبى السلبى من حرب بوش «المقدسة» فى العراق، الدور الأمريكى المهيمن على العالم، بلا رديف أو شريك.

لقد أطل من الشرفة الفاتيكانية صقر دينى شديد المحافظة والتمسك بـ «العقيدة المتطهرة»، وكان أميناً عليها خلال عهد صديقه الراحل، بل زايد عليه فى رفض الاتجاهات التعددية داخل الكنيسة، ولاحق معه الأساقفة والقساوسة والمفكرون اللاهوتيون المتحررون الراغبون فى كنيسة متكيفة مع حاجات «المؤمنين» فى هذا العصر.

الكنيسة تعيش، إذن، حالة انتقال من

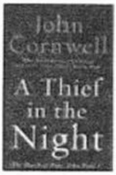
البابا جون واين إلى البابا فرانكشتاين ذى الوجه العظمى والعينين الغائرتين الموشحتين بهالتين من السواد الشاحب الغامض. نعم، إنه يحاول التخفيف من وقع «الصدمة» على المؤمنين بالتأكيد على تواضعه وتسامحه. لكن فكره معروف. فقد سبق أن قال ناعيًا: «لقد انتقلنا من ثقافة مسيحية إلى ثقافة علمانية».. وهو فى تعصبه، يرفض فكرة أن الأديان الأخرى يمكن أن تقود إلى «الخلاص».. وموقفه الاجتماعى والدينى رديف لموقف البابا السابق، فهو مثله ضد الإجهاض، و«قسوة» الراهبات والنساء اللواتى يتجاهلن «الفروق البيولوجية» بينهن وبين الذكور.

بدأ البابا الجديد حياته المراهقة فى منظمة «شباب هتلر»، ثم جند فى الجيش الألمانى المحارب، فوقع فى أسر الأمريكان. وخرج من معسكر أمريكا إلى صومعة الرهبنة الكاثوليكية، وتدرج فى الرتب، إلى أن استعاره البابا البولندى من الكنيسة الألمانية، ليتولى فى الفاتيكان مسئولية المحافظة على «العقيدة».

فى رأى مفكرى اللاهوت، فالبابا الجديد سيكون عقبة كأداء فى طريق «التغيير الضرورى» الذى كان منشودًا بعد غياب بابا محافظ. إنها كنيسة كرادلتها من ملكوت الأغنياء وجمهورها من عالم الفقراء. يقول الأسقف الأفريقى دزموند توتو أن البابا بنديكت «لم يكن مرشحى، وأمل أن يغدو أكثر انفتاحا».. اليهود دافعوا عنه وغفروا له ماضيه «النازى»، لأنه لم يكن قد بلغ سن الرشد والوعى ولأنه شجع كثيرا البابا الراحل على الاعتراف بإسرائيل. أما الكاتب المتخصص جون كورنويل فقد قال إن راتزينجر هو إشارة إلى الليبراليين بأن يرحلوا أو «يقفوا فى الصف». فهو «قاضى التفتيش» ضد الليبراليين، ومعركته فى أوروبا التى يحلم بها كأوروبا القرن التاسع عشر، عندما أدان البابوات الديمقراطية والحرية الدينية.

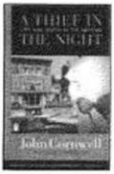
هذا البابا هو آخر هدية نفيسة لـ «المؤمنين» من البابا الراحل. أيقونة محافظة وأكثر انطواءً وسرية من سلفه. لم تحدث خيانة، فقد وضع الكرادلة المحافظون الذين «صعدهم» البابا يوحنا بولس الثانى، بابا على شاكلتهم. لكن هل ينجح بابا مؤقت (عمره ٧٨ سنة) حقًا فى إلهاب عواطف الأجيال الأوروبية الجديدة، ويتجه بها نحو «أوروبا القلعة المسيحية»؟ لقد أخفق البابا الراحل فى تحقيق مشروعه الأصولى خلال ل ٢٦ سنة من حكمه، على الرغم من شعبيته وسحره الجماهيرى. إذا نجح البابا «المقدس» فى صنع «المعجزة»، فستكون عودة أوروبا المسيحية إلى حضن أمريكا الأصولية ساعة فرح حقيقية فى كنيسة البيت الأبيض.

وقفت فى باريس على عتبة الكنائس والكاتدرائيات التى أقامت قداديس الصلاة من أجل شفاء البابا المحتضر يوحنا بولس الثانى، ثم للصلاة لراحة نفسه. وها هى تقيم قداديس «الفرح» بالبابا «المقدس الجديد». أتطلع إلى «المؤمنين» الخاشعين الداخلين والخارجين، فلا أرى شبابًا فى سن العشرين، ولا حتى فى الثلاثين. رأيت فقط عجزة «العمر الثالث» (Trosieme Age) يجرون أقدامهم متعثرين ليلحقوا، ربما بعد أسبوع، أشهر، أو سنوات قليلة، بالبابا الذى رحل، تاركين الكنيسة الأوروبية خارج فسحة الأمل. ■









1 - Veil: The Secret Wars of the CIA, 1981 - 1987
(الحجاب: الحروب السرية لوكالة المخابرات المركزية «١٩٨١ - ١٩٨٧»)
Bob Woodward
Simon & Schuster, 544pp., 2005
(طبعة جديدة)

2 - His Holiness: John Paul 11 and the Hidden History of our Time
(قداسته.. يوحنا بولس الثانى والتاريخ الخفى لعصرنا)
Carl Bernstein, Marco Politi
Thorndike Pr; Largeprint edition, 1997

3 - A Thief in the Night: Death of pope John Paul 1
(لص فى الليل.. موت البابا يوحنا بولس الأول)
John Cornwell
Penguin Books Ltd, 416pp., 1990

4 - Crossing the Threshold of Hope
(عبور عتبة الأمل)
Pope John Paul 11
Alfred A Knoph, 244pp., 1994

5 - In God's Name: An Investigation into the Murder of Pope John paul 1
(باسم الرب.. تحقيق فى مقتل البابا يوحنا بولس الأول)
David Yallop
Bantam Dell Pub Group, 339pp., 1984

كتاب الزاوية

زكى نجيب محمود

الثورة الفكرية

انظر إلى الثورة الفكرية التى ثارت بها أوروبا على قديمها لتحل محله جديدًا يناسب حياتها الجديدة، وكان ذلك فى العصر الذى يطلق عليه عصر النهضة، فماذا صنعت أوروبا حينئذ؟ إنها تناولت البناء العقلى الذى كان سائدًا قبل ذلك، تناولته من أساسه، فاستحدثت لنفسها منطقًا جديدًا، أهم معالمه أن تكون الخبرة المباشرة (عقلية كانت أو حسية) هى نقطة الابتداء، ولا تكون نقطة الابتداء أقوالاً حملتها إليهم موجات الزمن.

لقد كانت لنا بعض المحاولات فى تغيير النمط الفكرى القديم، ليكون لنا بالنمط الجديد حياة جديدة، ومن أمثلة هذه المحاولات ما حاوله طه حسين فى أن يدرس الأدب القديم نفسه غير متأثر بأحكام القدماء، وما حاوله العقاد وكثيرون آخرون من شعرائنا فى أن يصدروا عن خبراتهم الفردية الخاصة والمباشرة.

شىء ما فى مناخنا الفكرى يردنا عن إحداث هذه الثورة، فمازالت الكلمة المسموعة هى لغير الراغبين فى ثورة فكرية كالتى نصورها، ولا حرج عليهم أن يعلنوا عن رأيهم فى صراحة وعلانية، وأما الراغبون فى مثل هذه الثورة الفكرية، فعليهم أن يراوغوا فى التعبير عما يريدون، اجتنابًا منهم لوجع الدماغ، تاركين لقرائهم أن ينزعوا المعانى من بين السطور.

ستيفن زونس

عامان على الغزو...

■■ فى سلسلة من المقالات التى كتبتها فى الفترة ما بين يونيو ٢٠٠٢ وفبراير ٢٠٠٣، تنبأت بأنه إذا غزت الولايات المتحدة العراق، فإنه من غير المحتمل أن تجد برامج أسلحة الدمار الشامل التى زعمت إدارة بوش وزعماء الكونجرس من الحزبين أن العراق يمتلكها فى إطار جهودهم لتبرير السيطرة الأمريكية على دول الخليج الغنية بالنفط. وتنبأت أيضا بأنه لا توجد أية علاقة بين النظام العراقى وتنظيم القاعدة وأن غزو الولايات المتحدة للعراق سيشجع الإرهاب بدلا من إعاقته. وفى النهاية، تنبأت أننا سنجد أنفسنا فعليا معزولين فى المجتمع الدولى وسنواجه بحرب تمرد دموية بدون نهاية فى الأفق.

فى هذين العامين منذ انطلقت إدارة بوش وغزت العراق، أحسست ببعض الارتياح لكونى كنت فى الطريق الصحيح.

لا العمل العسكرى الأمريكى ولا الانتخابات العراقية التى أجريت فى ٣٠ يناير قد حققت أى شىء لتهدئة التمرد بل يبدو أنه يزيد من التوترات الاثنية.

منذ الغزو الأمريكى، قتل عشرات الآلاف من العراقيين، معظمهم من المدنيين. وتضاعفت حدة سوء التغذية بين الأطفال، كما تضاعف معدل وفيات الأطفال لأكثر من ثلاث مرات. أكثر من مليون لاجئ هجروا البلد لتفادى تفجيرات السيارات، والاغتيالات والاختطاف والقوانين العرفية، وعوائق الطرق المميتة وطلقات المدافع والطائرات الأمريكية. طوابير التزود بالوقود من الممكن أن تستمر لأيام. وهناك نقص عام فى الغذاء والعلاج، وارتفعت أسعار الغذاء والحاجات الأخرى بشكل رهيب، وأكثر من نصف السكان عاطلون عن العمل. باختصار، فإن عدد السكان الذين يعانون ويموتون منذ الغزو الأمريكى أكثر من الذين عانوا وماتوا فى العامين السابقين للغزو. وما دامت هذه هى الحالة، فإن التمرد سوف يستمر.

على الرغم من الجهود الكبيرة الناجحة من جانب إدارة بوش لإخفاء حجم ونطاق التعذيب الأمريكى للمسجونين العراقيين، فإنه يبدو الآن أن ما تم كشفه من التعذيب والإيذاء البدنى فى أبو غريب كان فقط قمة جبل الجليد. من المفترض إن الغالبية الساحقة من المحتجزين ليسوا إرهابيين أو من المشاركين فى حرب العصابات، لكنهم ببساطة من الشباب العراقيين الذين قبض عليهم فى هجمات كبيرة لقوات الاحتلال الأمريكى، ونتيجة لذلك فقد تزايد الغضب الشعبى فى الولايات المتحدة بشكل كبير.

تعذيب المسجونين، واستخدام الأسلحة الثقيلة ضد المدن المزدحمة، وإطلاق النار على السيارات المملوءة بالمدنيين فى حواجز التفتيش، والأحداث المرتبطة ضد الأبرياء فعلت القليل لكسب عقول وقلوب للشعب العراقى. الدليل بدا أكثر وضوحا فى أن الولايات المتحدة تخلق متمردين بشكل أسرع وأكثر مما تستطيع قتلهم.

من المسلم به أن الروابط العائلية والقبلية بين العراقيين تتجاوز الاختلافات الطائفية، وأن المخاوف من نشوب حرب أهلية بين السنة العرب والشيعة العرب هو أمر يجرى تضخيمه كوسيلة لتبرير استمرار الاحتلال الأمريكى. ومع ذلك، فليس هناك شك فى أن الغزو والاحتلال الأمريكى قد جعل الانقسامات الاثنية تبدو أسوأ. فعلى سبيل المثال، فإن الولايات المتحدة صرفت من الخدمة أعداداً كبيرة من أفراد الطبقات المهنية والإدارية المدنيين الذين عملوا فى الدولة العراقية القديمة وأعادت تأسيس حكومة مؤقتة ارتكزت على اصطفافات دينية واثنية، حيث التحيزات الطائفية والاثنية والقبلية، وأيضا محاباة الأقارب، قد أعاقت جهود إعادة بناء وزارات الحكومة. بالإضافة إلى أن القوات الأمريكية استخدمت المقاتلين الأكراد فى معاركها ضد المتمردين العرب، مزودة بذلك التوترات بين الأكراد والعرب.

تكاليف الحرب فى الداخل

بالإضافة إلى أكثر من ١٥٠٠ قتيل أمريكى هناك عدد قياسى من الجنود الذين جاءوا إلى الولايات المتحدة معاقين، ومصابين بالعمى وبإصابات أخرى خطيرة، وبصدمات عصبية منتشرة من قتال فى هذه الحروب التى تأخذ ضريبتها من جنودنا أيضا.

وتوضح استطلاعات الرأى الآن أن ٥٩٪ من الأمريكيين يعتقدون إن القوات الأمريكية يجب أن تنسحب من العراق خلال عام.

بالرغم من هذا، فإن مجلس النواب الأمريكى صوت فى منتصف مارس بأغلبية ساحقة (٣٨٨ ضد ٤٣) لصالح دعم إضافى قدره ٨١ بليون دولار، أغلبه دعم إضافى للحرب فى العراق. وجاء هذا بعد أن تكشف أن المديرين الأمريكيين لم يستطيعوا تقديم كشف حساب عن ٩ بلايين دولار تم إنفاقها فى العراق. وقد أعلن مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية أن ٢٧٪ فقط من ميزانية الإعمار ذهبت لمساعدة العراقيين، وأن الباقى ذهب إلى الحماية والتبديد والاحتيال والأرباح.

انتخابات ٣٠ يناير

بالرغم من المشاكل العديدة والقصور الذى شاب الانتخابات العراقية فى ٣٠ يناير الماضى، فإنها كانت تجربة لافتة للنظر لرغبة الشعب العراقى فى تقرير مصيره وإقامة حكومة مسئولة. فقد خرج اثنان من المكونات الدينية والاثنية الثلاثة الرئيسية للمجتمع العراقى للتأكيد على حقهما فى تقرير المصير بعد عقود من الحكم الديكتاتورى وما تلاه من احتلال أمريكى.

الانتخابات العراقية شهدها بعض المراقبين الدوليين، وشابتها ممارسات شاذة واسعة الانتشار، وتمت مقاطعتها فى عدد من المدن الرئيسية، وجرت تحت حكم قوة احتلال أجنبية هى التى فرضت القوانين الانتخابية واختارت مفوضية الانتخابات التى أشرفت عليها. كما قال الرئيس بوش مؤخرا بما له صلة بلبنان «لا يمكن أن تكون هناك انتخابات حرة ونزيهة فى ظل وجود قوات احتلال أجنبى».

ومع ذلك، وبالرغم من عدم وجود إجماع دولى تقريبا على معيار محدد لشرعية الانتخابات، فإنها كانت بالتأكيد أفضل من عدم الوجود التام للانتخابات الديمقراطية فى عهد صدام حسين، وإنها فرصة للمشاركة فى العملية التى كانت موضع ترحيب معظم العراقيين.

وهكذا، يمكن النظر إلى الانتخابات العراقية بأنها خطوة مهمة إلى الأمام.

ولكن، بالرغم من ذلك، هل كان هذا الغزو المشئوم أساسا عملاً شرعياً؟

فى الواقع، حقيقة إن العراق أجرى انتخابات مباشرة لجمعيته الوطنية - التى ستتحمل مسئولية كتابة الدستور الجديد للبلد. قد جاءت بالرغم من، وعلى عكس رغبة الرئيس بوش.

فيجب علينا أن نتذكر أن إدارة بوش خلال السنة الأولى من الاحتلال الأمريكى للعراق رفضت بشكل قوى عقد الانتخابات المباشرة بشكل مبدئى. ودعمت الولايات المتحدة تنصيب أحمد الجلبى أو بعض العملاء العراقيين المنفيين كحكام للعراق. عندما أصبح واضحا أن ذلك سيكون غير مقبول، فإن المسئولين الأمريكيين حاولوا الحفاظ على ممثل الرئيس فى العراق، بول بريمر بسلطات غير محدودة. عندما أصبح من الواضح أن العراقيين والمجتمع الدولى لن يحتملوا هذا الاختيار أيضا، فإن إدارة بوش دفعت فى اتجاه نظام المؤتمرات الوطنية (نظام الكوكس الأمريكى)[*] حيث يقوم المعينون من قبل الأمريكان المعينين باختيار الحكومة الجديدة وكتابة الدستور. عندما تمت مواجهة ذلك فى يناير ٢٠٠٤ بواسطة مئات الآلاف

بترتيب مع:
Foreign Policy in Focus

ترجمة: جمال عمر

لا العمل العسكرى الأمريكى ولا الانتخابات العراقية التى أجريت فى ٣٠ يناير قد حققت أى شىء لتهدئة التمرد بل يبدو أنه يزيد من التوترات الاثنية

من المحتجين فى الشوارع وطالبوا بإجراء انتخاب شعبى،عند ذلك الحد وافق الرئيس بوش وأعطى أوامره مكرها بالسماح بانتخابات مباشرة.

وبدلا من إقامة الانتخابات فى مايو ٢٠٠٤ كما طالب السيستانى والقادة العراقيون الآخرون، فإن المسئولين الأمريكيين أجلوا الانتخابات حتى يناير ٢٠٠٥. ونتيجة لهذا التأخير، فإن الوضع الأمنى استمر فى التدهور مع الوقت حتى جاءت الانتخابات.

إن الأقلية السنية العربية الكبيرة والهامة كانت إما غير قادرة أو معارضة للمشاركة فى الانتخابات. وفى معظم الأجزاء التى تقع تحت هيمنة السنة، كانت هناك أخطار مادية فى الذهاب إلى الانتخابات من خلال تهديدات المتمردين. بالإضافة إلى أن معظم الأحزاب السنية كانت غاضبة ونادت بمقاطعة الانتخابات بسبب الأعداد الضخمة من المدنيين الذين قتلوا فى الفترة الأخيرة فى الهجمات التى شنتها قوات الاحتلال على المتمردين.

الأحزاب المعارضة للوجود العسكرى الأمريكى هى التى حققت الأغلبية الساحقة فى انتخابات يناير. وقد أشارت استطلاعات الرأى إلى أن هناك أغلبية واضحة بين العراقيين تدعو لخروج القوات الأمريكية نتيجة القوة الدافعة التى وفرتها الانتخابات.

قائمة المرشحين التابعين لواشنطن بقيادة رئيس الوزراء المؤقت (السابق) إياد علاوى جاءت فى المرتبة الثالثة الهزيلة، على الرغم من المزايا الكثيرة التى حصلت عليها فى التمويل والتنظيم.

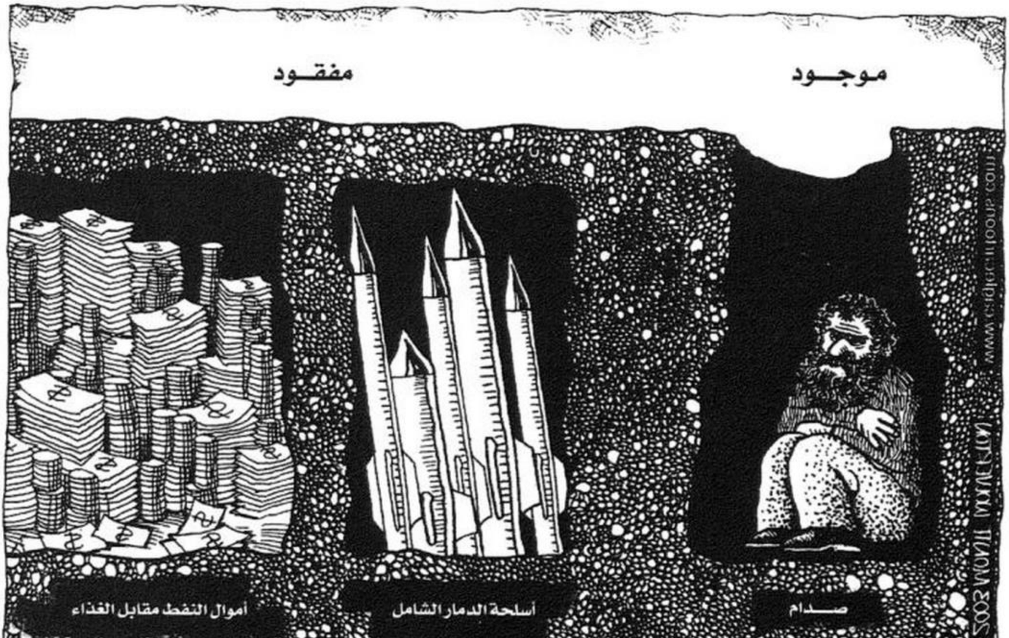
الجزء المركزى فى المشهد السياسى هو التحالف العراقى الموحد الذى فاز بأكثر من نصف مقاعد الجمعية الوطنية الجديدة، والذى نادى بجدول زمنى لانسحاب القوات الأجنبية من العراق.

السنة والشيعة متفقون فى رغبتهم بخروج القوات الأمريكية،والاختلافات بينهم تكتيكية. فمعظم السنة يعتقدون أن أى انتخابات فى ظل احتلال عسكرى أجنبى غير شرعية وأن انسحاب القوات الأمريكية يجب أن يتم من خلال المقاومة العسكرية. فى المقابل،معظم الشيعة مصممون على أن السبيل الأفضل لخروج الأمريكان هو من خلال الانتخابات، التى ستشكل حكومة عراقية شرعية تستطيع عندئذ التفاوض حول انسحاب مرحلى.

حكومة جديدة بالثقة

ما إن تتشكل الحكومة الجديدة،فسيكون هناك ضغط كبير من العراقيين عليها لخروج القوات الأمريكية من العراق، ولكى تثبت الحكومة للأعداد الكبيرة من العراقيين الذين أيدوا المتمردين إنها ليست دمية للمحتل الأجنبى. وفى نفس الوقت، ونتيجة للتمرد المتزايد بسبب تأجيل الولايات

العــــــراق إلى أين؟!





المتحدة للانتخابات، فإنه ربما يكون من الصعب عليها بقاء الانتفاضة المسلحة المستمرة فى مناطق السنة. وتبدو النتيجة، فى أن الحكومة ستكون مضطرة للسماح بالقوات الأمريكية بالبقاء.

الحكومة الجديدة ليست مواجهة فقط بالمتمردين - الذين يقودهم أساسا تحالف من بعض مؤيدى النظام القديم، والقوميين العرب العلمانيين، والسنة الإسلاميين - ولكنها ستكون مواجهة أيضا بموجة من الجرائم الشنيعة، ونقص الكهرباء والوقود، وتصاعد التوترات الاثنية، والتدمير الواسع للبنية الأساسية المدنية بسبب القنابل الأمريكية. قد يكون ما نشرته نيويورك تايمز فى ١٧ مارس هو أفضل وصف للتحديات التى تواجه العراقيين،فقد وصفت كيف أن عددا كبيرا من العراقيين كانوا غير قادرين على مشاهدة جلسة الافتتاح التاريخية للجمعية الوطنية الجديدة لأنه لا توجد كهرباء أو أن تليفزيوناتهم قد سرقت.

فى الواقع،هناك أسئلة جادة باقية عما إذا كانت الولايات المتحدة ستسمح للشعب العراقى أن يمارس بشكل كامل حقه فى تقرير المصير.

البرنامج المقدم من التحالف العراقى الموحد يطالب الدولة بأن تكفل وظيفة لكل إنسان قادر على العمل، ودعم البناء الداخلى، وإلغاء الديون والتعويضات، واستخدام الثروة النفطية للبلد فى تحقيق التنمية الاقتصادية. هذا هو التحدى المباشر للسياسات الاقتصادية النيوليبرالية المفروضة بواسطة هيئات الاحتلال الأمريكية، مثل القرار الذى يقضى بخصخصة كثير من الأصول الحكومية للبلد، والسماح للاستثمار الأجنبى غير المقيد وبتحويل الأرباح. ومع ذلك، فإن معظم هذه السياسات كانت قد فرضت فى ظل إدارة بول بريمر، والتى يتعذر تقريبا على الحكومة الجديدة أن تنقلب عليها.

بالإضافة إلى ذلك، فإن مواطنى الولايات المتحدة مستمرون فى الاستمتاع بالحقوق المتميزة الخارجة عن نطاق التشريع الوطنى العراقى،فلن يمكن محاكمتهم على أى جريمة فى العراق، ولاشك انه أمر خطير، إن القوات الأمريكية الذى يبلغ تعدادها حوالى ١٥٠ ألف جندى تستطيع التحرك ومهاجمة أى مكان فى البلد بدون موافقة الحكومة،كما أن الأمريكان يسيطرون على مواقع مهيمنة عمليا فى كل وزارة عراقية ولهم تحكم كبير على ميزانياتها.

الموظفون الأمريكيون باقون حتى ٢٠٠٩ يتحملون مهام لجان المراقبة التى تشرف على السياسة المالية، والإعلام والمجالات الهامة الأخرى. وأيضا،كما يهيمنون أيضا على النظام القضائى،الذى يمتلك السلطة للانقلاب على أى قانون يمرر بواسطة الحكومة الجديدة المنتخبة.

هناك بعض المسائل القليلة التى تتعلق بمعظم الهيئات السياسية القوية فى العراق - بمعايير الموارد والتنظيم والقوة العسكرية - هى أن الولايات المتحدة من المرجح أن تبقيها هكذا تحت هيمنتها فى المدى غير محدد.

إن القادة العراقيين الجدد الذين انتخبوا فى عملية ديمقراطية وبدعم قطاعات كبيرة من الشعب العراقى، هم بعكس اتهامات بعض المعارضين، ليسوا دمى للولايات المتحدة. ومع ذلك، فإنه إذا لم تكن إدارة بوش مستعدة للسماح للحكومة المنتخبة ديمقراطيا بممارسة سيادتها الحقيقية وبإثبات شرعيتها، فإن هذا لن يعطى العراق المدمر أى فرصة للسلام والاستقرار.

التعامل مع المتمردين:

منذ أن حلت الولايات المتحدة الجيش العراقى وقوات الأمن بعد الغزو، فإن الساحة امتلأت بمقدار لا حصر له من الميليشيات. قدرتها الأمم المتحدة بما يقرب من ٤٣ جماعة متمردة مختلفة، تتراوح بين الموالين للنظام السابق، والمتطرفين الإسلاميين، والقوميين المستقلين، والإرهابيين الأجانب، وآخرين. المعدل العالى للجرحى المدنيين - المتعذر تجنبه فى الصراع المشتعل بالأسلحة الحديثة - كانت حصيلته انضمام عدد كبير من المتطوعين لصالح عصابات المتمردين، وليس مدهشا هذا فى مناطق القبائل السنية العربية الكبيرة،التى يبقى الثأر فيها هو التقليد الاجتماعى القوى. عدد المقاتلين المسلحين ومؤيديهم النشطاء ربما الآن يقتربون من ٢٠٠ ألف مقاتل.

الولايات المتحدة دمرت فى نوفمبر الماضى ما يقرب من ثلثى مدينة الفلوجة،فى وقت واحد منازل ٣٠٠ ألف إنسان، لم تكن فقط جريمة حرب فقط، وإنما كارثة استراتيجية، وسعت من انتشار عمليات المتمردين فى المدن المجاورة،حيث إنهم الآن يسيطرون على كل أو جزء من المدن والقرى. معظم الطرق الرئيسية من وإلى بغداد متعذر المرور فيها.

وبانسحاب أربعة من أعضاء تحالف الراغبين (القوات العسكرية من هولندا وبولندا وأوكرانيا وإيطاليا) فان الولايات المتحدة وبريطانيا وجدتا نفسيهما معزولتين بشكل واسع. قلة من القوات الأجنبية الرمزية فى التحالف لم تشترك فى أى قتال، قيدت أنشطتها فى البناء والمساعدات الطبية، والمساعدات الأخرى. معظم القوات الهامة خارج الجيوش الأمريكية والبريطانية هم من المرتزقة، التى تشمل آلافًا من الجنود الأمريكان والبريطانيين المحترفين، وأيضا من جنوب إفريقيا والصرب ومن نيبال.

تكتيك المتمردين هو تنفير أعداد متزايدة من العراقيين وإبعادهم عن الأمريكيين. لذلك فمن الصعب أن تهاجمهم القوات الأمريكية،المحتجزة فى محمياتهم الثقيلة وقواعدهم المحصنة، المتمردين زادوا هجماتهم على الأهداف المدنية غير المحصنة. فى نفس الوقت، فإن وزير الصحة العراقى قدر أن القوات الأمريكية قتلت تقريبا من المواطنين العراقيين ثلاثة أضعاف ما قتلهم المتمردون.

فى الوقت الحاضر، فإن أفراد الجيش العراقى الذى دربته الولايات المتحدة لديهم استعداد لترك الخدمة بأعداد كبيرة عندما تصدر إليه الأوامر بمحاربة العراقيين الآخرين. وفيما يتعلق بالشعب العراقى، فإن الجيش العراقى طور سمعة حسنة حتى مع كونه قاسيًا وباعثًا للسعادة أكثر من الأمريكان، مع المشكلة الإضافية لانتشار الفساد فى كل المستويات.

ما هو التالى فى العراق ؟

من المسلم به أن الهوية القومية والإسلامية قوية لدى معظم أبناء الشعب العراقى وأن الاستياء العام منتشر من الولايات المتحدة، ومن الصعب أن نتخيل أن حكومة تمثيلية حقيقية سوف تؤيد وتدعم الأهداف العسكرية والاقتصادية الأمريكية فى الشرق الأوسط. فى حين لا تعترف بها علانية، لذا يصبح من الواضح بشكل كبير أن العراق إما ستكون لديه حكومة ديمقراطية أو حكومة عميلة لأمريكا، إنه لا يستطيع أن يمتلك الاثنتين.

على الرغم من أنه لم يسع إلى قمة الحكم، فمن المتوقع أن يكون رجل الدين الشيعى السيد عبد العزيز الحكيم رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية هو الشخصية البارزة فى الفترة المقبلة، وقد تعاون بشكل وثيق مع الزعماء الإسلاميين فى إيران خلال عشرين عاما فى منفاه فى إيران. وتجاهلته قوات الاحتلال الأمريكى عندما اختارت القادة المؤقتين للعراق بعد الغزو واحتلال البلد فى مارس ٢٠٠٣. بينما ليس من المرجح أن يحاول إقامة حكم دينى مباشر،فهناك مسألة صغيرة هى أن الحكيم وتابعيه يتصورون أن الدولة يجب أن ترتكز على خط التفسير المتشدد للقانون الإسلامى.

شركاؤهم فى الائتلاف الحاكم هم الأكراد، وبينما هم تقليديا حلفاء لأمريكا فإنهم ليسوا إسلاميين متشددين كتحالف الشيعة، ويقودهم جلال طالبانى، ومسعود برزانى.

وبالرغم من ادعاءات إدارة بوش أن الديمقراطية العراقية ستكون صديقة للمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط

عدد السكان الذين يعانون ويموتون منذ الغزو الأمريكى أكثر من الذين عانوا وماتوا فى العامين السابقين للغزو. وما دامت هذه هى الحالة، فإن التمرد سوف يستمر



وستكون جيدة لإسرائيل. هناك أسباب جيدة للتفكير فى الاتجاه المعاكس. على سبيل المثال، المجلس الأعلى للثورة الإسلامية، الكتلة الأكبر فى التحالف العراقى الموحد، علاقتها وثيقة جدا بحزب الله اللبنانى ومسيراتهم تشمل أناشيد بالموت لإسرائيل.

فى الحقيقة، إدارة بوش حاليا تضع حياة الأمريكيين على الحافة للدفاع عن حكومة مضادة للأمريكان وللإسرائيليين بشكل أساسى.

فى غضون ذلك، دعوات العراقيين بانسحاب القوات الأمريكية تتزايد.وفقا لمجلة النيوزويك فى ٣١ يناير ٢٠٠٥، فإن استطلاعات الرأى أشارت إلى أن الغالبية من الشعب العراقى تريد رحيل القوات الأمريكية.

بالرغم من ذلك، أعلن الرئيس بوش فى خطاب حالة الاتحاد أن القوات الأمريكية ستبقى فى العراق حتى يصبح «البلد الذى يتمثل فيه كل الشعب العراقى بشكل ديمقراطى، فى سلام مع جيرانه، وقادر على الدفاع عن نفسه» الأمر الذى يعتقد حتى المراقبين المتفائلين بأنه سيأخذ سنوات. والنتيجة،أن الولايات المتحدة ربما تحاول البقاء فى العراق لوقت غير محدد بالحصول على حق امتياز بالبقاء من الحكومة العراقية الجديدة. من المسلم به أن القرار الأمريكى بتأخير الانتخابات قد خلق وضعا جعل الحكومة الجديدة تعتمد على بقاء الولايات المتحدة، وهذا يترك لإدارة بوش قدراً من النفوذ.

هناك بعض المؤشرات التى توضح أن الصفقة ربما تكون فى الوضع العملى حيث تسمح واشنطن للحكومة العراقية بفرض التفسير المحافظ للقانون الإسلامى، فإن الحكومة ستوافق على بعض السياسات الاقتصادية النيوليبرالية المفضلة لواشنطن.

فى نفس الوقت، فإنه من المشكوك فيه أن ملايين الشيعة الذين انتخبوا الحكومة لسياستها الاقتصادية ذات النزعة اليسارية ومعارضتها لوضع الاحتلال ستسمح لمثل هذه الترتيبات لتحدث فى الواقع العملى. ومن المسلم به مصاعب القوات الأمريكية هى مع التمرد بين الأقلية السنية، فإن تمرير الصفقة مع نشوب تمرد كبير بين الأغلبية الشيعية سيكون مستحيلاً تماماً. إن الشعب العراقى أيضا يمتلك نفوذا وقوة كبيرة.

كنتيجة، هناك عدة أسباب للاعتقاد بأن إدارة بوش بشكل واسع أقرت بعجزها عن تحقيق الخطط الكبيرة التى وضعها المحافظون الجدد أساسا لعراق ما بعد صدام وأنها تريد تخفيض خسارتها وأن تخرج فى أقرب وقت ممكن. إذا كان هذا، فإنه سيعنى أن السبب الأساسى هو أن الإدارة تصر على أن القوات الأمريكية تبقى لبعض الوقت حتى لا يكون خروجها يعنى انتصارا للتمرد الذى سيكون له أسوأ الآثار على مصالح الولايات المتحدة فى المنطقة وأن الآثار السياسية لهذه الهزيمة ستكون شنيعة.

وفى الجهة المقابلة، فإنه من المظاهر الأكثر طموحا فى الأجندة الاقتصادية تظهر فى التالى: على سبيل المثال،كشفت هيئة الإذاعة البريطانية أن الولايات المتحدة قد خططت لبيع كميات كبيرة من النفط العراقى للشركات الأمريكية. ومع ذلك، فإن شركات النفط الأمريكية - قلقة من نموذج الفساد الروسى فى مثل هذه الخطط من الخصخصة، وتخشى التراجع العراقى الذى سوف يزيد الحروب بين الشركات النفطية - وبدلا من ذلك، فإن الشركات ستقترح بأفضلية الشركات المملوكة للدولة التى سيتم التعامل معها بنجاح فى ظل معايير صديقة.

خيـــارات أمـــريكـــا

من المسلم به أن الاختيار سيكون بين قبول الوضع الراهن والدعوة للانسحاب الأمريكى الفورى، هذان الاختياران يجب ألا يكونا هما الاختياران الوحيدان مع ذلك.

المشكلة الكبرى فى حالة الانسحاب الفورى هى أن المتمردين المسلحين بين الأقلية السنية أقوياء بشكل كاف والجيش العراقى الجديد ضعيف بشكل كاف. وأن الحكومة العراقية الجديدة ستجد نفسها فى خطر بدون القوات الأمريكية. فقط حوالى ٥٠٠٠ جندى عراقى مدرب ظهروا من الـ ١٢٠ ألف رجل مسلح حسب مخطط إدارة بوش. فقط حوالى ثلث الـ ١٣٥ ألف جندى شرطة مستعدين لأداء الواجب.

بينما الأيديولوجيا السياسية للتمرد المسلح مختلفة،بعض من عناصرها القوية - التى من المرجح أن تهيمن وتستولى على السلطة - فاشيون تماما. فى حال أن سيطر المتشددون من السنة أو العناصر المؤيدة لصدام، فمن المرجح أن يتم حشد وتعبئة الميليشيات الشيعية ومن ثم سيكون هناك حرب أهلية بشعة، تكتمل بمذابح وعمليات تطهير عرقى على مستوى كبير. فى هذه الفوضى،فإن الأكراد يستطيعون الانفصال عن الدولة العراقية الفاشلة بإعلان الاستقلال، الأمر الذى قد يستدعى التدخل التركى وعودة الحرب التركية الكردية.

كان يتعين على الولايات المتحدة أن تجرى الانتخابات المباشرة مبكرا،عندما كان التمرد مازال صغيرا جدا وضعيفا، وكانت الحكومة العراقية الجديدة ستكون على الأرجح اكثر اتساعا وتنوعا وتستطيع أن تنتصر: وكان من الممكن للقوات الأمريكية أن تعود كلها إلى بلدها الآن. لسوء الحظ،الجهود المتهورة لإدارة بوش فى محاولتها للتحكم فى الاتجاه السياسى والاقتصادى للعراق بواسطة تأخير حق تقرير المصير القومى، أغلقت نافذة الفرص.

هل هناك أى بدائل غير الحفاظ على الفاجعة الراهنة للحملة الأمريكية العسكرية المضادة للتمرد والدفاع عن الانسحاب الأمريكى المتهور من العراق ؟

بينما ليس هناك أبسط من شعار الانسحاب الآن، فربما يكون الاختيار الأفضل لحركات مناهضة الحرب أن تدافع عن الخطوات التالية:

- الإنهاء الفورى لكل العمليات العسكرية الأمريكية والانسحاب من مراكز تواجد السكان.
- إلغاء قوانين بريمر التى فرضت فى ظل الاحتلال ومنها المتعلقة بخصخصة الأصول العامة العراقية.
- يجب إرسال كل أموال إعادة الإعمار من خلال الأمم المتحدة وان يتم مراقبتها بشكل جيد.
- يجب أن يتوقف بناء التسهيلات العسكرية الأمريكية وأن يتم إلغاء التخطيط لبناء لقواعد عسكرية دائمة.
- تفعيل برامج تدريب القوات العراقية المسلحة بشكل سريع،مع الانتباه الخاص باحترام حقوق الإنسان المعترف بها دوليا.
- حزمة المساعدة الأمريكية الكريمة،بدون شروط مفروضة،يجب أن تقدم للعراق لإعادة بناء ما هدمته الولايات المتحدة الأمريكية.

لا مشكلة فيما ستصبح عليه البدائل، إنه من الضرورى أن تختبر وأن يعاد تدقيق السياسة الأمريكية فى العراق. المسئولون الأمريكيون المنتخبون الذين استمروا فى دعم وتأييد السياسة الحالية يجب محاسبتهم. يجب أن يكون واضحا فى هذه النقطة أن إدارة بوش ومؤيديها فى الكونجرس صنعوا قرارا كارثيا بعد آخر ولم يستطيعوا أن يكونوا موضع ثقة فى عمل أى شىء آخر أفضل فى المستقبل. كنتيجة لذلك، ومع أن الرسالة لم تكن واضحة بما فيه الكفاية وكانت صغيرة خلال السنتين الماضيتين عندما كنا نستطيع ببساطة أن نقول «لا تغزوا العراق» فإننا فى أمس الحاجة للأصوات المعارضة والعاقلة أكثر من أى وقت مضى. ■

لم تكن إدارة بوش مستعدة
للسماح للحكومة المنتخبة ديمقراطيا
بممارسة سيادتها الحقيقية وبإثبات شرعيتها،
فإن هذا سوف لن يعطى العراق المدمر
أى فرصة للسلام والاستقرار

هـــــامـــــش:

(*) نظام الكوكس الأمريكى يقوم على الانتخاب غير المباشر عبر مراحل عدة. والناخب لا يختار المرشح بشكل مباشر، وإنما يختار مندوبين يقومون فيما بعد باختيار المرشح. ومن هنا فإن المشاركين أى الناخبين فى كوكس العراق،كان سيتم اختيارهم من جانب لجنة، واللجنة يعينها مجلس الحكم العراقى، الذى هو أصلا معين من قبل سلطة الاحتلال.

بوتين.. القيصر

روبـــــــرت كـــوتـريـــل

> **يخاف أبناء أوروبا الوسطى من روسيا لأن لها تاريخاً طويلاً من دعم الحكومات السيئة باعتبارها حكومات حليفة وعميلة، بينما تقضى على الحكومات الصالحة**

[١]

أدر إصبعك حول حدود روسيا وستبدأ فى إدراك ما لابد أن يبدو عليه العالم كمكان يبعث على القلق حين يشاهد من الكرملين. فأوكرانيا، المفترض أنها أقرب جارات روسيا اللصيقات وأحبهن إليها، قد وجهت ضربة إلى أنف أختها الأكبر بانتخابها رئيساً يدعمه الغرب هو فيكتور يوشتشنكو. ويحكم ثلاثاً من جارات روسيا، أو جاراتها القريبات، الأخريات، وهى روسيا البيضاء وتركمانستان وكوريا الشمالية، حكام دكتاتوريون فهمهم للواقع موضع شك. ويسيطر حكام مستبدون مزعزعون على بقية آسيا الوسطى. أما جورجيا ومولدوفا فيشل حركتهما نظامان انفصاليان غير شرعيين يحظيان بالرعاية الروسية. وتتأرجح أرمينيا وأذربيجان على حافة الحرب المتجددة. بينما الحوار مع اليابان رهينة عقود من الجدل حول أربع جزر لا قيمة لها متنازع عليها. وتتعرض دول البلطيق لحملة كراهية تشنها الحكومة الروسية ضدها. وتعيش العلاقات مع سائر الاتحاد الأوروبى أكثر حالاتها فتوراً منذ الحرب الباردة. ويعد بزوغ نجم الصين وخططها المتخيلة تجاه الشرق الأقصى الروسى القلق طويل المدى الذى يجعل جُنوب روسيا تتجافى عن المضاجع. وهذا كله يجعل روسيا تجد العزاء فى منغوليا.

يحتاج الأمر إلى كثير من الوقت والجهد كى تتراكم مجموعة من المشكلات على هذا القدر من التأثير. وربما لم يكن عام من الأعوام منذ ١٩٤٥ طيباً طيبةً واضحة بالنسبة للسياسة الخارجية الروسية، غير أن العام الماضى كان حتماً من بين أسوأ الأعوام منذ انهيار الاتحاد السوفيتى. فقد انتهى بانتخابات أوكرانيا التى جعلت الغضب والقلق يترددان فى أنحاء المؤسسة السياسية الروسية. وكان الغضب موجهاً فى المقام الأول إلى الولايات المتحدة التى وُجه إليها اللوم الذى له ما يبرره لتدبيرها هزيمة المرشح الذى تدعمه روسيا فيكتور يانوكوفتش، وإن كانت القوة الحقيقية وراء التغيير هى ما عم أوكرانيا من سخط واستياء عند المحاولات الأولى للتلاعب فى التصويت لمصلحة يانوكوفتش، مقروناً بما انعقد عليه دعم الجماهير للمتحدى المسموم يوشتشنكو. أما القلق فكان من نصيب النظام الروسى. ذلك أنه إذا كان بإمكان «القوة الشعبية» تغيير مسار السياسة فى أوكرانيا، ذلك البلد قريب الشبه بروسيا فى كثير من النواحى، فهل بإمكانها كذلك فعل الشىء نفسه فى روسيا؟ هذا غير محتمل، حتى من وجهة نظر الليبراليين الروس؛ فالجماهير فى روسيا أكثر سلبية والنظام أشد بأساً. ولكنها كانت رغم ذلك سابقة مروعة.

أكدت الأحداث فى أوكرانيا مخاوف روسيا بشأن التوسع الأخير لحلف الناتو والاتحاد الأوروبى فى أوروبا الوسطى. ويظن نظام بوتين أن الدول الشيوعية السابقة فى تلك المنطقة سوف تعمل ضده، مستفيدةً فى ذلك من التأثير الجديد داخل المؤسسات الأوروبية ومؤسسات حلف الأطلنطى لإخراج المزيد من الدول، وخاصة روسيا البيضاء وجورجيا ومولدوفا وأوكرانيا، من مجال النفوذ الروسى إلى مجال النفوذ الأوروبى. ويشير يانوس بوجايسكى فى كتابه الرائع الجديد الذى يستعرض فيه السياسة الخارجية الروسية فى المنطقة «الحرب الباردة» Cold War إلى أن العلاقات مع أوروبا الوسطى والشرقية أسوأ مما يمكن أن تكون عليه لأن الروس ليس لديهم إلا «معلومات تافهة عن جيرانهم الغربيين تعزز الأنماط العدائية المقولبة بشأن الأوروبيين الشرقيين الكارهين لروسيا». ولكننا إذا تعاملنا مع عبارة «الكارهين لروسيا» بمعناها الحرفى وهو «الخائفون من روسيا»، لوجدنا أن كراهية روسيا إحساس يشعر به الناس على نطاق واسع فى أوروبا ما بعد الشيوعية، وخاصة فى دول البلطيق، وهو يشكل سياستها بطبيعة الحال.

يخاف أبناء أوروبا الوسطى من روسيا لأن لها تاريخاً طويلاً من دعم الحكومات السيئة باعتبارها حكومات حليفة وعميلة، بينما تقضى على الحكومات الصالحة. وسوف يختار أبناء أوروبا الوسطى دائماً الحد من النفوذ الروسى، باعتبارهم جيران روسيا الأقربين والضحايا السابقين لسياستها الخارجية. وكان إدخال أوكرانيا الاتحاد الأوروبى هدفاً بعيد المدى من أهداف الحكومة البولندية. وحين اتجهت أزمة الانتخابات صوب الحل فى كييف، كان الرئيس البولندى ألكسندر كوانيفسكى والرئيس اللتوانى فالداس أدامكوس هما اللذان تدخلا فى الأمر باعتبارهما وسيطين، وليس البريطانيين أو الفرنسيين أو الألمان باعتبارهم أصحاب السلطة العليا فى الدبلوماسية الغربية.

بينما تشكو روسيا من التدخلات الخارجية فى أوكرانيا وأماكن أخرى فيما تسميه الآن «الفراغ ما بعد السوفيتى»، فقد أثبتت إثباتاً تاماً قدرتها على إفساد الأمور هناك بنفسها. ذلك أنها سعت إلى استعداء رئيس جورجيا الجديد ميخائيل ساكاشفيلى بتشجيعها إقليمين انفصاليين فى جورجيا يخضعان لسيطرة روسيا، هما أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية، على تكثيف كفاحهما ضد حكومة ساكاشفيلى. كما أنها أثارت نفور حكومة مولدوفا الشيوعية التى كانت موالية لروسيا حتى وقت قريب، ولكنها لجأت إلى الغرب بعد أن ضاقت ذرعاً بتأييد روسيا المستمر للانفصاليين فى الجزء الشرقى من مولدوفا. كما أن المخططات الروسية لإقامة اتحاد سياسى مع روسيا البيضاء آخذة فى الانحلال. وقد تأجلت خطة تتخذ بمقتضاها روسيا البيضاء الروبل الروسى عملة قومية لها، وربما يجرى التخلى عنها.

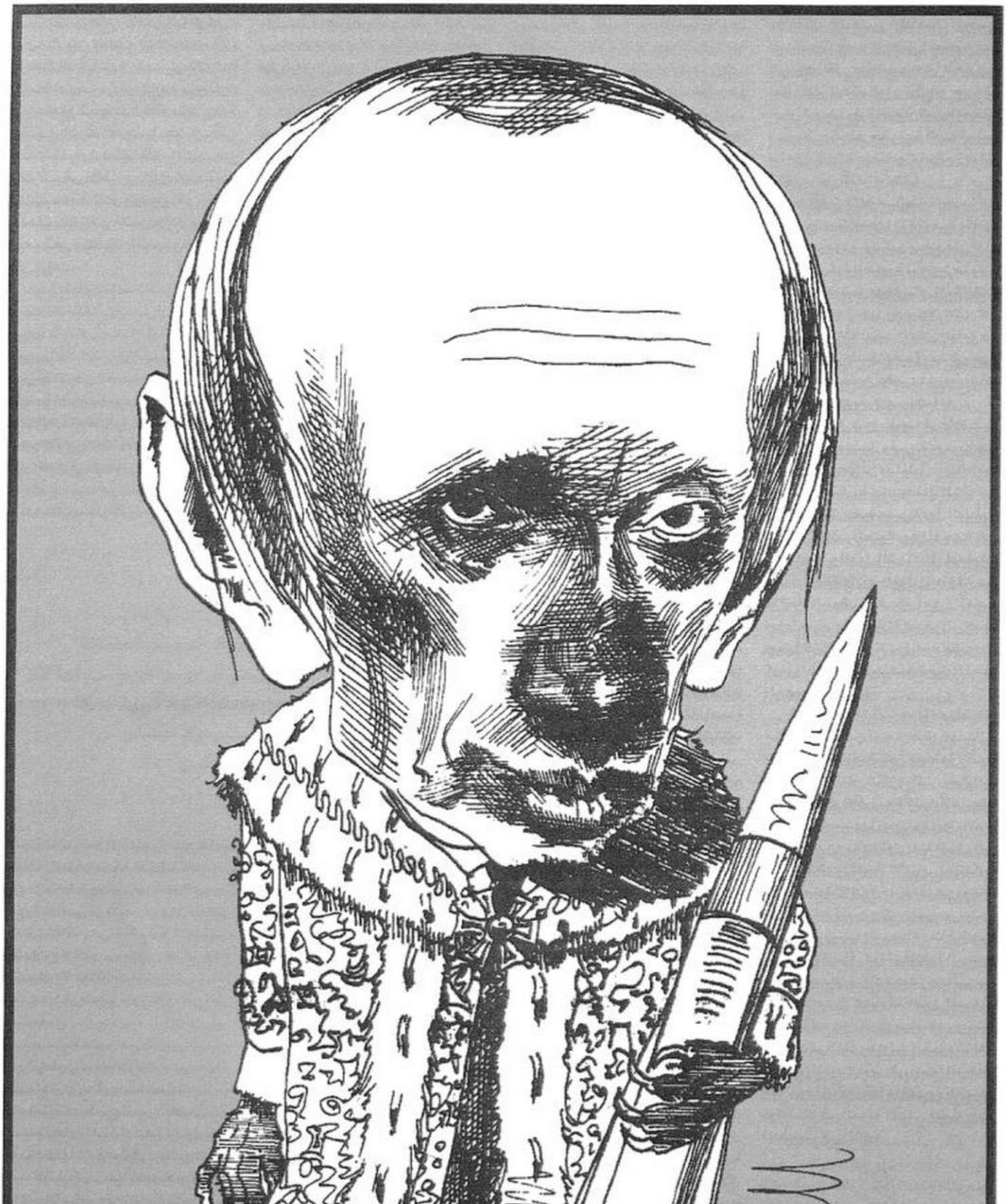
إذا كان الهدف الرئيسى للسياسة الخارجية الروسية، كما زعم مسئول روسى مؤخراً، هو على الدوام ضمان وجود «حزام من حسن الجوار يحيط بالحدود (الروسية) كافة»، فمما لا شك فيه إذن أن خطأً كبيراً ما قد وقع عند تطبيق تلك السياسة. ولا يمكن كذلك القول بأن السياسة الداخلية كانت تسير سيراً حسناً إلى حد كبير. فهناك اعتراف الآن بأن الهدف الاقتصادى الذى أعلنه الرئيس بوتين فى ولايته الأولى، وهو مضاعفة حجم الناتج القومى الإجمالى بحلول عام ٢٠١٠، لا يمكن بلوغه بحال من الأحوال. كما أن نزع ملكية شركة يوكوس للنفط، التى كان يسيطر عليها فيما مضى ميخائيل خودوركوفسكى «أحد أفراد احتكار القلة»، ولكن الدولة الروسية تعقبتها واستولت عليها بدعوى متأخرات الضرائب، قد ألقى بظلال كثيفة على البيئة التجارية. وأدت مسألة يوكوس إلى انخفاض الأسعار فى البورصة وشجع المزيد من رأس المال على الهرب، وأثار تكهنات بفقدان بوتين السيطرة على زمرة رجال الـ«كى جى بى» الذين أتى بهم ليشغلوا المناصب العليا فى الكرملين.

كانت لدى بوتين رغبة واضحة فى القضاء على خودوركوفسكى، ليثبت أن الدولة قادرة على إذلال حتى أغنى رجل فى روسيا. وبما أن خودوركوفسكى محبوس منذ أكتوبر ٢٠٠٣، وتجرى محاكمته بتهمتى الغش والتهرب الضريبى اللتين يمكن أن تصل عقوبتهما إلى السجن فترة تتراوح بين عشر سنوات وخمس عشرة سنة، فقد تحقق هذا الهدف بالكامل. إلا أن بوتين كان قد قال كذلك إنه يرغب فى رؤية إفلاس يوكوس أو انهيارها. وبذلك

1- Cold Peace: Russia's New Imperialism
(السلام البارد.. روسيا الإمبريالية الجديدة)
Janusz Bugajski
Center for Strategic and International Studies, 302 pp., $49.95

2 - Inside Putin's Russia: Can There be Reform Without Democracy?
(داخل روسيا بوتين)
Andrew Jack
Oxford University Press, 362 pp., $30.00

بترتيب مع:
The New York Review of Books
ترجمة: أحمد محمود



يصعب تفسير النتيجة على أنها أى شىء سوى هذا. ومن الواضح أن الاستيلاء على شركة نفط قيمتها ٤٠ مليار دولار كان احتمالاً أصعب من أن يقاومه مرءوسوه. ويثير نجاح عملية السرقة تساؤلاً مفاده أن أياً من الشركات الروسية الأخرى، التى ارتكبت جميعها خطايا أثناء التهرب من الضرائب فى الماضى، وجرى تخصيص الكثير منها، مثل يوكوس، من خلال صفقات «القروض مقابل الأسهم» سيئة السمعة فى منتصف التسعينيات، سوف يأتى دورها.

فيما يتعلق بالإصلاحات السياسية، لم يعد هناك من يدعى أن روسيا فى سبيلها لأن تكون ديمقراطية على النمط الأوروبى؛ ولا حتى وزراء بوتين. ويسمى أندرو جاك فى الصفحات الأخيرة من كتابه «داخل روسيا بوتين» Inside Putin's Russia ديمقراطية روسيا الجوفاء «صورة ممسوخة» من النظام السياسى. فكما كان عليه الحال فى العصور السوفيتية، نجد أن حزباً واحداً هو الذى بيده السلطة، إلا أنه الآن يمثل الديمقراطية. وأحد الفروق المهمة هو أن بوتين، على عكس أسلافه السوفييت، قد أقر الشعب بحق توليه السلطة. ويقول جاك إن النتيجة مع ذلك هى أن الأحزاب بلا أفكار، والمناقشات تُدار فى غياب أهم المشاركين، والإعلام بلا نقد... وليس هناك إطار دستورى، ولا ثقافة سياسية أكثر اتساعاً للمساعدة فى تعزيز تنوع الآراء من أجل المستقبل.

يسمى الكثير من الروس النظام «ديمقراطية موجهة». وكان إيجور جيدار أول رئيس وزراء لروسيا بعد الحقبة السوفيتية قد اقترح تسمية أفضل وهى «الديمقراطية المغلقة». وهو يقول إنها تصف نظاماً المعارضة فيه مشروعة من حيث المبدأ، وليس هناك قمع جماعى، والانتخابات تُجرى، ولكن «النتائج دائماً محتومة ومقررة سلفاً».



بـــوتين.. القيصـــر

عندما نتأمل هذه القائمة من تخفيض النفقات السياسية والإخفاق السياسى، يستحيل ألا نتساءل عما إذا كان بوتين لا يزال على ما يفترض الغرب عموماً أنه عليه من أمان وقوة أم لا. فإذا كان قد «فقد» أوكرانيا فعلاً، وهى قراءة جديرة بالتصديق بناءً على نتيجة الانتخابات الرئاسية الأخيرة هناك، أفلا يكون ذلك نقضاً للسياسة الروسية التى سيكون حتى على الرئيس أن يدفع ثمنها؟ وإذا كان بالإمكان تحدى بوتين بشأن يوكوس، فهل من الممكن تحديه فيما يتعلق بالأمور الأخرى؟ وإذا كانت روسيا لم تجن أية فوائد محددة من السياسات الموالية لأمريكا والتنازلات التى أعلنها بوتين فى العامين التاليين للحادى عشر من سبتمبر، وهو الأمر الذى يسهل الاقتناع به، فهل بإمكانه الخروج سالماً من تلك المغامرة كذلك؟ إن علينا الانتباه إلى كلمات أندريه إلاريونوف الذى خدم بوتين طويلاً، ولكنه كان مستشاراً اقتصادياً شديد الاستقلال تدنت مكانته فى ٣١ ديسمبر بعد نشره انتقادات لمسألة يوكوس، وبعد إدلائه بحديث صريح لمحطة الإذاعة الروسية «إخو موسكوفى» فى ٣٠ ديسمبر حذر فيه من تزايد القوى المعادية للديمقراطية داخل الكرملين. كما قال إن بعض الاتجاهات فى حياتنا السياسية والعامة لا يمكن أن تترك أى شخص فى حالة من اللامبالاة، ولا حتى الاقتصاديين. وترتبط هذه الاتجاهات بما يجرى حالياً من تدمير، وقد أقول، بتر، لمجموعة كاملة من المؤسسات المدنية المسئولة عن تقديم رد فعل الرأى العام.... وهذه هى أجهزة الإعلام الجماهيرية، والمؤسسات الديمقراطية المسئولة عن توجيه الرسائل، بما فى ذلك رسائل الاستياء، والأزمات، والكوارث إلى الجماهير والسلطات. وعواقب بتر هذه المؤسسات مفجعة بالنسبة للبلاد وللشعب بصفة عامة.... ولو لم تكن هناك أساليب قانونية تقليدية عادية لحل هذه الأزمات، فحينئذ لن يتبقى هناك شىء أقل من الثورة.

آخر مرة سمعت فيها ضجة كهذه تخرج من الكرملين كانت فى عام ١٩٩٦ حين واجه الليبراليون الذين يعملون مع الرئيس بوريس يلتسين فصيلاً متشدداً بقيادة ألكسندر كورجاكوف رئيس جهاز أمن الكرملين. وكان فريق كورجاكوف يرغب فى تأجيل مباشرة العمل فى انتخابات الرئاسة أو إلغائها، مما يقضى على الديمقراطية الروسية. وقد فصلهم يلتسين ورقّى الليبراليون برئاسة أناتولى تشوبايس. وأشك كثيراً جداً فى إمكانية إقدام بوتين على اختيار مماثل الآن. فالعسكريون فى حكومته أشد قوة، وهو واحد منهم. وأخشى أن تكون قد فاتت اللحظة التى يمكن فيها لإلاريونوف وغيره من الليبراليين الباقين فى الحكومة أن يأملوا فى أن يكون لهم تأثير كبير على السياسة. والرأى العام هو الملاذ الأخير والميئوس منه فى روسيا. وإليه فقط يحتكم المطلعون على بواطن الأمور حين تُعوزهم الحجة فى السر. وعلاوة على ذلك، يشَبِّه إلاريونوف نفسه بالشهداء. وفى اليوم التالى لمقابلته الإذاعية زار محاكمة خودوركوفسكى رئيس يوكوس السابق الصورية.

[٢]

يحلل بوجايسكى فى كتاب «السلام البارد» Cold Peace السياسة الروسية تجاه الكتلة السوفيتية السابقة وتجاه الدول الشيوعية السابقة فى أوروبا الوسطى والبلقان بتصميم لا يدع مجالاً للمصادفة أو الغموض. وما كان لظهوره أن يكون أفضل فى توقيته مما هو عليه بالفعل، حيث يأتى فى أعقاب تغيير النظام الحاكم فى أوكرانيا، ذلك البلد المهم لأى «مجال نفوذ» روسى؛ إن كان لهذا المجال وجود بحال من الأحوال. فأوكرانيا كما يقول بوجايسكى «أكثر البلاد أهمية من الناحية الإستراتيجية التى انبثقت عن الاتحاد السوفيتى (بالإضافة إلى روسيا)». ويتتبع الروس تاريخ بلادهم حتى أمراء كييف فى القرنين العاشر والحادى عشر. فبعد الغزو المغولى فيما بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر، فحسب، أعيد تشكيل الدولة لتصبح موسكو هى حاضرتها.

لا يزال اقتصادا روسيا وأوكرانيا متشابكين فى الوقت الراهن تشابكهما فى الحقبة الشيوعية. فنصف تجارة أوكرانيا الخارجية تتجه إلى روسيا، وربما كان لها ثلثا استثماراتها الصناعية. وتحمل خطوط الأنابيب العابرة لأوكرانيا النفط والغاز الروسيين إلى الأسواق الخارجية. والروسية هى اللغة الشائعة، خاصة فى شرقى أوكرانيا، والمذهب الأرثوذكسى المسيحى هو الديانة الأساسية فى أوكرانيا، كما هو الحال فى روسيا. ويقول بوجايسكى إن عدداً قليلاً من الساسة الروس كان على استعداد لقبول استقلال أوكرانيا الدائم.... ويُنظر إلى وضع أوكرانيا كدولة على أنه انحراف مؤقت.

وتؤكد النظرة الروسية الخاصة بأوكرانيا مقولة بوجايسكى إن روسيا تعانى من «عبء تاريخى ثقيل». وهو يقول إنها «فازت بإمبراطورية قبل أن تصبح دولة وأمة مترابطة»، وبذلك ظهرت باعتبارها دولة لا معنى طبيعى لحدودها. ويرى بوجايسكى أن لهذا علاقة كبيرة بتفسير «المطالبات الروسية المستمرة بهوية وأراضى العديد من الجيران، التى ميزت سياستها الخارجية منذ ذلك الوقت. كما يقول إنه حبذا لو أمكن لروسيا رؤية الدمار الذى ألحقته سياسات وجرائم حقبتها السوفيتية بالدول فى المنطقة، والتركيز على التكفير عن تلك الخطايا.

بدلاً من ذلك استمرت روسيا فى التلويح بمطامحها الإقليمية وكأنها أطراف موهومة. وكدليل سريع على آمال روسيا المبكرة الخاصة بأوروبا ما بعد الشيوعية، يقتبس بوجايسكى كلمة ألقاها فى عام ١٩٩٣ إيجور روديونوف الذى كان وقتها رئيساً لأكاديمية الأركان العامة فى موسكو ووزيراً للدفاع فيما بعد فى عهد بوريس يلتسين. وقد عدد روديونوف «المصالح الحيوية» لروسيا كما يلى:

حياد دول شرق أوروبا أو علاقاتها الودية مع روسيا، وحرية روسيا فى الوصول إلى موانئ البلطيق، واستبعاد القوات العسكرية للدولة الثالثة، من دول البلطيق وعدم عضوية دول البلطيق فى التكتلات العسكرية الموجهة إلى روسيا، ومنع الدول التى تشكل كومنولث الدول المستقلة (أى الدول المستقلة عن الاتحاد السوفيتى السابق) من أن تصبح جزءاً من منطقة عازلة تهدف إلى فصل روسيا عن الغرب أو الشرق؛ مع إبقاء دول كومنولث الدول المستقلة تحت النفوذ الحصرى لروسيا.

فى النهاية، أثبتت روسيا أنها أضعف من أن تدافع عن أى من هذه «المصالح الحيوية» المفترضة حين تحداها الغرب أو الدول المعنية بشكل مباشر. وأوكرانيا وحدها المثال الأقرب والأكثر إيلاماً. وقد انضمت ما يسميها روديونوف دول «شرق أوروبا»، ومن بينها دول البلطيق، إلى حلف الناتو والاتحاد الأوروبى. وتتفاوت دول كومنولث الدول المستقلة فى درجات خضوعها لروسيا، ولكن ليس من بينها (باستثناء روسيا البيضاء) ما تخضع حصرياً لروسيا. كما أن النفوذ الروسى فيها جميعاً يزداد ضعفاً. وبالنسبة لاستخدام دول كومنولث الدول المستقلة كمنطقة عازلة، غربية، فإن روسيا وحدها هى التى حاولت القيام بذلك لمقاومة النفوذ الغربى فى روسيا البيضاء ومولدوفا بتشجيعها دكتاتورية ألكسندر لوكاشنكا فى الدولة الأولى وتمرد عبر الدنيستر فى الثانية.

هناك شك فيما إذا كان بإمكان روسيا أن تأمل بجد فى استعادة أى من الأرض التى فقدتها خلال الخمسة عشر عاماً الماضية فى المستقبل القريب. وما يراه بوجايسكى هو أنها تحاول استعادتها رغم ذلك، وتخلق أثناء محاولاتها الكثير من التعقيدات التى تضر بالدول السوفيتية

السابقة؛ وذلك على سبيل المثال برفضها سحب القواعد العسكرية، وبقطعها إمدادات الطاقة، وبإثارتها الفضائح السياسية، وبتدخلها فى الانتخابات. وتضيف روسيا «مصالح حيوية» أخرى إلى قائمتها. فقد ادعت روسيا فى عهد بوتين حق التدخل عسكرياً فى دول كومنولث الدول المستقلة إذا ارتأت أن أبناء العرقية الروسية أو الناطقين بالروسية فى خطر هناك، كما ادعت حق حماية خطوط أنابيب الحقبة السوفيتية التى تحمل صادرات النفط والغاز، حتى حين تكون هذه الخطوط خارج الحدود الروسية.

رغم عدم وجود النفط والغاز فى قائمة روديونوف المختصرة، فقد يهيمنان على أى بحث فى الوقت الراهن لمصالح روسيا الحيوية ومواردها الإستراتيجية. وهما يَلُوحان بشكل كبير فيما يقوله بوجايسكى. وربما تتعامل شركة النفط الاحتكارية الروسية جازيروم فى ربع موارد العالم من الغاز وتوفر حوالى كل الغاز المستخدم فى دول كومنولث الدول المستقلة وفى أوروبا الوسطى. وتقدمت شركات الطاقة الروسية بعطاءات لمعامل تكرير وخطوط وقود وشركات توزيع النفط والغاز فى دول كومنولث الدول المستقلة والبلقان ووسط أوروبا، حين عُرضت تلك المرافق للخصخصة. وتمتلك جازيروم حالياً حصصاً فى الكثير من شركات الغاز الوطنية فى المنطقة. وتعد لوك أويل كبرى شركات النفط الروسية (بعد القضاء على يوكوس) واحدة من كبرى مصافى النفط فى جنوب شرقى أوروبا.

يمكن تفسير عمليات التملك هذه بسهولة على أسس تجارية. فإذا كان بإمكان شركات النفط الغربية الامتداد إلى روسيا، فلم لا تمتد شركات النفط والغاز الروسية إلى الغرب؟ ولكن بوجايسكى يرى أن «مثل هذه التفسيرات تتجاهل العلاقات الوثيقة بين الحكومة والأعمال التجارية الكبيرة «فى روسيا». وهو يقول إن الحقيقة هى أن الكرملين يشجع الشركات الروسية على امتلاك «الأصول الإستراتيجية... فى الدول التى تسعى روسيا لأن يكون لها فيها نفوذ سياسى». والنتيجة هى «تسييس الاقتصاد»، أو ببساطة أكثر، «الابتزاز السياسى»، حيث تستحوذ روسيا على أصول مهمة لأداء الاقتصادات المضيفة لوظيفتها.

حتى بداية مسألة يوكوس، كان من السهل القول بأن بوجايسكى ليس على علم بالاتجاهات التجارية الروسية؛ ذلك أن شركات الطاقة الروسية كانت آخذة فى أن تصبح أكثر غربيةً فى أساليب إدارتها وكان انشغالها بالتزاماتها تجاه البورصة أكبر من انشغالها بالتزاماتها تجاه الكرملين. إلا أن معاملة يوكوس وخودورفسكى غيرت هذا كله وجعلت الاستثمارات الروسية موضوعاً أشد حساسية بكثير فى أنحاء أوروبا الوسطى. ومن الواضح أن الكرملين عازم على السيطرة على صناعة الطاقة الروسية بشكل أوثق وبقدر أكبر من التوسع، وسوف يضع مصالحه السياسة قبل مصالحه التجارية. وإذا كان هناك من سبيل لاستيراد النفط والغاز الروسيين دون استيراد شركات النفط والغاز الروسية كذلك، فحينئذ سيكون معظم جيران روسيا ومعظم الدول الأوروبية الأخرى أسعد حالاً بكثير.

هناك أوقات تبدو فيها قائمة شكاوى بوجايسكى من السياسة الروسية قاسية إلى حد ما. ولكنها باستمرار موثقة توثيقاً جيداً، وهى تصحح الرأى الأكثر شيوعاً القائل بأن روسيا كانت على نحو ما ضحية لا حول لها ولا قوة فى الأحداث الدولية منذ عام ١٩٩١. وقد قال عالم السياسة البلغارى أوجنيان منتشيف لبوجايسكى:

حتى إذا لم تكن روسيا فى وضع يسمح لها بالتأثير الحاسم على عوامل القوة الأساسية الخاصة بالحياة الدولية، فلن يعنى هذا أن موسكو لا حول لها ولا قوة فيما يتعلق بممارسة الضغط على الشركاء الأصغر حجماً والأضعف قوة.

ومع ذلك فالتحليل المتواصل مثل تحليل بوجايسكى يثير تساؤلاً عما إذا كان هناك ما يمكن أن تقوم به روسيا لجعل نفسها شريكاً يحظى بقدر أكبر من الترحيب فى الشئون الدولية. ويسلم بوجايسكى بإمكانية ذلك من حيث المبدأ، ولكنه يشدد القيود. فهو يقول إذا كانت روسيا بها ديمقراطية ليبرالية مزدهرة، ومجتمع مدنى ينبض بالحياة، واقتصاد رأسمالى إنتاجى، وسياسة سلمية حقيقية فى الشيشان، فحينئذ (قد يكون من المحتمل أن) يحظى نفوذها بالترحيب فى أوروبا الشرقية، بغض النظر عن الخبرات التاريخية.

لكن روسيا تتحرك فى عكس اتجاه كل هذه الأمور وليس نحوها. ويرجع الفضل إلى بوجايسكى فى تتبع الآثار المترتبة على هذا الانسياق وصولاً إلى نتائجها المنطقية. وإذا كنا نظن أن روسيا مصدر تهديد باستمرار، فهل يجب علينا حينئذ أن نتمنى لها حظاً سعيداً على أى حال من الأحوال؟ وهل يكون المتفائلون مضلِّلين حين يقولون إن روسيا الأكثر ازدهاراً ستكون دولة أكثر رضًى وقناعةً، وبالتالى جارة أقل إثارة للقلق، حتى ولو لم تكن دولة أكثر ديمقراطية؟ يرى بوجايسكى أن هؤلاء قد يكونون مخطئين إلى حد كبير:

لا تعنى روسيا الأكثر ازدهاراً وجود حكومة أكثر تعاوناً. فإذا عززت روسيا اقتصادها بسرعة بدون أن تمر بتحول ديمقراطى عميق، فمن الممكن أن تكون أشد عدوانية وأكثر نزوعاً إلى التوسع. وقد يكون مفضلاً أن تكون هناك روسيا ضعيفة اقتصادية أو مرتبكة داخلياً، مادام لا يعجل هذا بانقسام عنيف أو زعزعة استقرار الدول المجاورة.

إلا أنه بالإضافة إلى إثارة غضب المتشددين الروس عند رؤيتهم هذه الفقرة، فهى سوف تجعلهم كذلك راضين بشكل يدعو للاستغراب. فهذا هو على وجه الدقة ما كانوا يعتقدون دوماً أن الغرب يقوله ويظنه بشأنهم فى السر. وهاهم قادرون فى النهاية على الإشارة إلى شخص ما له أهميته يقول ذلك فى العلن.

[٣]

غالباً ما ينقسم خبراء الشئون الروسية الغربيون إلى مجموعتين. أولاً: هناك هؤلاء الذين يرون روسيا من الداخل دون سابق تفكير، وعادة ما يعود اهتمامهم إلى دراستهم أو إقامتهم هناك. ويميل هؤلاء إلى النظر إلى الشعب الروسى على أنه ضحية للحكومات السيئة المتعاقبة، وإلى القول بإمكان تطور روسيا على النمط الغربى إذا توفر لها الوقت والظروف المواتية. ثانياً: هناك هؤلاء الذين يرون روسيا من الخارج، وغالباً ما تكون لهم صلات قرابة بأوروبا الوسطى والشرقية. ويميل هؤلاء إلى النظر إلى روسيا على أنها تشكل تهديداً بصورة جوهرية ودائمة بموجب ميلها إلى الإمبريالية والنزعة الاستبدادية المنتشرة بين الحكام والمحكومين على السواء.

آمل ألا يجد يانوس بوجايسكى بأساً فى ترشيحى له حاملاً لراية هذه المدرسة الفكرية الثانية، وآمل ألا يكون لدى أندرو جاك مانع فى وضعى له فى موضع أقرب إلى المدرسة الأولى. فكتاب جاك «داخل روسيا بوتين: هل يمكن أن يكون هناك إصلاح بدون ديمقراطية؟» Inside Putin's Russia: Can There Be Reform Without Democracy? كما يشير عنوانه، محاولة لرؤية روسيا من الداخل ولفهمها بالشروط التى ترتضيها. وجاك ليس متعاطفاً مع النظام الحاكم، ولكنه مفتون بالبلد. وباعتباره رئيساً لمكتب صحيفة «فاينانشال تايمز» فى موسكو حتى أواخر العام الماضى (وكنت سلفه فى هذه الوظيفة) فقد استطاع الاعتماد على قدرة جيدة نسبياً للوصول إلى الطبقات الحاكمة فى موسكو، حيث أضاف إلى ذلك قدراً كبيراً جداً من الرحلات إلى أقاليم روسيا المختلفة، وحب استطلاع لا يشبع، واهتمام فطرى مرهف بالتفاصيل. ولكننا لا نحصل فى النهاية على إجابة عن السؤال الذى طرحه جاك فى عنوانه، وإن تعلمنا أثناء ذلك الكثير جداً من الأشياء عن روسيا بوتين.

كما يشير جاك، فغالباً ما تكون الأمور فى روسيا لا هى بالسيئة ولا هى بالحسنة كما تبدو عند أول وهلة. فالأرقام الرسمية المنخفضة الخاصة بالأجور والمدخرات تسخر منها القدرة الشرائية الواضحة فى المدن الروسية، وليس موسكو وحدها، حيث يفسح التبذير الذى يتسم بالبهرجة الطريق شيئاً فشيئاً أمام النزعة الاستهلاكية المعقدة. وكما يوضح جاك، فإن الدخول المعلنة غالباً ما تكون أقل من الواقع بغية التهرب من الضرائب. وكثير من الروس لديهم وظائف ثانية أو امتيازات سخية وتكاليف معيشة أساسية منخفضة: كالطاقة والتدفئة. وقد استطاع الروس خصخصة شققهم مقابل لا شىء بعد فترة الشيوعية، حيث حرروا أنفسهم من الإيجار أو أقساط القرض العقارى. وبما أن أسعار العقارات فى وسط موسكو الآن تتراوح بين ٢٠٠٠ دولار و١٠ آلاف دولار للياردة المربعة، فقد بات الكثير من أبناء موسكو أثرياء على الورق بأى معيار من المعايير. وحين فتحت شركة «إيكيا» السويدية الكبيرة للأثاث أول معرض لها فى موسكو منذ خمس سنوات، كان طابور السيارات المصطفة لدخول موقف السيارات من الطول بحيث خلق زحاماً فى الطريق المؤدى إليه من مطار إلى شيريميتيفو إلى وسط المدينة.

إن كتاب جاك صورة لموسكو، وليس لبوتين، غير أنه يغوص فى أعماق بوتين بما يكفى لبيان أن الحياة المبكرة، إلى الحد الذى يمكن توثيقه، لا تتسم بقدر كبير من التحدى. وهو يجرى مقابلة مع أوليج كالوجين الجنرال السابق فى الـ «كى جى بى» الذى يعيش حالياً فى الولايات المتحدة، وكان يعمل فى الـ «كى جى بى» لينينجراد فى



فيما يتعلق بالإصلاحات السياسية، لم يعد هناك من يدعى أن روسيا فى سبيلها لأن تكون ديمقراطية على النمط الأوروبى؛ ولا حتى وزراء بوتين

كتاب الزاوية

زكى نجيب محمود

تاريخ المستقبل

لقد بات فى وسعنا اليوم - إلى حد كبير - أن نكتب للمستقبل «تاريخًا» كما نكتب تاريخ الماضى، برغم أن الماضى قد تم حدوثه وعرفت تفصيلاته، وأن المستقبل مايزال غائبًا، فكما نعرف كم كان سكان مصر سنة ١٩٠٠، يمكننا أن نحدد كم سيكونون سنة ٢٠٠٠، وكما نعرف كيف كان التعليم وكم كانت نسبته، وكيف كانت الزراعة، وكيف كانت الصناعة؟ وكانت جوانب الحياة الأخرى، يمكننا أن نحدد - بدرجة كبيرة من الدقة - كيف ينتظر لهذه وهذه وتلك أن تكون، ولولا ذلك لما جاز لنا أن نتحدث عن «التخطيط» لسنة قادمة، أو لخمس سنوات، أو لعشر، أو كيفما تكون الخطة ومداها.

وكلما ازدادت القدرة على حساب المستقبل ورؤيته قبل وقوعه، على أسس علمية صحيحة فى رصد الوقائع وفى استدلال النتائج، نقصت الأوهام والمخاوف، فقد سألنى سائل فى سياق حديث بيننا: أمتشائم أنت أم متفائل بالنسبة إلى المستقبل؟ فسألته بدورى: فى أى جانب من جوانب الحياة تريد؟ قال: أردت المستقبل بصفة عامة، فقلت له: إن التعميم هنا يفقد القول معناه، لأن التشاؤم والتفاؤل إنما يكونان فى المواقع التى لم نحسب لها حسابها.

والتشاؤم والتفاؤل كلاهما ينتجان عن جهل الإنسان بمجرى الأحداث فى حاضرها أو فى مستقبلها، ولو علم الإنسان بتلك الأحداث كيف تجرى وماذا يتولد عنها، لما تفاءل ولا تشاءم، إذ كل ما يطلب منه عندئذ هو أن ينظر إلى الأمور الواقعة - أو التى سوف تقع - ليراها كما هى فى حقيقتها، فيبنى على علمه بهذا الواقع المرئى خطة سيره.

الثمانينيات. ويقول كالوجين إن پوتين عرض أن يكون مخبر الـ «كى جى بى»، وهو مازال يدرس فى جامعة موسكو، وبدأ عمله فى الـ «كى جى بى» بالإدارة الخامسة، التى كانت تضطهد المنشقين. وهاهو پوتين يتاجر الآن بماضيه المتألق المفترض باعتباره جاسوساً يعمل فى الخارج، بينما لم يُنقل قط بشكل رسمى إلى جهاز الاستخبارات الخارجية التابع لـ «كيه جى بى»، وإنما نُقل إليه نقلاً مؤقتاً، كما يقول كالوجين، حيث تولى منصباً صغيراً هناك.

يزيد التحفظ والنزوع إلى الشك الذى يسرى فى كتاب چاك من رصيد المؤلف، حيث تأخذ الأدلة على مصداقية پوتين كديمقراطى فى التلاشى. ويتعرف چاك بأن پوتين قد فعل أشياء طيبة لروسيا أبرزها وقف الانسياق نحو الفوضى الذى كان موجوداً فى السنوات الأخيرة من عهد يلتسين. ولكن حين يصل الأمر إلى مدح الرئيس مدحاً مباشراً، يفضل چاك أن يكون الكلام على لسان غيره. فهو على سبيل المثال يقتبس ما قاله مذيع التليفزيون ليونيد پارفيونوف الذى يؤكد أن أى شخص أمين يرى أن روسيا فى عام ٢٠٠٣ أكثر حرية عما كانت عليه فى ٢٠٠١ . فالشباب أكثر سعادة وأكثر انفتاحاً على العالم. وهم يرون الديمقراطية على أنها وسام. وإذا حاولت السلطات انتزاع حريتهم، بتقييد الإنترنت على سبيل المثال، فإنهم يحتجون على ذلك.

تكشف هذه المقابلة التى أفترض أنها أُجريت فى عام ٢٠٠٣ على وجه الخصوص عن أسباب ما كان ليتنبأ بها چاك أو پارفيونوف. ففى منتصف ٢٠٠٤ فُصل پارفيونوف من برنامجه التليفزيونى بعد الشكوى من أن السلطات منعته من إذاعة مقابلة أجراها رئيس شيشانى سابق كان قد اغتيل، وهو زليمخان ياندرباييف. ولو أُجريت تلك المقابلة مع پارفيونوف الآن وسُئل عن الحرية فى روسيا، أو على الأقل عن حرية التعبير عن الرأى، فلا شك فى أن رده كان سيصبح مختلفاً.

ومع ذلك، فإن چاك محق فى اعترافه بمنجزات پوتين فى ولايته الأولى، من عام ٢٠٠٠ حتى إعادة انتخابه فى مارس ٢٠٠٤. فقد جعل پوتين الاقتصاد الروسى مستقراً، وأتى لروسيا بقدر من الاحترام فى الشئون العالمية، واستعاد النظام الأساسى فى الخدمة العامة، كما حدث فى الأجور والمعاشات التى باتت تدفع بطريقة يعوَّل عليها أكثر مما كان عليه الحال فى عهد يلتسين. وضمنت هذا الأمور لپوتين شعبية حقيقية بين الروس العاديين الذين يعتقدون أنه يهتم بالبلد.

فى المقابل، كانت بداية ولاية پوتين الثانية تتسم بالفوضى، وقد هيمن عليها إخفاقان هما مسألة يوكوس والانتخابات التى جرت فى أوكرانيا. ولكن رغم تضاعف مشاكل روسيا الاقتصادية وانتكاساتها الدبلوماسية، فمن الصعب تخيل احتمال الإطاحة بپوتين من الكرملين قبل الأوان بواسطة انقلاب. فإن له شعبية كبيرة فى البلاد، وسوف يكون الضرر الذى سيلحق بعلاقات روسيا الخارجية كبيراً جداً. ولكن الخطر الذى يتعرض له پوتين هو بالأحرى إضعاف الفشل لسلطته وتشجيعه المؤامرات على تحديه أو تجاهله بين عملاء الـ «كى جى بى» وضباط الجيش السابقين الذى يشغلون الآن أكثر من نصف المناصب الكبرى فى الحكومة الفدرالية. وسوف يدير هؤلاء أعمالهم الخاصة، وسوف تكون لديهم دوافعهم إلى جر روسيا أكثر وأكثر إلى ظرف الدولة البوليسية، بينما يحولون دون المزيد من المغامرات فى اتجاه إضفاء الصبغة الغربية على البلاد. وسوف ينساق پوتين مع هذا التيار، لأنه هو نفسه يكاد يوافق عليه. ذلك أن محاولاته فى التحول إلى الليبرالية كان يحركها حب الاستطلاع أكثر منه الاقتناع من حيث المبدأ.

لو ترك پوتين بطانة ما بعد الـ «كى جى بى» تقوده فى اتجاه الفاشستية المحتشمة، فلا يلومن إلا نفسه. فقد أضاع فرصة السير بروسيا فى اتجاه مختلف تماماً فى ولايته الأولى، حين كان يتمتع بشعبية ضخمة وشعور ودى فى الداخل، ووجود اقتصاد منتعش، وثقة أوروبا الغربية، وفرصة فى أعقاب الحادى عشر من سبتمبر لجعل روسيا الحليف الأمريكى العلنى الأول. وما كان بالإمكان أن تصبح هناك أسس أفضل من تلك للاتجاه بروسيا بشكل حاسم نحو الغرب. ولكن بدلاً من ذلك، وبعد اللهو بذلك الخيار، هاهو پوتين يترك روسيا تنجرف نحو النموذج الصينى بما فيه من حكم الحزب الواحد، ولكن يبدو أن ذلك دون أن يكون لها أى من قوة الصين الاقتصادية التى تعوض عنه. وفى المقابل، ومع سير روسيا فى هذا الاتجاه حالياً، فمن المحتمل أن تزداد صداقة الدول الغربية لپوتين. ليس لأن هذا أمر طيب، بل لأن الاتجاهات الحالية تشير إلى أن من سيخلفه سيكون أسوأ منه. ■



مصر للتأمين

الحاصلة على شهادة الأيزو ٩٠٠١ / ٢٠٠٠

وثيقة المختلط مع الاشتراك فى الأرباح

ادخار وتأمين

لو عمرك ٤٠ سنة أو أقل

ومدة التأمين	والقسط الشهرى	يستحق لك فى نهاية مدة التأمين: مبلغ التأمين	+	الأرباح المتوقع تحقيقها
٢٠ سنة	١٠٠ جنيه	٢٤٠٠٠ جنيه		٤٦٠٠٠ جنيه

وذلك طبقاً لآخر معدل معتمد لتوزيع الأرباح

وفى حالة الوفاة لاقدر الله يستحق مبلغ التأمين بالإضافة إلى ما يخص الوثيقة من أرباح حتى تاريخ الوفاة

لدينا وثائق تناسب كافة - الاعمار والدخول حتى سن ٦٠ سنة

الإدارات المركزية ٤٤ أ ش الدقى - الجيزة ت: ٠٢/٣٣٥٥٣٥٠ - ٠٢/٧٤٩١٨٤٤ | شرق الدلتا ٨ ش الجيش - برج المحافظة - المنصورة ت: ٠٥٠ / ٢٣١٠٩٦٣

منطقتنا القاهرة ٧ ش طلعت حرب - القاهرة ت: ٠٢/ ٣٩٣٢٦٠٠ | وسط وغرب الدلتا ٢٥٥ ش الجلاء - طنطا ت: ٠٤٠ / ٣٣٢٦٢٠٨

الإسكندرية ٦١ طريق الحرية ت: ٠٣/٤٨٤٧٢٥٠ | شمال ووسط قبلى أرض سلطان - ش طه حسين - المنيا ت: ٠٨٦/٢٣٣٦٦٢٢

القناة ميدان عرابى - الإسماعيلية ت: ٠٦٤/٣٩١٦١٥٧ | جنوب قبلى ١٤ عمارة مصر للتأمين طريق أسيوط /سوهاج ت: ٠٩٣/٢٣٢٢٢٧٤

Email: misr_ins@misrins.com w.site: www.misrins.com

عندما تنتهك الديمقراطية

بريطانيا نموذجاً

■■ شائعة هى ظاهرة امتصاص الديمقراطية - التى هى مفهوم سياسى - لمنظومة حقوق الإنسان - التى هى مفهوم اجتماعى أشمل -، وغالباً ما تنزل لفظة «الديمقراطية» موارد أوضاع تتعلق بحقوق الإنسان إجمالاً. فالديمقراطية - من دون عرض للتفصيل التاريخى لظهور هذا المفهوم وأطر تطوره - هى بالأساس مفهوم سياسى: يضبط هيئة علاقات الحكم المنتظمة تكوينات الجماعة السياسية القائمة، ويحكم انعكاس مفردات هذا التهيؤ على علاقات القوى الفاعلة بالساحة السياسية.

الأمر الذى غدت معه الديمقراطية ركيزة من ركائز الدولة الحديثة، المتكونة على أصول التطور الحضارى الرأسمالى، فى أوروبا والولايات المتحدة، خلال القرن الثامن عشر وما تلاه.

حال كون جوهر مفهوم حقوق الإنسان يتجاوز فى إجماله ضيق التجربة السياسية للدولة المعاصرة ببعدها الحضارى الرأسمالى. فحقوق الإنسان شأن جمعى خالص، يخص كل أشكال العلاقات داخل كل جماعة، مما يترتب عليه تداعيه عند كل اجتماع بشرى، أياً ما يكون شكل هذا الاجتماع، ومستوى ارتقائه الحضارى، وأياً ما تكون عليه طبيعة العلاقات القائمة داخل هذا التجمع البشرى.

لذا فمن الطبيعى أن يتداعى مفهوم حقوق الإنسان على مستويات أخرى غير سياسية، كالصحة والتعليم مثلاً، بل ويتجلى فى كل ما يخص سلامة تشكل الشأن الذاتى الفردى المتعلق بدواعى الأمن والعمل والتكوين الأسرى، هذا بالطبع إلى جانب تداعيه الجلل على المستوى السياسى، فيما يعرف اصطلاحاً بالديمقراطية.

لذا فإن مطالعة أى تقرير يتعلق بحقوق الإنسان صادر عن أى من منظمات حقوق الإنسان المقدرة - تمييزاً لها عن غيرها من تلك التى تنشط فى إطار أوضاع السياسة الدولية لخدمة أغراض تباين غرض حقوق الإنسان -، يجد أن الديمقراطية محض مفرد من مفردات حقوق الإنسان، إلى جانبه تستقيم باقى مفرداته.

فمثلاً المجلس القومى للحريات المدنية «LIBERTY» فى عديد من إصداراته - ومنها ما هو تعليق على تقارير حقوق الإنسان الصادرة عن الحكومات الإنجليزية - نجده يصنف الديمقراطية باعتبارها أحد عناصر حقوق الإنسان - شاملة حقوق التعبير ومشتقاتها - - إلى جانبها تستقيم مفردات كالعدالة الجنائية والتمييز العنصرى والشأن الخاص بالسياسات الحكومية تجاه أيرلندا الشمالية، فضلاً عن حقوق بعض فئات المجتمع التى تحتاج إلى معاملة خاصة كحقوق المرأة وحقوق المعاقين بل والحقوق الصحية فى وضعها الأشمل - باعتبار أن المرض بدوره وضع خاص يحتاج إلى نظر مخصوص -، إضافة إلى حقوق المهاجرين - سواء أكانوا شرعيين أم غير شرعيين أم طالبى لجوء سياسى - وحقوق العمل والتنقل من أجل العمل. وفى تقارير مؤخرة أضيف إلى كل ما تقدم حقوق المثليين الجنسيين.

بيد أن المشكل الذى يصادف شأن حقوق الإنسان هو تغول المفرد السياسى على غيره من المفردات الأخرى، فكثيراً ما يلاحظ حتى فى خصوص الناشطين فى مجال حقوق الإنسان استغراقهم فى الشأن السياسى على حساب باقى أوجه حقوق الإنسان الأخرى، بل إن المفرد السياسى يكاد يكون المعيار الأوحد لتقييم الوضع الحقوقى داخل معظم الدول.

غير أن هذا المشكل تستفحل جسامته عندما تقوم الدولة - وبتعبير أصوب التكوينات السياسية القائمة بالمجتمع -، بتقليص شأن باقى مفردات حقوق الإنسان لصالح المفرد السياسى، أو بإعادة صياغة باقى تلك المفردات لتتدثر بالثوب السياسى، وفى الحالين يكون ذاك خدمة لمصالح سياسية جزئية لبعض من القائمين على الشأن السياسى داخل المجتمع.

فمثلاً يتم تهميش أهمية الأمن الجنائى للفرد لصالح الأمن السياسى للدولة، أو أن تتعاظم أهمية الأمن السياسى إلى حد الانتهاك الكامل لأحد الأسس الأيديولوجية للدولة ذاتها، أو أن يتم إسباغ أردية سياسية على أوضاع أخرى كالأوضاع الصحية؛ فترتبط الحقوق الصحية بالإستراتيجيات السياسية للتنافس الحزبى.

ويتم التهوين من فداحة كل ذلك؛ بدعوى أن حقوق الإنسان هى بخير حال، مادام النظام الديمقراطى القائم على تداول السلطة يعمل باطراد وانتظام.

لعل ما يدعونا إلى التعرض لذاك الموضوع، عبثية وضع حقوق الإنسان فى العالم أجمع، عبثية لم تعد مقصورة - كما كان الحال إلى الأمس القريب - على دولنا فحسب، بل صارت ظاهرة عالمية، تطال الدول العريقة مطاولتها دولنا. فها هى واحدة من أعرق دول العالم، إنجلترا العظمى، يصيب وضع حقوق الإنسان بها حال من التردى يتوقع معه - بحال استمراره - أن يستحيل سجل حقوق الإنسان بها شأن حاله بدولنا.

فتلك الدولة التى تطورت نظمها الاجتماعية تطوراً وئيداً، من دون أن تشهد ما شهدته غيرها من الدول الأخرى من تغيرات راديكالية، يتصور أن تكون منظومتها الحقوقية من أصلب المنظومات الحقوقية فى العالم، باعتبار حقوق الإنسان أحد النظم الركينة التى يتأصل عليها بنيان تلك الدولة.

مما لا تثريب عليه إن قدرنا - على حدّ زعم الثقافة الإنجليزية - أنها الدولة التى بدأت فى صياغة هيكلها الخاص بحقوق الإنسان منذ القرن الثالث عشر.

ففى عام ١٢١٥ أُعلن عن وثيقة حقوقية قررت اتفاقا بين الملك والنبلاء حول بعض من قواعد الحكم عرفت بـ magna carta ، ثم تعاقب عبر التجربة التاريخية للمجتمع الإنجليزى عدد من المواثيق الحقوقية التى يستند إليها جميعها فى إثبات عراقة وضع حقوق الإنسان فى تلك الدولة.

بل ويتفاخر علماء الإنسانيات الإنجليز بأن التجربة الإنجليزية، بهذه المواثيق، تكون قد أثرت الحضارة الإنسانية بواحدة من أفضل القيم الإنسانية على الإطلاق، ألا وهى منظومة حقوق الإنسان، عبر إشعاع التجربة الإنجليزية على تجارب أمم أخرى أدى إلى تبنيها بدورها لتلك المنظومة، وتحديداً الثورتين الأمريكية والفرنسية.

والحقيقة فإننا على الرغم من تحفظنا علمياً على كل ما تقدم، مما ليس مقام عرضه، إلا أننا سوف نعتمد هذا المقال جميعه بداعى الاقتناع المؤقت لنقوم بتقييم الوضع الحالى من خلال تلك الأفكار.

فما هو إذاً الحاصل فى المملكة المتحدة وما هو تأثيره على منظومة حقوق الإنسان؟

تعيش إنجلترا/ الدولة تحت تأثير هوس الإرهاب، الذى يبدو لى أنه سابق على أحداث سبتمبر ٢٠٠١، وإن كانت تلك الأخيرة قد أججته إلى الحد الذى يمكن تلمسه ليس فى تصرفات الحكومة الإنجليزية فحسب، بل فى أطر التفكير الاستراتيجى المشكل للسياسات المستقبلة أيضاً، يظهر ذلك بوضوح فى البرامج الانتخابية للأحزاب المتنافسة بانتخابات مجلس النواب المقرر لها مايو القادم.

آية ذلك أنه فى عام ٢٠٠٠ - أى قبل أحداث ٩/١١ - أصدر البرلمان الإنجليزى

من دواعى الغرابة أن هذه التدابير الأمنية تصدر عن حكومة حزب العمال، ذاك الحزب الذى يفترض نظرياً أن ليبراليته تنحو به صوب مزيد من التكريس لقيم حقوق الإنسان، لا الانتقاص منها على هذا النحو

حقـــوق الإنســـان!!

عمـــاد البشــرى



قانوناً للإرهاب Terrorism Act ٢٠٠٠، معتمداً تعريفاً له غاية فى الغرابة، فقد اعتبر الإرهاب: كل إتيان (أو تهديد) بأى من الأفعال الآتية:

(١) فعل التأثير على الحكومة (وسوف يتضح لاحقاً ما هو المقصود بالحكومة هنا) أو ترهيب الجمهور public أو قطاع منهم.

(٢) الأفعال التى يُبتغى من ورائها أهداف سياسية أو دينية أو أيديولوجية.

(٣) أفعال استخدام العنف ضد الأفراد أو تدمير الممتلكات أو تهديد حياة الأفراد أو تسبيب أخطار تتعلق بالصحة أو سلامة الجمهور أو التعرض للنظم الإلكترونية بأى صورة من صور التحرش.

على أن مفهوم الفعل يشمل الأفعال التى تتم خارج إقليم المملكة المتحدة، وتلك التى توجه إلى أى من الأفراد أو الممتلكات المذكورة أياً ما يكون محل وجودها. كما أن المقصود بالجمهور ليس جمهور المملكة المتحدة فحسب بل جماهير أى دولة أخرى خلاف المملكة. إضافة إلى أن المعنى بالحكومة: حكومة المملكة المتحدة أو أى من أجهزتها أو حكومة أى دولة أخرى خلاف المملكة المتحدة.

وجه غرابة هذا القانون أنه ليس فضفاضاً فحسب، وإنما باتساع نطاقات التجريم التى ينطوى عليها يمتص قانون العقوبات ذاته، الذى يفترض أنه جزء منه، فما الذى يبقى من قانون العقوبات خلاف تجريم أفعال العدوان على الأفراد أو الممتلكات أو الدولة.

وعليه فوفق هذا الفهم يصير الفرد إرهابياً، وليس مجرماً فحسب، إذا ما ارتكب فعل عدوان على أى من تلك الأهداف الثلاثة المذكورة، أياً ما تكون طبيعة هذا الفعل أو كنهه أو جسامته (وسوف يبين لاحقاً من له سلطة التقدير فى هذا الخصوص، كما سوف تبين أهمية التفرقة بين كون اعتبار الجانى إرهابياً أو محض مجرم).

بيد أن الأفدح أنه لا يقصر دوائر تجريمه على النطاق الإقليمى أو الموضوعى للمملكة المتحدة، بل يتسع بتعريف الإرهاب ليشمل أياً من تلك الأفعال التى قد يأتيها أى فرد غير إنجليزى، تجاه أى فرد أو ممتلكات غير إنجليزية، وإن لم يكونوا موجودين فى المملكة المتحدة، أو أى من تلك الأفعال التى تتم فى مواجهة حكومة أى دولة أخرى.

وبذلك قد يكون إنسان غير إنجليزى - أتى أياً من تلك الأفعال فى بلده الذى هو ليس المملكة المتحدة، وضد أهداف أو أفراد غير إنجليزية - إرهابياً فى فهم النظام القانونى الإنجليزى، حال كونه قد لا يعتبر كذلك وفق فهم النظام القانونى لدولته.

أى أن النظام القانونى الإنجليزى لم يكتف باختزال قانون العقوبات فى مفهوم الإرهاب فحسب، بل اشرأب بعنقه ليتدخل فى شئون التقدير الجنائى لمشرعى الدول الأخرى، سابغاً على أفعال لا صلة لها البتة بالشأن الإنجليزى تقييمه القانونى للتجريم العقابى، وبمعنى آخر شاء المشرع الإنجليزى أن يختزل قوانين عقوبات الدول الأخرى فى قانونه الخاص بالإرهاب.

والطريف أن الأمر لم يقتصر على ذلك، إذ فى أعقاب أحداث ١١/٩ أصدر البرلمان الإنجليزى قانوناً للإرهاب الدولى The 2001 Act - ينطبق على غير الإنجليز بموجب واقعة الميلاد - مقرراً حق وزير الداخلية فى تقدير أن إنساناً ما يعد إرهابياً دولياً، إذا اعتقد أن وجوده على إقليم المملكة المتحدة يعرض الأمن الوطنى للمجازفة.

ويكون الإنسان - الأجنبى بموجب الانطباق الموضوعى لهذا القانون - إرهابياً دولياً إذا كان معنياً بارتكاب أو التحضير أو التحريض على أفعال تعد إرهاباً دولياً، كما يعد إرهابياً دولياً كل من ينتمى لجماعة إرهابية دولية. وحالئذ يحق لوزير الداخلية - إذا ما قدر ما تقدم - أن يقوم بترحيل الإنسان المقدر أنه إرهابى إلى خارج المملكة المتحدة، أياً ما يكون النظام القانونى الذى على أساسه يقيم هذا الإنسان فى إنجلترا العظمى. كما يحق لوزير الداخلية اعتقال هذا الإنسان، بقرار مجرد منه.

وبذلك محض تصور تعريض الأمن القومى الإنجليزى للمجازفة، كاف فى فهم النظام القانونى الإنجليزى - العريق فى احترامه لحقوق الإنسان - لتحويل إنسان إلى إرهابى دولى، يجوز اعتقاله بقرار إدارى مجرد، لأى فترة من الزمن مهما استطالت، ودون أن يكون للقضاء أى دور فى هذا الخصوص.

وهذا فى إطار غياب أى تقدير موضوعى لمفهوم الفعل الإرهابى الدولى، اللهم إلا إذا ارتد فى التقدير إلى قانون الإرهاب الصادر عام ٢٠٠٠، الذى هو بدوره من الاتساع بحيث يطوى غالب أفعال التجريم العقابى تحت طائلة الوصف بالإرهاب، نحو ما تقدم.

وهكذا يبين كيف آل حال النظام القانونى العقابى لأعرق دول العالم فى مجال حقوق الإنسان، وما صار إليه وضع حق الإنسان فى الأمن الذاتى. وبذلك تنمحى كل النظريات المتعلقة بحق الإنسان المتهم فى المحاكمة الجنائية، وببراءته الأصلية حتى ثبوت الاتهام.

وكذلك حتى بعد تقرير إدانته، دوام حقه قائماً فى المعاملة الكريمة بحسبه إنساناً. أقول. كل هذا ينمحى أمام التقدير المطلق لرجل الإدارة بأن إنساناً ما يعتبر إرهابياً دولياً، دون أن نعرف ما هى معايير تقدير الفعل الذى يعتبر إرهاباً دولياً، وكذلك دون تقدير لإنسانية من يقدر أنه إرهابى دولى، إذ بفرض أنه كذلك، ألا يعتبر فى كل الأحوال إنساناً يستأهل المعاملة الإنسانية، وفق المقدر منها، مما يتعين معه تمتعه بالحقوق كافة التى يتمتع بها كل إنسان.

ومن دواعى الغرابة أن هذه التدابير الأمنية تصدر عن حكومة حزب العمال، ذاك الحزب الذى يفترض نظرياً أن ليبراليته تنحو به صوب مزيد من التكريس لقيم حقوق الإنسان، لا الانتقاص منها على هذا النحو.

وما يزيده غرابة أن حكومة هذا الحزب منتخبة من قبل الجماهير التى يتصور أن تكون أوضاع حقوق الإنسان بالنسبة إليها، على القمة من دواعى اهتمامها، فكيف



لحزب أن يتنكر لأحد أهم ركائزه الفكرية - ألا وهى الليبرالية؟ وكيف تصمت الجماهير أمام ذاك، وهى التى أتت به إلى سدة الحكم؟ بل ومن المتوقع فى أغلب الأحوال أن تعيد انتخابه لولاية ثالثة فى مايو القادم!

بالطبع ليس من اليسير الإجابة على مثل تلك التساؤلات، كما أتصور أن كل ما يمكن قوله فى مقام الجواب، لن يفى مثل ذاك الموضوع حقه، فالعوامل متعددة: منه ما هو تاريخى يتعلق بتضاؤل دور الاشتراكية كمتحد أيديولوجى للرأسمالية، وانعكاس هذا على أوضاع الأحزاب الأوروبية التى طالما جسدت نموذج الاشتراكية الديمقراطية، كحزب العمال الإنجليزى.

ومنه ما هو اقتصادى يتمثل فى الأريحية الاقتصادية النسبية المتحققة فى مجتمع - كذاك الإنجليزى - تمكن من توفير حدود دنيا مقبولة من الخدمات الأساسية، مما يتقلص معه الاهتمام الفردى بالجدل الأيديولوجى حول مشكل كحقوق الإنسان.

ويتكامل مع ما تقدم عامل نفسى غاية فى الأهمية، يتمثل فى الارتخاء الجمعى الذى يسببه طول عهد الأريحية الاقتصادية، فى ظل أطر ثقافية (نظم تربية ومناهج تعليم وانماط حياة) تعمد إلى تكوين العقل الجمعى على أصول الفكر البرجماتى الرأسمالى - وليس حتى الفكر الفردى الحر بمعناه الأيديولوجى - ، حيث المال القيمة النسبية الوحيدة التى تقاس عليها أوضاع المجتمع أشمل، ومن ثم فما دام المال موجوداً - وإن فى حدوده الدنيا المقبولة -، فلا يتصور أن تمثل أى قيمة أخرى أى تحد جدى للأنظمة القائمة.

خاصة أن مثل تلك القوانين والتدابير لم تمس بعد قطاعات الشعب، وإنما هى فى حال استنفار فى مواجهة غير الإنجليز الأصلاء، وتحديداً فى مواجهة المسلمين، ومن بعدهم المهاجرين الأسيويين أو مسلمى شرق أوروبا، وهؤلاء لا يمثلون أى وزن سياسى فى التصويت الانتخابى، إما لضآلة شأنهم السياسى أو لأنهم مازالوا ليس لهم حق فى الانتخاب.

والمثير للاشمئزاز أن بين الأحزاب الأساسية مزايدة حول أوضاع المهاجرين، لا فى صالح توكيد حقوق هذه الفئات الضعيفة بالمجتمع وإنما فى اتجاه إثارة الرأى العام عليهم، وتهيئة مناخ عام رافض لهم، يبرر تمرير مثل تلك التدابير الأمنية - كالقانون المذكور - ، بدعوى أنها قوانين لن تستهدف المواطن العادى وإنما تلك الفئات الضارة بالمجتمع فحسب، حماية لأمن المجتمع الكلى من الإرهاب، ولما يمثله وجود هؤلاء فى المجتمع الإنجليزى من تهديد أمنى له.

حال أنه من المعروف بداهة أن أى قانون يصدر بصيغ الإطلاق والعموم قابل للتطبيق على الكافة، دون تمييز بين هؤلاء وأولئك، وهو ما انفكت المنظمات الناشطة فى مجال حقوق الإنسان لافتة الأنظار إليه، بحسبان أن إصدار مثل تلك القوانين، وإن لن يطبق على المواطنين الأصلاء فى حينه، فلا يوجد ما يحول دون هذا التطبيق.

وهو ما أيده قضاء صادر فى ديسمبر الماضى من مجلس اللوردات، انتهى إلى عدم صحة قرارات وزير الداخلية باعتقال عدد من الإسلاميين العرب فى أعقاب أحداث ٩/١١ مستنداً إلى قانون ٢٠٠١ المشار إليه آنفاً، بدعوى تهديدهم للأمن، وهى القرارات التى ترتب عليها اعتقال هؤلاء لمدد تربو على الثلاث سنوات دون تقديمهم للمحاكمة، بل دون أن تقدم السلطات المختصة أية أسباب لتعليل ذاك الاعتقال.

وقد شاد مجلس اللوردات قضاءه التاريخى: على سند من أن تلك قرارات تفتقر إلى السند المسوغ، فالأوراق والأدلة المقدمة تجرى خلواً من أى ما يفيد هذا الاعتقاد.

على أن هذا الحكم وإن لم يتعرض صراحة لقانون ٢٠٠١ المذكور - إذ تأتى عباراته جميعها خلواً من وصم هذا القانون بأى من أوصاف عدم الدستورية - ، وذلك لأسباب فنية تتصل بطبيعة الدستور الإنجليزى، وبطريقة تطبيق مبدأ الفصل بين السلطات، حيث لا يسمح للسلطة القضائية بمساس أعمال السلطة التشريعية، إلا أنه أشار فى متنه صراحة إلى مناقضة هذا القانون للقانون الأوروبى لحقوق الإنسان، كونه مايز دون سند مسوغ بين الأجانب الذين ينطبق عليهم هذا القانون والمواطنين الإنجليز ممن لا يشملهم انطباقه.

والحقيقة أن من يقرأ هذا الحكم - الذى يربو على المائة صفحة والممتع فى دقته وحرفيته العاليتين - يمكنه تلمس نقد قاتل لهذا القانون دون أية إشارة صريحة إليه. الأمر الذى غدا معه سقوط هذا القانون أمراً مسلماً به حتى من قبل الحكومة ذاتها، التى قامت بإعداد مشروع قانون آخر بديل لذاك المقتول بحكم محكمة اللوردات، على ما سوف نذكره لاحقاً.

والحق أن متابعة التفاصيل اليومية للمزايدة الانتخابية الجارية الآن - أقول مزايدة لا معركة لأنها فى حقيقة الأمر لا تعدو أن تكون تنويعات على برنامج انتخابى واحد - هو أمر شيق جداً، فثمة حزبان أساسيان يتباريان للاستحواذ على أكثر الأصوات - حزب العمال وحزب المحافظين - كلاهما لديه ذات الأولويات، وكلاهما لديه ذات المقاربة لذات المشكل، فقط بعض الاختلاف فى التفاصيل والجزئيات الفرعية، مصحوب بتضخيم إعلامى حول أهميته.

وثمة حزب آخر لا يقوى على المنافسة الشعبية وإن كان الأكثر مصداقية فى التقدير الموضوعى الكلى، ألا وهو الحزب الليبرالى الديمقراطى.

فمثلاً إذا نظرنا إلى برنامج حزب العمال المعلن نجده يتكون من ستة عناصر:

١) الأسرة: وعد بتحسين وضعها المعيشى عن طريق تخفيض معدلات التضخم وتقليل أقساط شراء العقارات ورفع لمعدلات الاجور.

٢) الطفل: وعد بتحسين مستويات قدراته عن طريق المدارس العصرية والانضباط التام، مع ضمان أماكن للتدريب.

٣) الأبناء: وعد بأوضاع افضل لهم عن طريق تحسين أنظمة رعاية الأطفال (أجازة رعاية الطفل وإتاحتها للاباء كما للأمهات) ورعاية أفضل لأطفال ما دون الخامسة وتقدير نظم رعاية لما بعد الفترة الدراسية لأطفال ما بعد الخامسة.

٤) رعاية صحية: تتمثل فى الجملة فى توفير أنظمة تتجاوز العيوب القائمة فلا تزيد فترة الانتظار لإجراء العملية على ثمانية عشر أسبوعاً مع إتاحة فرص لاختيار مكان العلاج وزمنه.

٥) أمن اجتماعى: بتوفير فرق أمن محلى واتخاذ إجراءات صارمة فى مواجهة التهريب والجريمة وتجارة المخدرات.

٦) أمن للدولة: يقصد به إجراءات لحماية أمن الدولة ذاتها ويتمثل فى إصدار بطاقات شخصية تشبه الرقم القومى لدينا (هل يصدق أن ليس فى بريطانيا العظمى بطاقات شخصية)، ورقابة دقيقة للوظائف والأعمال للحيلولة دون قيام طالبى اللجوء السياسى بالعمل دون إذن مخصوص، وتقعيد نظم لمعالجة الهجرة غير الشرعية.

حال نجد برنامج حزب المحافظين المنافس يقرر الآتى:

١) تقليل فى الضرائب.

٢) نظم مدرسية أكثر انضباطا.

٣) مستشفيات أكثر نظاماً ونظافة.

٤) مزيد من البوليس (ويعنى به مزيداً من الأمن)

٥) رقابة الهجرة غير الشرعية.

الأمر الذى يبين منه مقدار التقارب فى الأولويات بين البرنامجين بل وبين

ثمة حزبان أساسيان يتباريان للاستحواذ على أكثر الأصوات - حزب العمال وحزب المحافظين - كلاهما لديه ذات الأولويات، وكلاهما لديه ذات المقاربة لذات المشكل، فقط بعض الاختلاف فى التفاصيل



المعالجات المقترحة بكل منهما. والحقيقة أن هذا ليس مقال عرض للحال الانتخابى، وإنما هو معرض لتناول وضع حقوق الإنسان، لذلك آثرنا العرض السريع للبرامج الانتخابية لهذين الحزبين، كخلفية لمنطلقات كل منهما الأمنية الماسة فى جوهرها موضوع حقوق الإنسان، وتحديداً فى مجالات الصحة، والهجرة، والتدبير الأمنى أو مقاومة الإرهاب كما يحلو تسميته الآن.

فى مجال الصحة:

البين لكل من يعايش الحياة اليومية البريطانية، أن ثمة تدنياً فى مستوى الخدمات الأساسية المقدمة للمواطن فى هذا المجال تحديداً، وإن كانا مازالا فى وضع أفضل من أوضاع مماثلة فى كثيراً دول العالم الأخرى.

ولعل الشاهد على ذلك، أن الحزب الحاكم ذاته، القائم على الحكم منذ سنة ١٩٩٧، يصوغ برنامجه الانتخابى على وعود بتحسين مستويات الخدمات المقدمة فى هذا المجال.

الأمر الذى يدعم الشعور الذى ينتاب المشاهد. بأن ثمة تدنياً حقيقياً فى مستويات تلك الخدمة، خاصة أن برنامج حزب العمال فى هذا الشأن، لا يتأسس على أفكار مركبة تخص هذا المجال الخدمى، تعطى شعوراً بالثقة بأن ثمة إنجازاً قد تم فى عهده، وأن القادم سوف يكون بناء على ما تم، وإنما - على العكس. يحمل معنى تصحيحياً لأوضاع تردت.

والحق فإن هذا استنتاج تمتلئ الجرائد اليومية بما يؤكده، فهل يتصور - وبالطبع أنا أتحدث عن أحد دول العالم المتقدم الكبرى وليس عن إحدى الدول النامية - أن يكون هناك على قائمة الانتظار لإجراء جراحات ما يقرب من ٧٥٠٠٠ مريض - وحسب قول السلطات هم فقط ٦٦٠٠٠ مريض - ، وهذا الانتظار يجاوز فعلاً السنة. لهذا السبب ولغيره تتزايد ظاهرة التأمين الصحى الخاص، وهى ظاهرة جديدة نسبياً على المجتمع الإنجليزى. الأمر الذى يصير قلقاً على وضع حقوق الإنسان المتعلق بالصحة، فى الوقت الذى تصرف الحكومة فيه جُل اهتمامها إلى شئون أخرى، لا أهمية لها مقارنة بالوضع الصحى، كتحريم صيد الذئاب، الذى أثار استقطاباً فى المجتمع الإنجليزى دون مقتضى. حيث تم تمرير قانون يحرم صيد الذئاب وبعض أنواع الحيوانات الأخرى، بدعوى أنها هواية غير إنسانية. - الأمر الذى كان من المتصور معه تحريم مشتقات الصيد، كتحريم الاتجار فى الفراء، كأثر منطقى لمنطق متعاطف مع الحيوان. إلا أنه لم يحدث، من يؤكد محض عبثية القانون وقيامه على أهداف حزبية خاصة تتصل بجدلية مصارعة الديوك بين الحزبين الكبيرين - . بل والأفدح أن هذا القانون به من الثغرات ما يمكن عن طريقها الاستمرار فى صيد الذئاب شريطة الالتزام بالنموذج المقرر.

المهم أن الحكومة قامت بتمرير هذا القانون، وهو بالمناسبة يتضمن نصوصاً عقابية تطال من يتلبس مرتكباً جريمة الصيد، ما يعنى أن من يقوم بالصيد يصير مجرماً. ويحرر له ملفاً إجرامياً. مما يفيد أن تلك الحكومة الليبرالية ما تفتأ أن تزيد بشكل دورى إطار التجريم العقابى، وهو الأمر الذى ينتقل بنا إلى مجالى الهجرة والأمن.

فى مجال الهجرة:

نجد مثلاً حزب المحافظين يعلن أن الهجرة برمتها تمثل عبئاً على المجتمع الإنجليزى، الذى لم يعد قادراً على استيعاب تلك الأعداد من المهاجرين، مقترحاً أن يتم تنظيمها على النحو الذى لا يسمح معه لأحد بالهجرة إلى المملكة المتحدة إلا إذا كان المجتمع فى احتياج لتخصصه الوظيفى. هذا الإعلان يبدو فى ظاهره عادلاً. فثمة مجتمع يريد أن يحافظ على أوضاعه، وهو فى رأيى: حق مشروع.

بيد أن المشكل يكمن فيما وراء هذا المظهر الخادع، إذ يندرج ضمن ذلك: حق للدولة فى إعادة دراسة حالات الهجرة التى تمت بالفعل وجدوى استمرار وجود كل حالة فى المملكة المتحدة، كما يندرج حق لها فى منع الحاصلين على الهجرة من التوحد مع أسرهم فلا يسمح لهم باستجلاب أسرهم.

وإضافة إلى ذلك فإن ثمة فكرة تتصل بالأخذ بنظام الحصص، حيث تخصص لكل دولة حصة «كوتة» يتعين التزامها، فلا يقبل مهاجرين من أية دولة إلا فى حدود الحصة المقررة لمواطنيها.

وإلى جانب كل ذلك ثمة إعلان صادر عن هذا الحزب بالمطالبة بالانسحاب من معاهدة الأمم المتحدة لشئون اللاجئين، وبعض مواد القانون الأوروبى لحقوق الإنسان. والطريف فى هذا الخصوص أنه ما أن أعلن زعيم حزب المحافظين ذاك - مايكل هوارد - ، إلا والإعلام قد تسربت إليه أنباء تتعلق بجد هذا الزعيم، تفيد أنه مهاجر غير شرعى قام بتزوير أوراق الهجرة ليحصل على الإقامة. الأمر الذى اضطر هو معه إلى تأكيده مع إعلان تنصله مما فعله جده، بل ونقده له.

على أن كل هذا لا أهمية كبرى له، لأنه كما يقولون من قبيل الاستهلاك الإعلامى فى محاولة من الحزب للمنافسة، حال تتضاءل فرصه فى النجاح، كما أنه غير مصحوب بمخططات جاهزة للتدابير المراد اتخاذها.

بيد أن مكمن دلالته فى موقف هذا الحزب من حقوق الإنسان إجمالاً، لا المتعلقة بالهجرة فحسب. فكيف يعقل أن مهاجراً منذ زمن أقام حياته فى إنجلترا إقامة مستقرة ومنتظمة، أن تتم إعادة تقييم لحاله، بحيث يحتمل أن يتم ترحيله هو وذويه بناء على هذا التقييم، إذا ثبت مثلاً أنه لا يؤدى للمجتمع الإنجليزى خدمات جليلة.

ثم كيف لحزب عريق كحزب المحافظين أن يقترح الانسحاب من إحدى أو بعض المعاهدات الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان، أنا أتعجب من تلك الجراة، ولا أستطيع تخيل الحال إذا ما اقترحت إحدى حكومات دولنا اقتراحا مشابهاً.

أما على مستوى حزب العمال فالأمر جد شديد البأس، لأن هذا الحزب ما فتئ أن قام بالفعل بتنفيذ مخططاته وتدابيره الأمنية التى تفصح عن وضع شديد الضراوة، وهو ما يتعين معه اتخاذ إعلانه عن أية برامج أو استراتيجيات على هذا المستوى مأخذ الجد. ففى خصوص شئون الهجرة واللجوء السياسى، فقد أعلن عن مخطط من ثلاثة محاور: الأول يتصل بوجوب تغيير استراتيجيات التعامل مع المهاجرين للعمل فلا يسمح لهم بالبقاء فى المملكة المتحدة لفترات طويلة، كما سوف يجرى العمل بنظام النقاط حيث تتم ترجمة مؤهلات كل إنسان إلى نقاط، ولا يسمح لأحد بالدخول للعمل إلا إذا تحققت فيه النقاط المطلوبة. مع تردد أنباء غير مؤكدة - وإن لم تنف أيضاً - عن احتمال تقليص إمكانات اللاجئين فى استجلاب ذويهم، مع التأكيد على أن هذا إن تم فلا يسرى على الأزواج أو الأبناء.

والثانى يتعلق بتعديلات فى طرق تقدير أهلية قبول طالبى اللجوء السياسى، مع وضع نظم عقابية تتمثل فى الاعتقال بالنسبة لمن يفشل فى الحصول على اللجوء السياسى المطلوب، والقول فى هذا الخصوص مبرر بأنه موجه لعصابات تهريب العمال من شرق أوروبا. وأما الثالث فيتصل بمراجعة شاملة لنظم مراقبة المهاجرين جميعهم.

الأمر الذى يقدر معه جوهر التشابه بين برنامجى الحزبين، المتساندين فى اتجاه يتناقض والموقف المعلن من حقوق الإنسان، بل إن ثمة تناقضاً بين تلك السياسات والقانون الأوروبى لحقوق الإنسان، لا تنفك منظمات حقوق الإنسان مشيرة إليه تارة، محذرة منه تارة أخرى.

هذا القانون يقرر سلطات أخرى لجهة الإدارة، كتقييد حق المواطن فى التنقل، وتقييد إقامته فى منزله وحرمانه من الخروج والزيارات (نموذج أوروبى للتوقيف الإدارى)، ومن حق الاتصال الهاتفى أو استخدام الإنترنت

حال كون الحزب الليبرالى الديمقراطى فى حال معارضة شبه تامة لتلك الإعلانات جميعها، بتقدير أنها تؤدى فى الجملة إلى خلط بين نماذج هجرة متباينة فى مراكزها وظروفها، مما يؤدى بالضرورة إلى تكوين رأى عام معادٍ للمهاجرين بعامة، متهماً كل من الحزبين بافتعال سجال انتخابى الغرض منه المصالح الانتخابية، مشيراً إلى أن مشكل الهجرة هو ظاهرة عالمية لا يمكن علاجها إلا على نحو إقليمى أوروبى.

التدبير الأمنى :

المشكل متفاقم والمقدمات غير مبشرة، فحزب المحافظين صامت فى خصوص هذه المسألة، ويتردد أنه فى انتظار تسويات سياسية يجريها مع حزب العمال فى هذا الخصوص. جوهر الموضوع يكمن فيما يعرف لحزب العمال من رؤية واضحة فى خصوص الموقف من الأمن الداخلى، فيما يعرف بمكافحة الإرهاب، وهو موقف مسبق أنف وذكرناه فيما أصدرته حكومته من القوانين المذكورة. بيد أن الرؤية يبدو أنها أكثر اكتمالاً مما نظن، إذ بتأثير من قضاء مجلس اللوردات المذكور الذى أسقط قانون الإرهاب الدولى، ومحاججة بالانتخابات القادمة التى هى فرصة ذهبية لقوى الإرهاب العابثة لتهديد الأمن القومى الإنجليزى - إشارة إلى الانتخابات الإسبانية - فقد أعلن حزب العمال الحاكم، الاحتياج القومى إلى مزيد من النظم القانونية التى تمكن من توفير قدر أكبر من الكفاية الأمنية.

فإذا به فى الأيام القليلة الماضية، يحاول تمرير قانون يسمح للحكومة بالاعتقال العام لأى مواطن وليس للمهاجرين فقط - حلاً لمشكل العوار الدستورى الذى أشار إليه حكم محكمة اللوردات - ، دون تقييد بوجوب العرض على القضاء سواء لاستصدار أمر بالاعتقال أم لتمديد مدده، بل ودون أية ملزومية بإخطار المعتقل بأسباب اعتقاله، وهو ما يتناقض صراحة مع أحد المبادئ الدستورية الإنجليزية التى تحظر، فى غير أحوال اللاجئين، الاعتقال بقرار تنفيذى منفرد، أى الاعتقال من دون قرار قضائى مسبق، وبدوره يتناقض مع مبادئ القانون الدولى الإنسانى - التى يدعى الغرب ذاته عالميتها - التى تقرر حق كل مقبوض عليه فى معرفة وجه الاتهام الموجه إليه.

يضاف إلى ذلك أن هذا القانون يقرر سلطات أخرى لجهة الإدارة، كتقييد حق المواطن فى التنقل، وتقييد إقامته فى منزله وحرمانه من الخروج مع حرمانه من الزيارات (نموذج أوروبى للتوقيف الإدارى)، والحرمان من حق الاتصال الهاتفى أو استخدام الإنترنت. والغريب أن كل هذا يراد له أن يتم بموجب هذا القانون، الذى بدوره يحرم القضاء من أى سلطان تقديرى فى هذا الخصوص.

وفى هذا فقد نقل عن وزير الداخلية السيد تشارلز كلارك قولاً يفيد أنه لن يسمح للقضاء بالتدخل فيما يتخذه من تدابير أمنية وإلا يكون بذلك قد فرط فى مسئولياته عن الأمن القومى.

وقد عرض مشروع هذا القانون على مجلس النواب الذى أجازه على الرغم من معارضة حزبى المحافظين والليبراليين الديمقراطيين، ليُحول إلى مجلس اللوردات، ذاك المجلس - غير المنتخب - الذى يتكون من أغلبية تنتمى إما إلى المحافظين بحكم كونهم لوردات وإما إلى المستقلين من غير الحزبيين - كالقضاة المتقاعدين والمحامين من اللوردات وبعض اللوردات ممن ينتمون إلى الحزب الليبرالى الديمقراطى - ، الذى رفض هذا المشروع وأعاده ثانية إلى مجلس النواب. وهنا اتضحت الرؤى إذ ثبت أن ثمة موقفين غير متطابقين يمثلان معارضة لهذا القانون. الموقف الأول ويمثله غالب المستقلين من أعضاء المجلسين، وهو رفض القانون لمخالفته لمبادئ حقوق الإنسان، ويمكن أن يضاف إلى هؤلاء من أنصار هذا الرأى أعضاء الحزب الليبرالى الديمقراطى، على قلتهم.

والموقف الآخر يمثله أنصار حزب المحافظين، بزعامة السيد مايكل هوارد - وزير الداخلية السابق فى عهد البارونة مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء السابقة - وهو موقف اقتضته الدواعى الانتخابية لا دواعى حقوق الإنسان، إذ تمسك هذا الحزب بوجوب تضمين القانون نصاً يفيد سقوطه بحلول شهر نوفمبر القادم، سقوطاً جبرياً حكماً غير متوقف على إرادة أحد.

على أن موقف حزب العمال زاد تصلباً فقام بطرح ذات القانون مرة أخرى على مجلس النواب بحاله السابق دون أية تعديلات من تلك التى أشار إليها مجلس اللوردات، فأجازه مجلس النواب وأرسله إلى مجلس الآخر، الذى رفضه مرة ثانية متمسكاً بما طالب به من تعديلات.

وهنا جاء المأزق الدستورى، ذاك أنه إذا ما أصر مجلس النواب على رأيه ثالثة وبدوره رفضه مجلس اللوردات ثالثة، فلا يكون أمام مجلس النواب - حال إصرار الحكومة على إصدار القانون - إلا أن يصدره على ضمانته وبضمان الحكومة، الأمر الذى يجعله عرضة لمناقضات قضائية فضلاً عن الإحراج السياسى الذى يتعرض له الحزب الحاكم جراء ذلك، فيما لم يحدث منذ ٩٩ عاماً.

الأمر الذى استبعد معه المراقبون إقدام الحكومة على صدر مثل هذا القانون، مرجحين تعجيلها بإجراء الانتخابات فوراً، تلك التى تطوى من ضمن ما تطويه استفتاء حول هذا القانون. على أن رئيس الوزراء ارتأى وجوب حل هذا المأزق وعدم المخاطرة بإجراء انتخابات سابقة لأوانها، فقدم تعديلاً فى مشروع القانون يفيد إعادة تقييم القانون ثانية فى يوليو ٢٠٠٦، بناء على تقرير جهة رقابية محايدة تعين خصيصاً لمراقبة هذا القانون. الأمر الذى لاقى هوى الجميع وتمت الموافقة عليه من قبل المجلسين. حتى الآن والمراقبون لا يعرفون على وجه الدقة ماذا يطوى هذا القانون، الأمر الذى استبان بعد تمام الموافقة عليه من المجلسين، ويمكن اختصاراً تعيينه فى النقاط الآتية:

١) حق وزير الداخلية فى تقدير خطورة أى مقيم على أرض بريطانيا - مواطن أم أجنبى - وإصدار قرار بالاعتقال، مع وجوب عرض الأمر على القضاء خلال أسبوع، مع حق وزير الداخلية فى إخفاء سبب الاعتقال عن الجميع حتى المعتقلين أنفسهم.

٢) جواز الحجز الإدارى فى المنازل مع منع الزيارة إلا من خلال إجراءات تتم عن طريق وزارة الداخلية.

٣) منع المحجوزين إدارياً من مغادرة منازلهم خلال أوقات الليل، اما أثناء النهار فيجب اتخاذ موافقة مبتدأة من وزارة الداخلية.

٤) جواز قيام المعتقلين إدارياً باستخدام الهواتف السلكية مع حرمانهم من الهواتف الخلوية.

٥) ربط جميع هؤلاء إلكترونياً بوزارة الداخلية عن طريق أجهزة تشبه الساعات تشد على معاصمهم لا يخلعونها نهائياً، سواء ليلاً أم نهاراً، أياً ما يكون السبب. وهكذا تم تقويض حكم محكمة اللوردات، سياسياً، واختزاله فى عنصر المساواة بين المواطنين والأجانب من حيث جواز الاعتقال، نزولاً على المثل العربى «المساواة فى الظلم عدل»، دون أدنى تقدير لبقية حيثيات ذاك الحكم العظيم فى تأصيله لمبادئ حقوق الإنسان وأوضاعها التطبيقية. وحصل التواطؤ سياسياً بين أفراد اللعبة السياسية على مذبح حقوق الإنسان، الذى دشن أول إنجازاته فى قرارات وزير الداخلية بالاعتقال الإدارى لأولئك العرب العشرة المتهمين بالإرهاب، الذين كان قد صدر فى حقهم حكم محكمة اللوردات، والذين أبى وزير الداخلية الإفراج عنهم حتى

تم تقويض حكم محكمة اللوردات، سياسياً، واختزاله فى عنصر المساواة بين المواطنين والأجانب من حيث جواز الاعتقال، دون أدنى تقدير لبقية حيثيات ذاك الحكم العظيم فى تأصيله لمبادئ حقوق الإنسان

يصدر هذا القانون. وفى إطار من كل هذا لا يبدو أن المواطن فى حال اكتراث بما يحصل، فالتقديرات جميعها فى صالح نجاح حزب العمال، ونسب المشاركة فى هذه الانتخابات لا يتصور أن تزيد على ٤٠٪ (حول هذه النسبة دارت المشاركة فى الجولات الانتخابية طوال العقدين المنصرمين)، وإن كان ثمة تقدير أكثر تشاؤماً يستبعد بلوغ المشاركة الانتخابية فى هذه الجولة تلك النسبة. وعلى حد قول أحد القضاة: إننا بهذا لا نكون بصدد انتهاك لإحدى قيمنا التى يتأصل عليها نظامنا فحسب، وإنما نكون بصدد ارتكاب جريمة خيانة تاريخية قبل الأجيال السابقة علينا التى ناضلت من أجل نيل تلك الحقوق.

والذى يتبادر لدى هنا ومن الناحية القانونية الفنية، أن نظم الطوارئ - المعروفة بالمشروعية الاستثنائية - والمعمول بها فى بلادنا، تغدو أكثر قرباً لحقوق الإنسان، مما تفيده القراءة المجردة للوضع القانونى فى إنجلترا.

ذلك أن نظمنا على الأقل تعترف بأنها استثنائية، أما تلك الإنجليزية فيه تتعلق بأطر المشروعية العادية، خاصة إذا ما قدرنا أن النظام القانونى الإنجليزى هو نظام يتسم بالاستقرار الشديد فى أوضاعه، مما يفيد أنه ليس بالسهل تعديل أى من القوانين التى تدخل حيز التنفيذ، ومن ثم فإن هذه القوانين إن كتبت لها الحياة، فإنها سوف تصير جزءاً ركيناً من البنية القانونية لهذا النظام.

خلاف وضع نظم الطوارئ فى بلادنا التى مهما طال عليها أمد البقاء، فهى بالنهاية نظم استثنائية. بالطبع أعرف أن ثمة اختلافاً شاسعاً مازال بين نظمنا ونظم العالم المتقدم، كالنظام الإنجليزى مثلاً، وبالطبع أعرف أن كل محاولة للمقارنة بين أسوأ أحوال نظم العالم المتقدم لا تقارن بأحوالنا الفضلى، إلا أن هذه الحقائق القائمة الآن فى العالم المتقدم لا تعطى أية مقدمات مبشرة.

والأمر على هذا النحو يثير التساؤل حول مستقبل حقوق الإنسان فى العالم، ويعود بنا إلى ما بدأنا به، الا وهو امتصاص العنصر السياسى لباقى عناصر منظومة حقوق الإنسان، فحقوق الإنسان قد جرى - أو يجرى - اختزالها فى المفهوم السياسى للديمقراطية، بمعنى أنه صار كافياً للدلالة على وجود وضع مرضٍ لحقوق الإنسان، وجود شكل ما لتداول السلطة بين أشباه سياسية تسمى أحزاباً، تدور جميعها فى فلك السياسة العالمية، المرسومة بدورها من قبل مراكز صنع القرار الأمريكى، بغض النظر فيما بعد عن أية أوضاع أخرى تمس شأن الإنسان أو احتياجاته الإنسانية.

وبذلك تكون البشرى لكل الأنظمة - وتحديداً الشرائح العليا من المجتمع القابضة على مقدراته - : فمن يتمكن من توفير هذه العناصر، يصير نصيراً لحقوق الإنسان، وسوف يمنح سجلاً مشرفاً فى مجال حقوق الإنسان، ويحصل على كل الدعم السياسى الدولى، ولا يستبعد أن يمنح شخص مجسد هذه التجربة الرائعة، جائزة دولية على ذلك. ولا يهم بعد، قدر الأمن الجنائى الذى ينعم به المواطنون، ولا يهم مقدار ما هو موفر لهم من خدمات تتعلق بالصحة أو التعليم مثلاً، وبالقطع فإن مستويات الكفاية الاقتصادية على المستوى الجمعى لأفراد الشعب بدورها تكون غير ذات أهمية، الكل متقلص متضائل الشأن مقارنة بالتجربة الديمقراطية الرائدة وبنعيم حقوق الإنسان الذى يرتع فيه شعب هذه الدولة، الذى يقع شأنه السياسى ومستقبله الحضارى رهيناً بدورات اللعبة السياسية الخاصة بتداول السلطة على النموذج الغربى، بين أشباه سياسية تتنافس على رضاء مراكز صنع القرار الدولى، عليها، بما يمنحه لها من شرف الاعتماد، وتقديم الدعم الدولى الذى يمكنها من اعتلاء سدة الحكم، ولو مؤقتاً حتى إشعار ديمقراطى آخر، بضرورة التغيير.

شعار يفيد ضرورة تدوير آلة الديمقراطية مرة أخرى، لتغيير الشكل القائم وتفريغ شكل آخر جديد، يخول إليه القيام بدور التبعية المنوط بالأشباه السياسية الممنوحة وحدها شرف الأداء السياسى فى ظل منظومة الديموقراطية.

وأجل التهانى لنظم العالم الثالث الأمنية التى تمكنت من إقناع العالم المتقدم نصير حقوق الإنسان، بأولوية العنصر الأمنى على كل عناصر حقوق الإنسان الأخرى، وتعساً لكل من يحمل أفكاراً حالمة بالكرامة الإنسانية والعدالة والمساواة. ■

محمـــد منـــدور.. لمحـــات

رجـــاء النـــقـــاش

■■ كلما حل شهر مايو ومعه آخر أنسام الربيع وأوائل لهيب الصيف، تذكرت الناقد العربي الكبير محمد مندور الذي مات في مثل هذا الشهر من عام ١٩٦٥ عن ثمانية وخمسين عاماً، حيث إنه من مواليد ١٩٠٧، والحقيقة أن مندور يمثل في تاريخنا الثقافي شخصية لا يمكن لمن عرفها معرفة شخصية أو عرفها عن طريق القراءة أن ينساها، أو ينسى ما كان في هذه الشخصية من سحر هادئ عجيب. فقد كان مندور رجلاً شديد الذكاء، ولكنه لم يكن يتعالى بذكائه على الآخرين، لأنه كان شديد التواضع، وكان واسع الثقافة، ولكن ذهنه كان شديد الوضوح قادراً على تبسيط أي فكرة معقدة، بحيث يستطيع أي إنسان أن يفهم هذه الفكرة مهما كانت عميقة أو صعبة.

وعندما أتذكر مندور - وكثيراً ما أتذكره - فإنني أستحضر في وجداني وذهني نموذجاً رائعاً للتسامح والبساطة وسلاسة التفكير والتعبير، في الكتابة والحديث، مع معاملة طيبة حسنة راقية مهذبة لسائر الذين كانوا يتصلون به، كباراً أو صغاراً، متفقين معه أو مختلفين.

وأذكر أنني قرأت للدكتور مندور كثيراً قبل أن ألتقي به، وأحببت، بل طربت وأحسست بالنشوة من فكرته التي نادى بها ودعا إليها وهي «الهمس» في الأدب بدلاً من الخطابة والاعتماد على الألفاظ الزاعقة الرنانة المليئة بالضجيج.

وفكرة «الهمس» هذه فكرة أساسية ونبيلة، وقد لقيت هذه الفكرة تجاوباً كبيراً من جانب الأدباء والرأي العام، وقد طرحها مندور في أوائل الأربعينيات من القرن الماضي على صفحات مجلة «الثقافة» التي كان يصدرها أحمد أمين في القاهرة عن طريق «لجنة التأليف والترجمة والنشر»، وقد ظلت مجلة «الثقافة» هذه تصدر أسبوعياً من سنة ١٩٣٨ وحتى ١٩٥٣، حيث توقفت عن الصدور مع زميلتها «الرسالة» التي سبقت «الثقافة» بخمس سنوات، حيث إنها قد صدرت سنة ١٩٣٣.

يكفي أن نقرأ هنا تعريف مندور لمعنى «الهمس» أو «الأدب المهموس» حتى نشعر أن هذه الدعوة لم تكن مجرد دعوة أدبية، بل هي - في الوقت نفسه - دعوة إنسانية صادقة قريبة جداً إلى العقل والقلب.

وكان مندور واعياً أشد الوعي بهذا المعنى حيث كان يقول إننا نريد «أدباً مهموساً أليفاً إنسانياً»، ثم يقول «إن الهمس في الشعر ليس معناه الضعف، فالشاعر القوي هو الذي يهمس فتحس صوته خارجاً من أعماق نفسه في نغمات حارة، ولكن الهمس غير الخطابة التي تغلب على شعرنا فتفسده، إذ تبعد به عن النفس، عن الصدق.

عن الدنو من القلب. الهمس ليس معناه الارتجال، فيبتغي الطبع في غير جهد ولا إحكام صناعة، وإنما هو إحساس بتأثير عناصر اللغة واستخدام تلك العناصر في تحريك النفوس وشفائها مما تجد، وهذا في الغالب لا يكون من الشاعر عن وعي بما يفعل، وإنما هو غريزته المستنيرة ما تزال به حتى يقع على ما يريد.

الهمس ليس معناه قصر الأدب أو الشعر على المشاعر الشخصية، فالأديب الإنساني يحدثك عن أي شيء يهمس به، فيثير فؤادك، ولو كان موضوع حديثه ملابسات لا تمت إليك بسبب».

هذا هو «الهمس» كما يشرحه مندور، فدعوته إلى «الهمس» هي دعوة أدبية، وهي دعوة حضارية إنسانية في الوقت نفسه.

كنت أقرأ هذا الكلام في بداية حياتي الأدبية فيسعدني ويفتح عقلي وقلبي على معان إنسانية كبيرة، وهكذا تعلقت بكتابات مندور وتابعته متابعة دقيقة، وبلغ من حبي له أنني كنت أجمع بخط يدي بعض مقالاته التي لم ينشرها في كتب، وكنت أشترك مع أخي «وحيد»، رحمه الله في نقل هذه المقالات المبعثرة، وأصبح لدينا من هذه المقالات كشكول كبير، وقد قدمت هذا «الكشكول» إلى مندور، وذلك بعد أن جئت إلى القاهرة من قريتي «منية سمنود» بمحافظة المنصورة، أو الدقهلية، لألتحق بجامعة القاهرة. وقد تعرفت على مندور بعد وصولي إلى القاهرة بعام أو أكثر قليلاً.

ثم تشاء الأقدار أن يموت مندور سنة ١٩٦٥، وكنت أيامها رئيساً لتحرير «كتاب الهلال» الشهري، فسألت زوجته الشاعرة ملك عبد العزيز عن «الكشكول» الذي يجمع مقالات مندور المبعثرة، والذي كنت قدمته إليه منذ أكثر من عشر سنوات قبل رحيله، وسلمتني زوجة مندور هذا «الكشكول» فنشرته على الفور في «كتاب الهلال» تحت عنوان «كتابات لم تنشر»، وهذا الكتاب هو من أفضل كتب مندور وأكثرها عمقاً وتنوعاً وإضاءة رائعة لما ينبغي أن يكون عليه مستقبلنا الثقافي والسياسي والاجتماعي.

وقد سعدت بنشر هذا الكتاب واعتبرت ذلك تحية مخلصة مني لهذا الناقد الرائد الكبير.

مندور يقول عن معاناته في سنواته الأخيرة: لقد تحملت كثيراً من الإهانات الماسة بكرامتي حتى أتمكن من أداء واجبي

وعندما تعرفت على مندور بصورة شخصية لأول مرة حوالي سنة ١٩٥٢، وأنا في الثامنة عشرة من عمري، وكنت طالباً في الجامعة، توثقت الصلة بينه وبيني، في حدود ما يمكن أن يقوم من صلة بين أستاذ كبير وتلميذ صغير من المحبين له والمعجبين به والعارفين بقدره وفضله، وكان مندور قد تعرض قبل ذلك بقليل لمرض خطير أدى إلى ضعف عينيه، فلم يعد قادراً على الكتابة، وأصبح يملي مقالاته ودراساته المختلفة على بعض تلاميذه، وكنت واحداً منهم، والحقيقة أنني كنت أشعر بالسعادة والزهو وأنا أقوم بهذه المهمة، لأنني كنت أشعر أنني أتعلم كثيراً وأنا أكتب ما يمليه هذا الأستاذ الكبير وأسجله على الورق، وكنت أتعلم من أسلوبه الواضح وتعبيره الدقيق وقدرته العالية على تبسيط أعقد الأمور وأكثرها صعوبة. كما كنت أسعد كثيراً بذلك المنطق القوي الذي يملأ مقالاته، ويستند إليه مندور دائماً في حججه ومناقشاته، ومن شرح وجهات نظره وتفسير آرائه المختلفة.

وكنت أرى ذلك ثمرة للزواج بين ثقافته القانونية وثقافته الأدبية، فقد نال مندور شهادتين جامعيتين هما «ليسانس الآداب» و«ليسانس الحقوق» معاً، وهذا جانب من جوانب نبوغه المبكر منذ أن كان طالباً في الجامعة في عشرينيات القرن الماضي، فقد جمع بين الدراستين ونجح فيهما بتفوق لفت الأنظار إليه.

أما المرض الذي تعرض له مندور وأضعف عينيه فلعله يكون هو نفسه المرض الذي قضى عليه في آخر الأمر سنة ١٩٦٥، وذلك بالرغم من أن بنيان مندور العضوي كان قوياً ومتيناً، فهو بنيان فلاح تتدفق في عروقه الصحة والعافية. ولكن هذا المرض الذي فاجأه سنة ١٩٥١ وكان في حوالي الرابعة والأربعين من عمره، ظل يعمل في جسده حتى أدى إلى وفاته وهو في الثامنة والخمسين.

ويحكي مندور قصة هذا المرض في حديث ممتع له مع الناقد الكبير الراحل «فؤاد دوارة»، وقد نشر «دوارة» هذا الحديث مع أحاديث أخرى في كتاب له عنوانه «عشرة أدباء يتحدثون».

وقد كان مندور عندما فاجأه المرض عضواً في مجلس النواب الوفدي، وقد

من حياة رائد كبير



خرجت جريدة «أخبار اليوم» التى كانت تعارض الوفد فى شراسة بعنوان كبير على صفحتها هو: «محمد مندور يصاب بالعمى»، وقد رفع مندور قضية ضد «أخبار اليوم» واتهمها بأنها «أضرت بسمعته وأساءت إليه فى عمله بالمحاماة»، وبعد سنوات طويلة كسب مندور هذه القضية، وأظن أن المحكمة قد حكمت له بتعويض قدره خمسة آلاف جنيه، وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت.

يقول مندور فى وصف قصة مرضه: «.. لم يكد يمضى عام ١٩٥٠ على عضويتى فى مجلس النواب، وعملى المتواصل داخله كرئيس للجنة التعليم، وعضو فى اللجنة المالية، ومقرر لميزانية وزارة المعارف، حتى فوجئت بمرض داهم تبينته من الضعف الذى أحسسته فى إحدى عينى، وبعد أن عرضت نفسى على أكبر أطباء العيون فى القاهرة نصحنى الدكتور عبد الحميد عطية بعمل أشعة على الغدة النخامية بأسفل المخ، وصورت هذه الغدة بالأشعة، فتبين أن بها ورماً طارئاً أحدث ضغطاً على عصب الإبصار فى العين اليسرى فأصابه بالضمور، وبعد مشاورات بين الأطباء قرروا سفرى إلى لندن لفتح الجمجمة وإزالة هذا الورم حتى لا أفقد بصرى كله.

وفى لندن مكثت فى المستشفى بضعة أيام للتحضير للعملية، وذات صباح وضع الطبيب حقنة فى شريان ذراعى غبت على أثرها عن الوعى، فلما أفقت سألت الممرضة عن موعد العملية، فإذا بها تخبرنى أن العملية قد أجريت بالفعل، وأنى قد مكثت غائباً عن الوعى أسبوعاً كاملاً، التأم خلاله عظم جمجمتى بل وجلد رأسى أيضاً، وتحسست رأسى فلم أجد فيه غير هذه الفجوة الصغيرة التى لا تزال موجودة إلى اليوم من أثر نشر الجمجمة، وتم نقلى بعد أسبوع إلى قسم الأشعة بمستشفى الجامعة، حيث عولجت بالأشعة العميقة شهراً كاملاً



تلك هى قصة المرض كما يرويها الدكتور مندور، وقد كان هذا المرض نفسه موضوعاً لتعليق «طبى» كتبه أديب طبيب هو الدكتور يوسف إدريس يقول فيه: «لقد كشف المرحوم الدكتور مندور عن حقيقة مرضه وعن العملية التى أجراها له الجراح الإنجليزى «هارفى جاكسون» واستأصل بها تقريباً «الغدة النخامية» الكائنة أسفل فصى المخ الأماميين حفاظاً على نظره، وهى عملية خطيرة للغاية، ولكن الأخطر منها أن استئصال الغدة النخامية يعنى أن تتوقف جميع غدد الجسم المعروفة علمياً باسم «الغدد الأندوكرينية» عن الإفراز، فالغدة النخامية هى «المايسترو» الذى على وقع عصاه فقط تعمل تلك الغدد الأخرى، وإلا توقفت، وكان معنى هذا أن أستاذنا الدكتور مندور ظل سنوات طويلة يحيا وهو يتناول خلاصات هذه الغدد جميعاً، وهى كثيرة ومتشعبة ومتعارضة، ورغم هذا فإنها لا تستطيع أن تقوم بدور الغدد الطبيعية، وهذا هو السر فى حركته البطيئة التى كنا كثيراً ما نستغرب لها ونندهش منها».

وهكذا عاش مندور حوالى خمسة عشر عاماً من حياته تحت ضغط المرض الذى كان يعانى منه والذى أضعف عينيه وأبطأ قدرته على الحركة، ومع ذلك فإنه لم يهدأ يوماً واحداً فى حياته، وحتى اللحظة الأخيرة، فقد كان واسع النشاط، يقوم بالتدريس فى المعاهد العلمية، مثل المعهد العالى للفنون المسرحية، ومعهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، وكان يكتب فى الصحف بانتظام، ويشارك فى الندوات والمؤتمرات الأدبية دون كلل أو ملل، وكان آخر مقال له قد كتبه قبل موته بأيام قليلة، ونشرته مجلة روزاليوسف بعد موته، وسمعت من بعض أهله أنه عندما اشتد عليه المرض فى أيامه الأخيرة كان يتجول فى منزله وهو ينشد بيت أبى القاسم الشابى فى قصيدته «نشيد الجبار»، حيث يقول:

سأعيش رغم الداء والأعداء
كالنسر فوق القمة الشماء

وكان البعض ممن لم يفهموا شخصية مندور على حقيقتها يسخرون من نشاط مندور الواسع ومن حرصه على المشاركة فى كل جوانب الحياة الثقافية، وظن هؤلاء الناقدون لمندور أنه إنما يسعى إلى تحقيق مكاسب مادية لنفسه. وقد كان مندور يعانى فى سنواته الأخيرة بعض العسر المادى الذى لا يتناسب مع مقام هذا المفكر ومع ما قدمه لبلاده فى مصر والعالم العربى، ولم يكن عليه من لوم أو تأنيب إذا ضاعف نشاطه، حتى بعد أن تقدم به العمر ونال منه المرض، من أجل أن يسد بعض احتياجاته المادية، فقد كان مندور يعتمد على جهده وحده، وكان يضغط على نفسه وصحته فى سبيل تحقيق هذا الهدف الشريف وهو توفير موارد مادية تحفظ عليه كرامته.

على أن مندور لم يكن يهدف من وراء نشاطه الواسع إلى مجرد توفير بعض الموارد المادية بل كان يهدف إلى إعطاء خبرته كلها لعصره وجيله، وكانت طبيعته الإنسانية المنفتحة على الحياة تأبى عليه أن يعتزل أو يغلق على نفسه الأبواب، أو يتعالى على الآخرين ويترفع عليهم بثقافته الواسعة وقدراته ومواهبه الفكرية الكبيرة، وقد عبر مندور نفسه عن بعض أهدافه وبعض ما أصابه فى عبارة مؤثرة قال فيها: «لقد تحملت كثيراً من الإهانات الماسة بكرامتى حتى لا أتخلى عن المنبر الصحفى اليومى وأظل أؤدى واجبى فى الميدان الذى كرست له حياتى».

ولا شك أن كلمات مندور هذه هى كلمات مؤلمة جداً، والحقيقة أن ضباط ثورة يوليو الوطنية وعلى رأسهم الزعيم الراحل جمال عبد الناصر لم يحسنوا أبداً معاملة مفكر فى حجم محمد مندور ولم يحسنوا تقدير قيمته الحقيقية فعاش سنواته الأخيرة يكدح ويعانى كثيراً من المتاعب التى كان ينبغى رفعها عنه وتحريره منها، خاصة أنه كان من كبار المفكرين الذين مهدوا للثورة ثم ناصروا مبادئها الأساسية بعد ذلك.

كانت الثقافة عند مندور مرتبطة بالحياة والواقع، ولم يكن أبداً يقبل فكرة الثقافة التى تعيش وراء الأبواب المغلقة، وبين أكوام الأوراق والكتب التى تحجب ضوء الشمس والهواء النقى عن العقل والنفس، وكان إيمانه بعمق الصلة بين الثقافة والحياة مصاحباً له منذ شبابه الأول، فعندما ذهب إلى بعثته فى باريس قام بتجربة مثيرة يرويها فى حديثه مع الأستاذ فؤاد دوارة فيقول: «بعد أن فرغت من دراسة اللغة اليونانية القديمة وآدابها سنة ١٩٣٦ أحسست برغبة عارمة فى زيارة بلاد اليونان للبحث عن الأماكن التى ورد ذكرها فيما قرأت من التراث اليونانى القديم، وكان لى زميل فرنسى فى الدراسة اسمه «جاك تريليه»، فاتفقنا على أن نقوم معاً برحلة إلى بلاد اليونان وجزرها المنتشرة فى بحر «إيجه»، و«صقلية»، باعتبارها جزءاً من بلاد الإغريق القديمة، وسافرنا بالفعل، رغم اعتراض مدير البعثة المصرية على سفرى، لأنه كان يظن أن الأمر مجرد نزوة سياحية، مع أن هذه الرحلة هى التى ثبتت فى ذهنى جميع ما عرفته من التراث اليونانى القديم الذى يعتبر من أضخم المعجزات البشرية.

ففى ضواحى أثينا رحت أبحث مع صديقى عن «أكاديمية» أفلاطون التى كان تلاميذه يتلقون فيها المعرفة والفلسفة على يديه، ثم «ليسيه» أرسطو ومماشيها «جمع ممشى» التى كان أرسطو يسير فيها وحوله تلاميذه ليناقش معهم أعوص مسائل الفلسفة والمنطق والأخلاق والسياسة وكافة فروع المعرفة، وبالرغم من أننى لم أعثر إلا على بعض الأحجار المتناثرة فى مكان «الأكاديمية» ومكان «الليسيه» إلا أن قراءاتى السابقة حركت خيالى، فتصورت «الأكاديمية» و«الليسيه» قائمتين ووسط كل منهما فيلسوفها الجليل، أفلاطون أو أرسطو. وعند ضاحية «كولونا» المجاورة لأثينا رحت أبحث عن الغابة التى لجأ إليها «أوديب» «فى الأسطورة اليونانية الشهيرة» بعد أن هزمه القدر ففقأ عينيه وهام على وجهه فى الأرض حتى انتهى به المسير إلى تلك الغابة.

وبالرغم من أننى لم أجد هناك إلا شجرة زيتون واحدة، فإنى أحسست كأنى أجوب خلال غابة كثيفة من أشجار الزيتون هى الغابة التى لجأ إليها أوديب. وفى بحر «إيجه» أخذنا نتنقل فى زوارق صغيرة من جزيرة إلى أخرى، وأذكر أننا عندما رسونا على



عاش مندور حوالى خمسة عشر عاماً من حياته تحت ضغط المرض الذى كان يعانى منه والذى أضعف عينيه وأبطأ قدرته على الحركة، ومع ذلك فإنه لم يهدأ يوماً واحداً فى حياته، وحتى اللحظة الأخيرة



شاطئ جزيرة «تيلوس» البالغة الصغر، لم نجد أحداً فوق أرضها غير حارس الآثار، وأرض الجزيرة كلها مغطاة ببقايا المعابد القديمة، وفى وحدة هذه الجزيرة، وبين أنقاضها، تشربنا الروح اليونانية كلها، وهى روح تمتاز بالصفاء وهدوء القلب وحرارة الفكر وانفعاله، لأن اليونانى القديم كان يحس بعقله ويدرك بقلبه، ففى عقله حرارة العاطفة وفى قلبه ضوء العقل».

ثم يتحدث مندور عما جرى له بعد هذه الرحلة اليونانية فيقول:

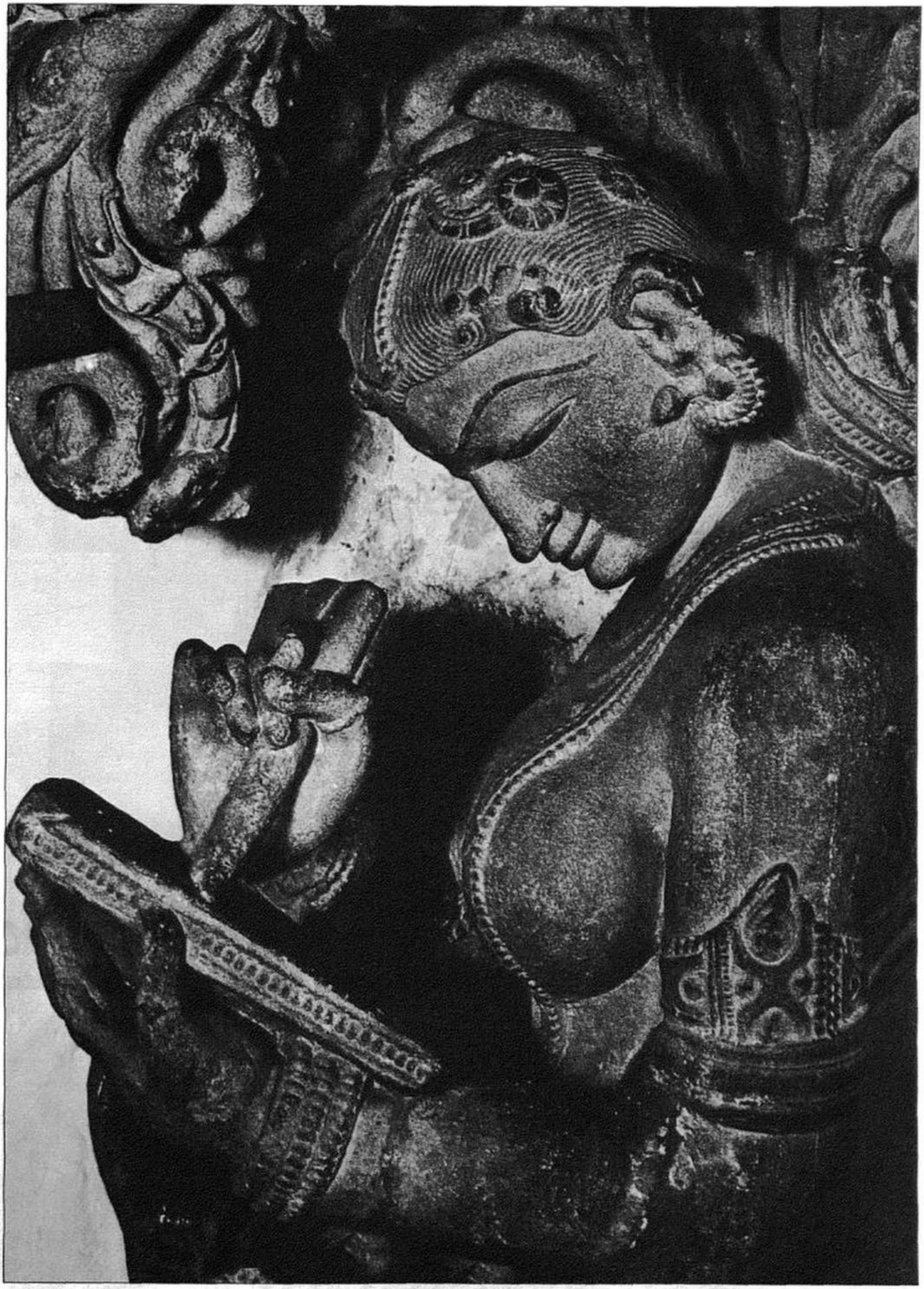
«عدت من هذه الرحلة التى تفوق أهميتها قراءة ألف كتاب، لأفاجأ بمدير البعثة المصرية وقد أوقف مرتبى لأننى خالفت رأيه وسافرت إلى اليونان بدون موافقته، وعلمت أيضاً أنه كتب إلى الجامعة يطلب فصلى من البعثة، ولحسن الحظ كنت قد وفقت إلى ما لفت نحوى نظر الحكومة القائمة وقتذاك ولفت نظر مدير الجامعة أحمد لطفى السيد، فقد كتبت عدة مقالات نشرتها فى الصحف الفرنسية أنبه فيها الفرنسيين إلى أن معارضة حكومتهم لإلغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر سيجعلهم يخسرون وضعهم وحب أهل مصر لهم، وقد رد على مقالاتى وكيل وزارة الخارجية الفرنسية، وكان يرأس الوفد الفرنسى فى مؤتمر مدينة «مونترو» فى سويسرا، وقمت بالتعقيب على ما كتبه وكيل الوزارة الفرنسية، واستمر الأمر بيننا سجالاً حتى ثاب الفرنسيون إلى رشدهم وسلموا بما لم يكن منه بد، وهو الموافقة على إلغاء الامتيازات الأجنبية المفروضة على مصر، وقد تم ذلك بالفعل فى معاهدة «مونترو» الدولية فى ١٥ فبراير ١٩٣٧، حيث تقرر إلغاء هذه الامتيازات من جميع النواحى التشريعية والمالية والقضائية مع إلغاء المحاكم المختلطة.

وبالطبع تابعت السفارة المصرية هذه المساجلة المهمة بين وكيل وزارة الخارجية الفرنسية وبينى، وقامت السفارة بإبلاغ ذلك إلى وزارة الخارجية فى القاهرة.

وحدث أن مر الوفد المصرى للمفاوضات بباريس عائداً من لندن بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦، وكان يضم رئيس الوزراء آنذاك مصطفى النحاس كما كان يضم مكرم عبيد وزير المالية وعلى الشمسى، فذهبت إلى الفندق الذى نزلوا به، وقابلت على الشمسى وشرحت له المأزق المالى الذى وجدت نفسى فيه دون مرتب، فدهش الرجل، وقادنى إلى مكرم عبيد وأخبره بما حدث، وأبدى استهجانه لتصرف مدير البعثة، فما كان من مكرم عبيد إلى أن أخرج ورقة بيضاء من جيبه وكتب عليها أمراً بصرف مرتبى فوراً، وبذلك انحلت الأزمة بصفة مؤقتة، وإن كنت مع ذلك مازلت مهدداً بالفصل من البعثة فيما لو استجاب مدير الجامعة لطلب مدير البعثة، ولكننى لحسن الحظ كنت قد نجحت فى كسب ثقة مدير الجامعة، لأن الدكتور طه حسين حين جاء إلى باريس فى الإجازة الصيفية التى تلت أول سنة لى فى فرنسا، وكنت قد نجحت فيما يشبه المعجزة فى ليسانس الأدب الفرنسى التحريرى بعد عام واحد، طلب منى أن أحقق أمنية قديمة لمدير الجامعة أحمد لطفى السيد، وهى أن يترجم أحد المصريين الذين درسوا الأدب الفرنسى وأتقنوا لغته قصيدة عويصة للشاعر «ألفريد دى فينى» «١٧٩٧ ـ ١٨٦٣»، وهى قصيدة «بيت الراعى»، التى تجمع بين عمق التفكير الفلسفى وشطحات الروح الرومانسية المجنحة، فترجمتها، وأهديت الترجمة إلى أحمد لطفى السيد، فأعجب بها وأرسلها إلى مجلة «الرسالة»، فنشرتها فى أعدادها الثلاثة الأولى «١٥ يناير- أول فبراير- ١٥ فبراير ١٩٣٣»، ومن المؤكد أن هذه الحادثة الصغيرة كان لها أثرها فى عدم استجابة مدير الجامعة لطلب مدير البعثة بفصلى منها، فبقيت فى البعثة وواصلت دراساتى».

هذه بعض الصفحات واللمحات من حياة رائد كبير هو محمد مندور، واسمه الكامل محمد عبد الحميد مندور، وقد عاد مندور من باريس سنة ١٩٣٩ بعد أن قضى فى بعثته حوالى تسع سنوات، وعندما عاد واجهته متاعب كثيرة كان أهمها أنه وجد أستاذه طه حسين غاضباً منه أشد الغضب ورافضاً أن يسمح له بأن يصبح مدرساً فى كلية الآداب، وتلك قصة تستحق أن نقف أمامها فى حديث آخر. ■


متواجد في مراك



معماريون.. ونحاتون.. وكهنة

فنون هندية

ثـــروت عكاشـــه

■■ نبعت العمارة الهندية شأنها شأن النحت الهندى من صميم المعتقدات الدينية الهندية وإن وفدت عليها تأثيرات أجنبية على مر التاريخ. وبينما لم تلجأ العقيدة الفيدية فى طقوسها وشعائرها إلى تشييد المعابد أو نحت التماثيل، كانت لغيرها من العقائد المبكرة صوامعها ومعابدها المشيدة من الخشب ومصوراتها ومنحوتاتها. ولم تسجل الوثائق التاريخية أية إشارة إلى التماثيل والمصورات والمعابد إلا اعتباراً من القرن الرابع ق. م، كما لم يتوصل الأركيولوچيون إلى الكشف عن نماذج للنحت والتصوير تعود إلى ما قبل القرن الأول الميلادى إلا فيما ندر.

وبينما تقوم العبادة الفيدية على طقوس قربانية حيث يستقبل الهيكل (المذبح) قرابين الزهور، تقوم العبادة الهندوكية أساساً على تقديم المتعبد أضحيته من مأكل وبخور. واعتاد القوم بناء الهيكل تحت شجرة مقدسة أطلقوا عليه اسم «كَأْيِتْيه»، وهو الموقع الأهم ويأتى بعده بيت الإله «دفَالَيه»، الذى عادة ما يكون صومعة (مصلى) بسيطة مسقوفة تضم هيكلا صغيراً ورمزاً للمعبود أو تمثاله.

الســـتُـــويَــــه

ولا يسعنا قبل البدء فى تناول السمات الجوهرية للإنشاءات الهندية الطموحة وفق توقيتها الزمنى إلا التريث أمام مبنى «الستوبه» التى ربما تفوق تماثيل بوذا نفسه فى التعبير عن العقيدة البوذية. والستوبة رمز ومبنى جنائزى فى الوقت نفسه، مستقى من فكرة الجثوة أو رجمة التراب فوق قبور العظماء. ولم تكن هذه العادة مقصورة بطبيعة الحال على الهند وحدها، فمواراة رفات الموتى بكومة من الحجارة أو التراب هو تصرف إنسانى تلقائى إكباراً للموتى وإجلالاً لهم.

وكانت الستوبة الهندية البدائية مجرد جثوة فوق مثوى قد يرتفع وسطها عمود أسطوانى. ولم تشتمل أقدم نماذج الستوبة على أية زخارف أو معالم تزينها وما إن تطورت من مجرد موقع دفن متواضع إلى أكمة رامزة حتى بات من الضرورى أن تحتفظ فى جوفها بأثر باقٍ أو رفات قديس أو ما شابه ذلك داخل غرفة مصمتة تتوسط المبنى، بحيث لا تكون ثمة صلة بين داخل الستوبة وخارجها. ومع مرور الأيام أضيفت عناصر ضرورية إلى الستوبة الكلاسيكية مثل «الهارميكه»، وهى شرفة صغيرة فوق قمة الستوبة، وطبقات الأقراص متفاوتة الأحجام المصطفة بعضها فوق بعض فى شكل مخروطى «تشاتره»، وكأنها مجموعة من المظلات تحيط بالصارى المركزى البارز من منتصف الشرفة. ويطوق الستوبة من الخارج سياج «فيديكه»، يتخلله مدخل مزخرف مهيب «تورنه»، أو عدة مداخل.

وتُخصص المساحة الواقعة بين الستوبة والسياج لطواف الحجاج حول المقام، ومن هنا أطلق عليها اسم «مجاز (أو ممر) الطواف»، وشيئا فشيئا أضيفت عناصر أخرى إلى الستوبة بقى منها ما بقى وزال ما زال.

وعلى مدى تاريخها الممتد لم يظفر السطح الخارجى للستوبة بأية زخارف فنية باستثناء الأسوجة التى تطوقها والمداخل (البوابات) المؤدية إليها، وقد ظهرت أولى المنحوتات التشكيلية الهندية فوق أسوجة شرفات ستوبة بهارُت الواقعة شمالى إقليم مادهيا پراديش، وتتخذ هذه الستوبة شكلا نصف كروى سوف يتكرر فى ستوبة سانشى وغيرها بإقليم قندهار. وقد أرجع العلماء تشييد سياج ستوبة بهارت إلى عهد أسرة سونجه، وإن كان مبنى الستوبة نفسه قد شُيد أول ما شُيد فى عهد أسرة موريه.

الكـــايـــتـِيَـــه

وتأتى قاعة الـ «كايتيه» بعد الستوبة فى قائمة العمارة الهندية الدينية. وجرت العادة بأن يُطلق اسم «الكايتيه» على أى براح مسوَّج، أو مقام مقدس أو أى مزار يقصده الحجاج البوذيون. وقد لا تتجاوز مساحة الكايتيه بقعة من الأرض تحيط بموقع ذى طبيعة مقدسة قد يكون شجرة أو صخرة أو حتى كوخا خشبيا متواضعا.

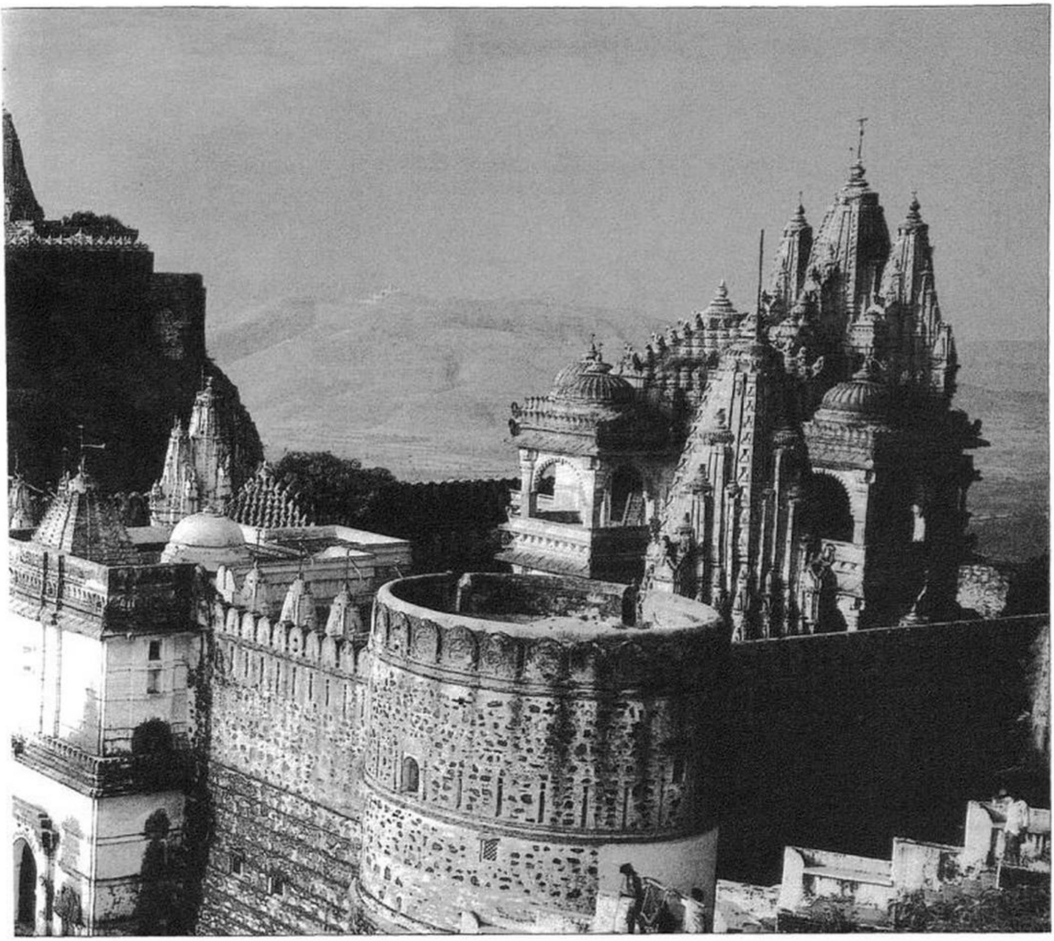
وما إن غدت الستوبة مركز جذب للحجيج حتى أصبح لا مناص أمام الكهنة والرهبان ورجال الدين القائمين على الستوبة أو المترددين عليها من التعجيل ببناء أماكن للعبادة فى المنطقة المحيطة بالستوبة أطلق عليها اسم «الكايتيه»، وإذا هى تتحول آخر الأمر إلى صومعة أو مصلى للعقيدة البوذية.

العمـارة الهنـديـة

وقد بدأ تشييد العمارة الهندية المبكرة بالخشب، ثم ما لبث البناءون منذ عهد أشوكه أن حاكوا هذا النموذج المبكر مع استخدام قوالب الطوب والحجر، وتشكلت الأنماط المختلفة للأسقف كروية الشكل، والقبوات الأسطوانية، والشبابيك الجمالونية، والأعمدة الملتصقة بالجدران والطنف على غرار «النماذج الأصلية» الخشبية. وكان طبيعيا. لا سيما فى المراحل المبكرة. أن يكون جانب من العمارة الهندية محفوراً فى الصخر، بمعنى أن تُحفر الصومعة فى جوف الكتلة الصخرية أو بإزالة سطحها الخارجى لتغدو معبدا قائما بذاته. ولا تزال نماذج من هذه المعابد قائمة إلى اليوم. ويمكن مشاهدة نماذج النوع الأول. أعنى المعابد الكهفية. فى المعابد البوذية المبكرة بأجانتَه وبهاج وناسك وكارلى، وفى المعابد الهندوكية بكهوف جزيرة إليفانتَه الواقعة أمام مدينة بومباى. أما نماذج النوع الثانى فنجدها فى ماملِّبورم جنوب مدينة مدراس وكذا فى إللوره حيث تبارى البوذيون والچيينيون والهندوكيون فى حفر المعابد الكبرى فى جوف الجبال الصخرية. ولعل أروع هذه المعابد هو المعبد الهندوكى فى كايلاشه (اسم فردوس الإله شيفه بجبال الهمالايا) حيث غاص البناءون حوالى ثلاثين متراً داخل الصخر لتشكيل المعبد، ثم التفتوا إلى الجدران ليحولوها إلى أعمدة سامقة وتماثيل أسرة ومنحوتات بارزة، كما زودوا ثلاثة من جوانب المعبد المحفور بالخلوات والمصليات. ومن المعروف أن العقد لم يستخدم قط كعنصر معمارى فى مجال العمارة الهندية قبل دخول المغول إلى الهند، وإن استُخدمت التَّقبية. وهى نوع من التسقيف بعقود

فتاة تخط رسالة
غرام
«خاجوراو»
أسرة تشاندله
القرن ١١

صفحات من كتاب للمؤلف يصدر قريبا عن دار الشروق بعنوان «الفن الهندى»



منظر عام لمجموعات المعابد فوق قمتى جبل ساترو ونجايه بإقليم جوجرات الغربى

فنون هندية

حجرية متراصة بين حائطين متوازيين. فى العمارة المحفورة فى الكتل الصخرية.

وهناك أنماط معمارية خاصة استخدمتها العقيدتان البوذية ، والجيينية أشهرها «الستوبة» وهى كما سبق القول تطوير لربى الدفن الهندية القديمة. ما لبثت أن اكتست بالحجر تحيط بها الأسوجة المزودة بالمنحوتات الزخرفية. وأهم عناصر الستوبة هى القبة، وغرفة صغيرة على مستوى الأرض فى منتصف الستوبة لحفظ الذخائر المقدسة يُحرم دخولها بعد الفراغ من تشييدها.

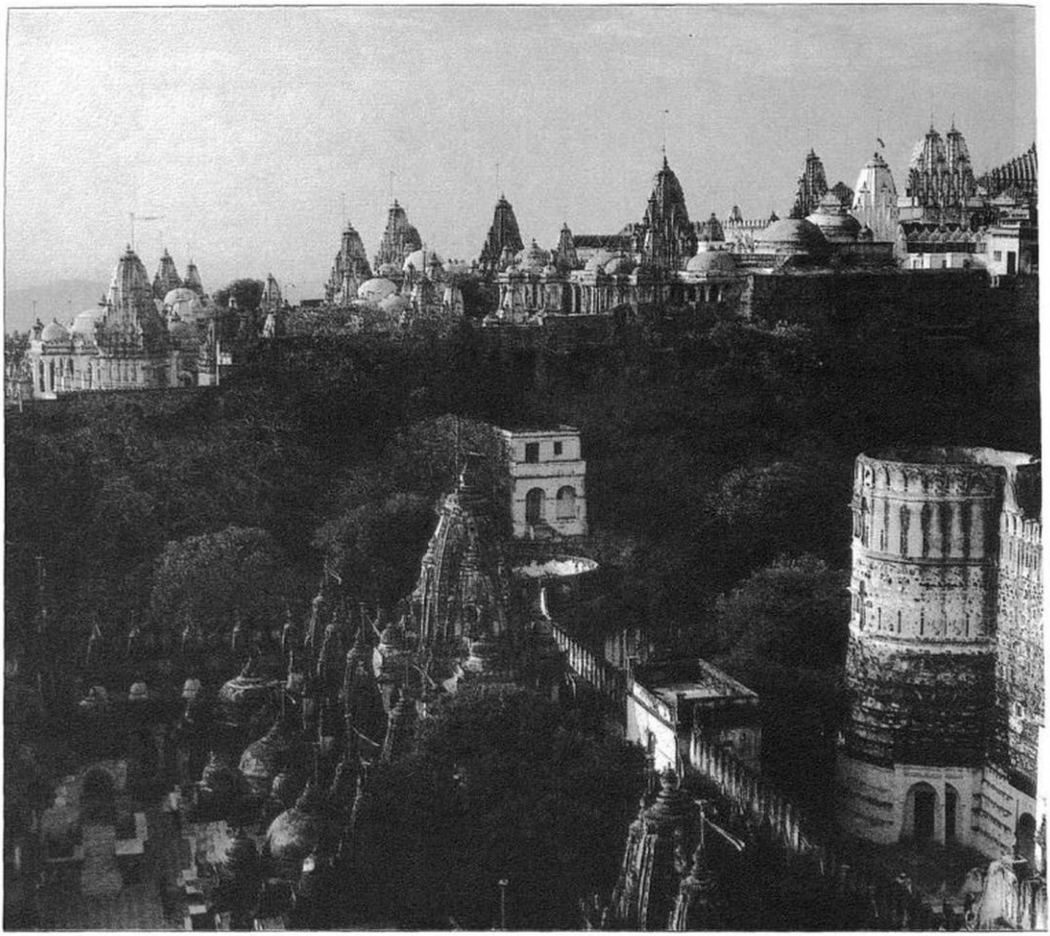
وطابق أو طابقان ترتكز عليهما القبة. كما تزود الستوبة أحيانا بدرج أو أكثر يؤدى إلى مجاز طواف الحجاج، وشرفة صغيرة فوق القمة ينهض من مركزها عمود يحمل مظلة رمزية أو أكثر، وقد يحيط بالقبة سياج. وتعد الستوبة فى العقيدتين البوذية والجيينية رمزا معبداً عن موت بوذا المعلم الأكبر أو عن موت ماهافيره مؤسس العقيدة الجيينية.

ونشأت قبة الستوبة فى المراحل المبكرة نصف كروية، ثم ما لبثت أن نالها التطوير لتأخذ أشكالا مستدقة بلغت قمة الجمال، لا سيما فى بورما حيث زادت الستوبة ارتفاعا واتساعا وزخرفة.

كذلك ابتكر المعماريون البوذيون فى الهند «معبد الشجرة المقدس» «كايتيه» غير المسقوف على نحو ما أسلفت، والذى يشتمل على قاعة مربعة أو دائرية محاطة بالأعمدة الجدارية الملتصقة، وشرفة داخلية يعلوها قبو أسطوانى مفتوح عند منتصفه يحيط بشجرة مقدسة هى شجر «بو» (أو تين المعابد أو الأثاب) التى جلس إليها بوذا وتعد رمز استنارته. ويذهب المتخصصون إلى أن هذا الطراز من الستوبة هو طراز جد قديم احتل مكانه إلى جوار عقيدة عبادة الياكشى وجنيات الشجر والمياه الغابرة.

وقبل ذلك بوقت طويل كان ثمة نشاط معمارى من نوع آخر يشق طريقه وئيداً. كما قدمت. عندما بدأ الكهنة يتخذون «الكهوف» - طبيعية كانت أو محفورة بأيديهم - أماكن للعبادة. وتطور الأمر فإذا الكهنة يقدمون على محاكاة المبانى الدينية المستقلة بذاتها مثل الستوبة والكايتيه فى جوف الكهوف مستخدمين الحجر الطبيعى والخشب.

وبمرور الزمن تحولت بعض قاعات «الكايتيه» داخل الكهوف إلى منشآت صرحية تضم العديد من عناصر المعبد مثل الصحن والمجاز المستعرض والأعمدة المستقلة القائمة بذاتها. وتزامن ذلك مع نشأة «الفيهاره» الهندية التى كانت فى الأصل مجرد «قلاية» متواضعة لراهب أو صومعة لناسك أو أحياناً مقراً للمعبود، وعادة ما تكون فجوة طبيعية فى سفح الجبل، إلى أن اتّجه الكهنة إلى حفر كهوفهم الصغيرة فى جوف الصخر. وانتهى بهم الأمر إلى تشييد الأديرة والقلالى (جمع قلاّية) المطلة على صحن متسع فى بطن الجبل يجمع شمل المجتمعات الرهبانية الغفيرة. وقد زودت معظم مداخل المبانى الهندية المبكرة بـ «حشوة عقد» تشغلها



منحوتات أو زخارف، ويعلوها عقد مدبب أو جمالونى مسنم.

والأعمدة الهندية نوعان وفقًا لاستخداماتها، فهى إما مفردة مستقلة يحمل كل منها رمز إله المعبد المنتصبة فيه مندمجة فى التصميم الإنشائى ذاته، أو قد تتشكل فى الطرز والأنماط المنتشرة التى تتميز من بينها الأعمدة مثمنة الأضلاع، وجميع هذه الأعمدة منحوت فى الصخر.

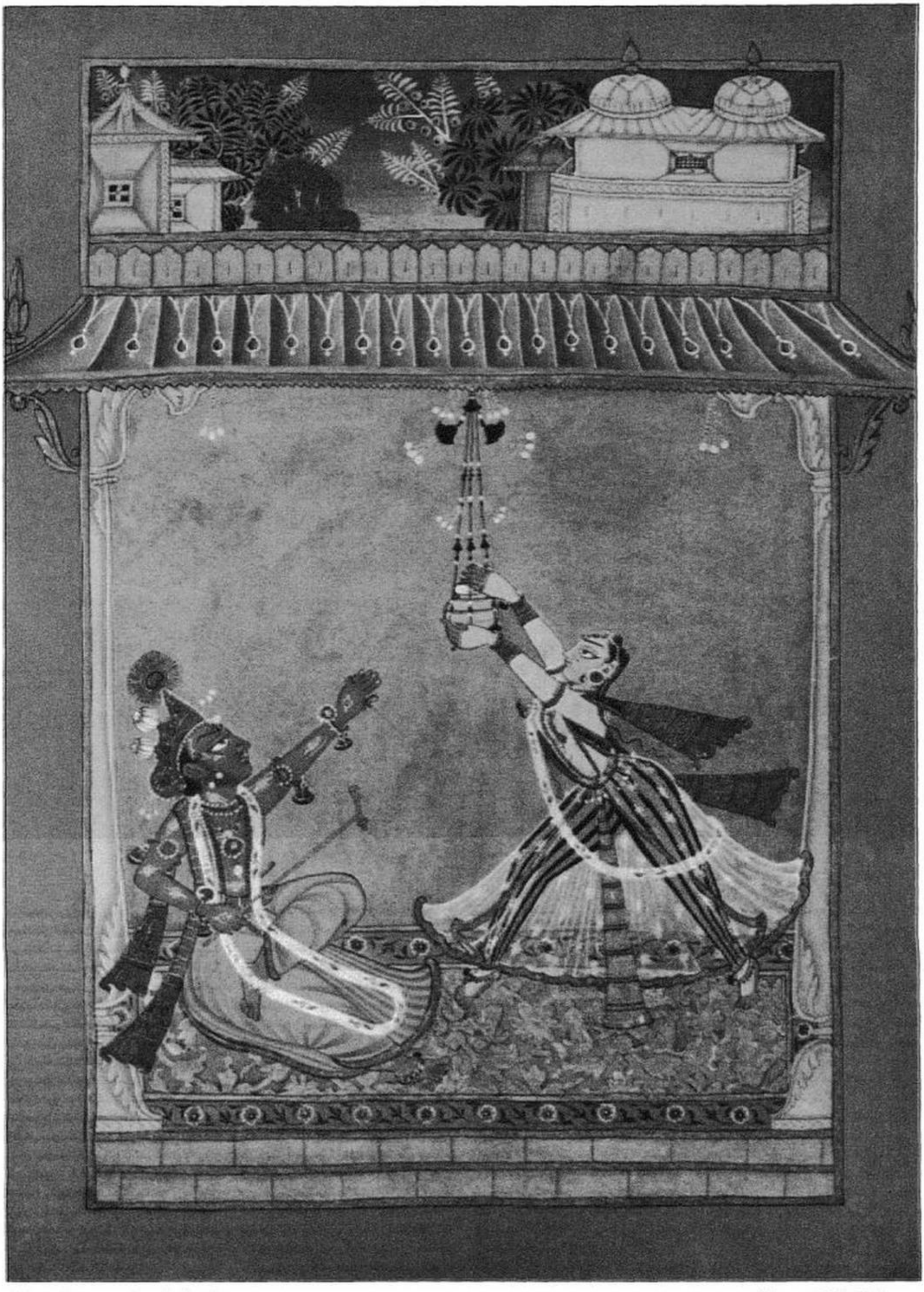
وتختلف تيجان هذه الأعمدة بعضها عن بعض، فبينما تشكلت تيجان الأعمدة منذ العصور المبكرة من عناصر ثلاثة: العنصر الأدنى على هيئة زهرة لوتس مقلوبة فى شكل ناقوس، يعلوها أربعة أسود متظاهرة أو ثيران، ومن فوقها وسادة ذات شكل شبه متحرف تزين أركانها لفافات حلزونية على غرار اللفافات الأشورية لا الإغريقية، تشكلت تيجان العصور الوسطى فى شمال الهند على هيئة وسادة مضلعة، أو على شكل زهرية مترعة بالنباتات المتطامنة التى تشكل رقشًا أو توريقا متشابكا اصطلح الأوربيون على تسميته فن «الأرابيسك».

وتدل النقوش البارزة الموجودة فى بهارت وماتوره وأمارفتى، وكذا أساسات بقايا المبانى والمعابد والأديرة، على تقدم فن «النحت والعمارة المركب، حجماً وروعة وجلالا فى عهود أسرات سونجه والكوشان وأندره (١٨٥ ق.م إلى ٣٢٠م).

أما أجمل لوحات النقوش البارزة خلال هذه المرحلة المبكرة فهى تلك الموجودة بالقصر الملكى فى بهارت وصومعة جاجايابيته ومعابد الأشجار المقدسة «كايتيه». كما تتألق بين مصاطب الستوبه فى ذلك العهد تلك الموجودة فى بهارت وأمارفتى وسانشى، فضلا عن بقايا وأطلال مصاطب الستوبه المزودة بالمنحوتات الزخرفية الثرية ذات الطراز البوذى المتأغرق بما فى ذلك أسوجتها ومداخلها. وثمة مبنى مشهور ما فتئ الحجّاج الصينيون يشيدون به إعجابا هو ستوبه «كانيشكه»، أبرز ملوك أسرة كوشان بالقرب من مدينة بيشاور، حيث تتشكل من خمسة طوابق تعلو إلى خمسة وأربعين مترا، على حين ارتفعت علوة المبنى الخشبية مائة وعشرين مترا، كما يرتفع سارى الستوبه الحديدى الذى يحمل ٢٥ مظلة من البرونز فوق المبنى ستة وعشرين مترا!!

وفى عهد أسرة جويته (٣٢٠ . ٦٠٠م) علا شأن عمارة المبانى والصوامع البوذية والهندوكية سواء كانت مشيدة بالحجر أو بقوالب الطوب. وأشهر نماذج هذه المعابد هى تلك المكونة من «خلوة» (قدس أقداس) مربعة هى مركز هيكل المعبد كله ومأوى الإله أو تمثاله الرامز إليه، تحيط بها جدران خالية من أية زخارف، ويعلوها سقف مسطح، ويتصدرها «مدخل» مسقوف، مثلما هو الحال فى سانشى، حيث تتجلى فى معبدها الصغير سلامة النسب والاستخدام الحاذق للزخارف فى بواكير عهد أسرة جويته، وتقع أهم هذه المعابد فى إللوره وبهاج وأجانته. وكما تعد كهوف أجانته متحفا خالدا لأعظم التصاوير البوذية شأنا، تعد كذلك نموذجاً فذاً لذلك الفن الهندى المبتكر والمركب من فنى النحت والعمارة، حيث تنهض سقوفها المزخرفة بالرسوم والمنحوتات الرائعة فوق أعمدة أعلاها مستدير وأدناها مربع، وتغمر سيقانها أخاديد طويلة محفورة.

وخلال عهد أسرة جويته شيدت أيضا جامعة نالانده الرهبانية البوذية التى استمدت اسمها من نالانده أحد ملوك المنطقة الواقعة جنوبى شرق إقليم پاتنه، وكان فى حياته السابقة «بوديثاتفه»، وهب حياته لفعل الخير. ويعزى رخاء هذه الجامعة الدينية إلى سخاء هارشافاردانه أحد ملوك أسرة جويته الذى كرس جهوده لخدمة رهبان هذا الدير. ومن الإنصاف الإشارة أيضا إلى جهود أسرة پالا البوذية فى العناية بجامعة نالانده، فضلا عن تشييدها لبرج سيريور





«رادهه» تناول كريشنه مخيض اللبن البارد بناء على طلبه
مدرسة باشوهلي ١٦٩٠

الذى يعتبر أبدع نماذج المبانى المشيدة بالطوب فى كافة أنحاء الهند.

وقبل الاسترسال فى وصف عمارة المراحل المتعاقبة وطرزها ومنحوتاتها ينبغى الإشارة إلى أن الهند قد ابتكرت خلال عهد أسرة جويته أو ربما قبله قواعد وتعاليم تقنية على جانب كبير من الدقة والكمال فى مجال العمارة يضمها سفر «شلپا شاستره» المرجعى الخالد. وما زالت هذه التعاليم مستخدمة لا فى الهند وحدها بل وفى جاوه وكمبوديا وغيرهما.

وأقدم ما حفظه الزمن من العمارة الهندية هى أطلال مدن موهنجودارو وهاراپه التى تعود إلى ما قبل حقبة موريه فى منتصف الألفية الثالثة ق.م، حيث شيدت المبانى من الطين المحروق والجص والملاط، وشملت معابد ذوات أسقف مغطاة بعقود حجرية متراصة، ومنازل وحوانيت مزودة بأجهزة الصرف الصحى. وأقدم الصوامع المحفورة فى الصخر هى تلك الموجودة فى تلال بارابار، وهى مبان مصقولة بعناية منذ عهد الإمبراطور أشوكه. أما أطلال عاصمة أشوكه فى پاتالى پوتره (پاتنه الحالية) فذات طابع خاص مميز إذ تشى بالتأثيرات الفارسية المعاصرة لها. وقد كشفت الحفائر الحديثة عن أجزاء من سور المدينة الخشبى الضخم، وعن أرضيات خشبية يتجاوز طولها مائة وستة أمتار، وعن عدد من المصاطب الخشبية كانت معدة كى يشيد فوقها مبنى ضخم، وعن بقايا قاعة معمدة تشتمل على ثمانين عمودا حجريا مصقولا، وعن تاج عمود ضخم، وعن أحجار تشكل جزءا من عقد. ويعتقد الأركيولوجيون أن تصميم هذا القصر هو صورة طبق الأصل من القصور الفارسية «الأخمينية» فى پرسيپوليس وإكتبانا وسوسه.

وكان للعمارة الهندية أثر بعيد على فن العمارة فى ماليزيا وإندونسيا وبورما وتايلاند وغيرها من دول الشرق الأسيوى، لاسيما خلال المراحل المبكرة قبيل حضارة الـ «خمير»، فأخذت الكثير عن طراز عهد أسرة جويته وعهد أسرة پالاڤه.

وقد يكون من الأنسب تناول العمارة الهندية بعد حقبة جويته من خلال متابعة طرز ثلاثة هى: طراز «ناجاره» الشمالى أو الطراز الهندو-آرى، والطراز «الدراڤيدى» فى جنوب الهند، مرورا بطراز «ڤيساره» وهى العمارة المدنية الراجپوتية.

ويلفتنا فى طراز ناجاره اختفاء تاج العمود ذى الحيوانات المتظاهرة بعد انتهاء حقبة جويته لتحل محله وسادة مربعة أو زهرية مترعة بالنباتات وزهور اللوتس المتدلية من حافتها على الأركان الأربعة، كما تسترعينا التيجان الكروية للأعمدة فى صوامع الإله شيڤه بمعبد جزيرة إليفانته ونلحظ فى مدينة بادامى مدى ذوبان طراز ناجاره الشمالى فى الطراز الدراڤيدى الجنوبى، كما تشهد أبدع العمائر المعبرة عن هذا التزاوج المثمر الدال على ما بلغته العقائد الهندوكية من مكانة سامقة تراجعت معها البوذية لتحتل مكانة ثانوية، مثال ذلك مجموعة معابد بوڤانشواره بأوريسه فى شرقى الهند ومن أقدم هذه المعابد معبد شيخاره موكتسواره (القرن العاشر) الذى يتميز بعقد مدخله الأنيق المعزول عن مبنى المعبد، وبسقيفة المدخل ذات السطح الهرمى، وبالحرم المقدس يعلوه البرج المستدق، وكذا معبد لنجاراجه.

وقد شيد الجيينيون والهندوكيون فى خاجوراو قرابة خمسة وثمانين معبدا متقاربة بعضها من بعض، مما يشى بمدى التسامح الدينى الذى كان سائدا وقتذاك، مثل معبد دولاديو الجيينى بخاجوراو ومعبد راناكپور الجيينى.

ونستطيع متابعة تطور فن العمارة الهندية من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر فى أوريسه مروراً بمعبد سوريه إله الشمس فى كوناراك ومعبد چاجاناته فى پورى الذى شيده الملك أنانته ڤارماكو داچانجه ديڤه أشهر ملوك أسرة جانجه الشرقية ويعد أعظم إنجازاته.

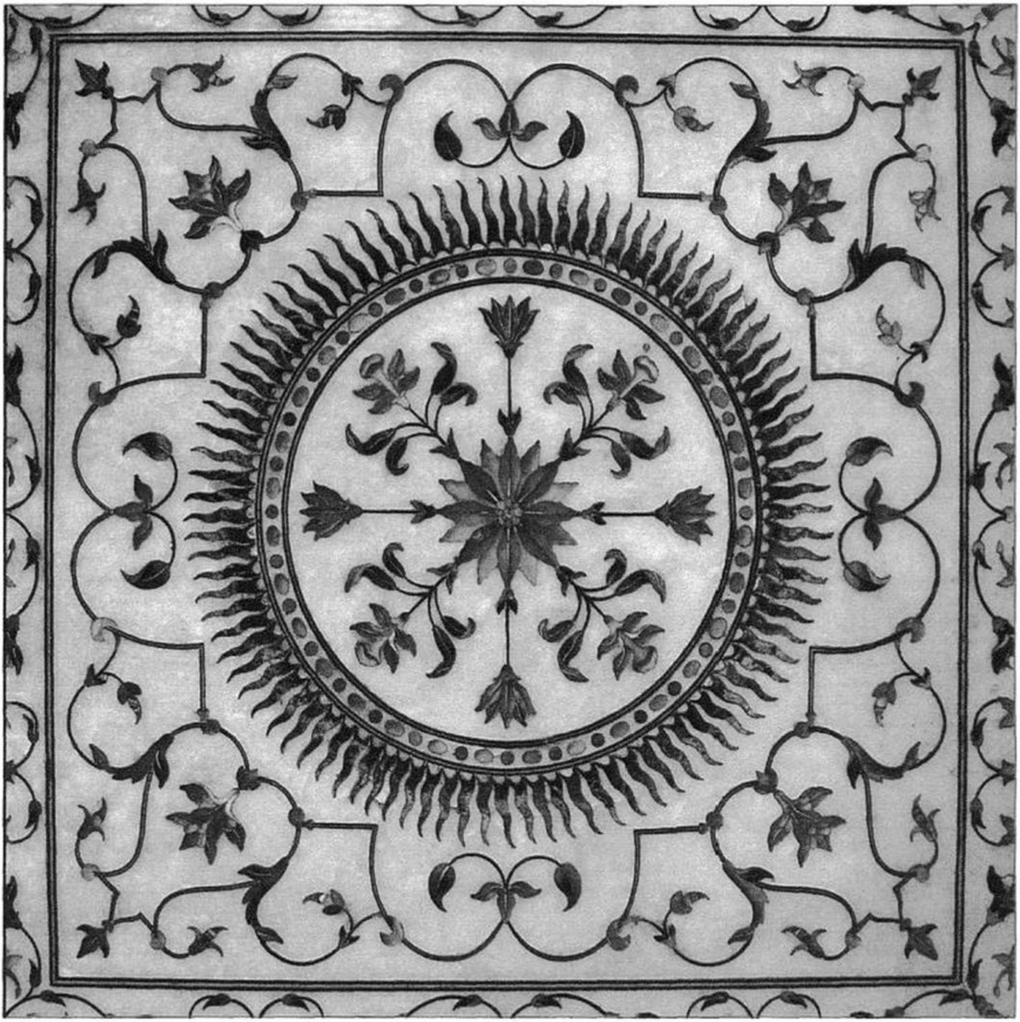
وفى عام ٩٧٣ ظهر طراز معمارى جديد فى إقليم الدكن ما لبث ازدهر خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر هو طراز «ڤيساره» بمنطقة جوجرات، تميز بملامح خاصة تنحصر فى الارتفاع الخفيض للمبانى، والاتساع، والتخطيط النجمى «للخلوة»، وتجميع ثلاث صوامع (مصليات) حول القاعة المركزية، والأبراج الهرمية المنخفضة، والنوافذ المزينة بالخروم الدقيقة المتقنة، وبصفة عامة المبالغة فى الزخارف. ويلفت نظر زائر هذه المنطقة ما طرأ من تطور على عمارة المعبد البوذى المستدير نحو عمارة الأبراج التى شاعت خلال العصور الوسطى الهندية، فإذا قاعة الاجتماعات المعمدة تنتقل إلى خارج المبنى لتشكل مدخلا يستند سقفه إلى الأعمدة، على حين يرتفع تسقيف المبنى على شكل برج مستدق أو مخروطى تكسو سطحه شبكة من المعالجة النحتية سواء كانت زخرفية أو تشخيصية، ويتضاءل حجمه كلما ارتفع طابقا فوق طابق. وكانت هذه الظاهرة المعمارية الجديدة، وهى تشييد «أبراج المجد» (كيرتيس تامبه) قد شاعت على يد المعمارى سدراج، وأعظم هذه الأبراج شأنا هى تلك المشيدة فى حصن تشيتور (١٤٤٠-١٤٤٨) تخليدا لذكرى إنشاء معبد كومبهاس سوامى. وتفوق هذه الأبراج شهرة المعابد الجيينية بجبل آبو فى راجپوتانه (١٠٣٢ و١٢٨٢) التى تتكون أبراجها من صوامع مقببة تعلو قاعات معمدة مشيدة جميعا من الرخام الأبيض، وأهم ملامحها السقوف المقببة ذات الرخام المشغول بالحفر المفرغ العميق التي أطلق عليها اسم «الدنتيللا أو المخرمات المجمدة»، كما تتدلى من مركز السقف المقبب دلاية (مدلاة).

وعلى هذا النهج كانت الحال فى مجموعة المعابد الجيينية التي تتوج قمتي جبل «ساترونچايه» بإقليم جوجرات التي تعد أحد أقدس المواقع التي يتردد عليها الحجاج بالهند. ويحمل الكثير من معابد هذا الموقع أسماء التجار المياسير الذين شيدوها، وتتجمع كل مجموعة من هذه المعابد فى إطار ساحة مسيجة محصنة. ولما كانت العقيدة الجيينية عقيدة حب وتراحم تحرم القضاء على أى كائن حي. كما سبق القول. فقد رأينا المؤمنين بها عندما يجوزون الطرق يقشونها ليزيلوا ما على الأرض أمام خطاهم فلا يدوسون كائنا حيا يموت ظلما حشرة كانت أو سواها. وعلى من يصعد هذا الجبل أن يطأ متدرجا ثلاثة آلاف وخمسمائة درجة، أما كبار السن والمرضى فيحملون على محفات. فإذا ما حل الغروب خلف الجميع مدينة المعابد، بما فى ذلك الكهنة الذين يعودون إليها فى فجر اليوم التالى.

ومن أشهر المواقع المعمارية أيضا مدن المعابد الجيينية فى جيرنار وساترونڤايه ودلواره براجستان بين القرن الثالث عشر والتاسع عشر. وجرت العادة بألا تستخدم مدن المعابد تلك المشيدة فوق قمم الجبال للسكنى قط وإنما كمزارات للحجاج فحسب.

والثابت أن أزهى عصور عمارة الجنوب الدراڤيدي هي حقبة القرنين السادس عشر والسابع عشر، لا سيما بعد أن نجح الإمبراطور أكبر المغولي فى التوفيق بين الهندوس والمسلمين حتى غدا جنوب الهند غاصا بأجمل المعابد الدراڤيدية.

وفي جنوب الهند قضى ماهندره ڤارمان الأول ملك پالاڤه (٦٠٠-٦٢٥) بالاقتصار عند تشييد المعابد على استخدام قوالب الطوب والأخشاب المقواة بالجص والمعادن، فليس ثمة وجود لمعابد محفورة فى الصخر أو مشيدة بالحجر إلا تلك التي تعود إلى القرن السابع، ومن



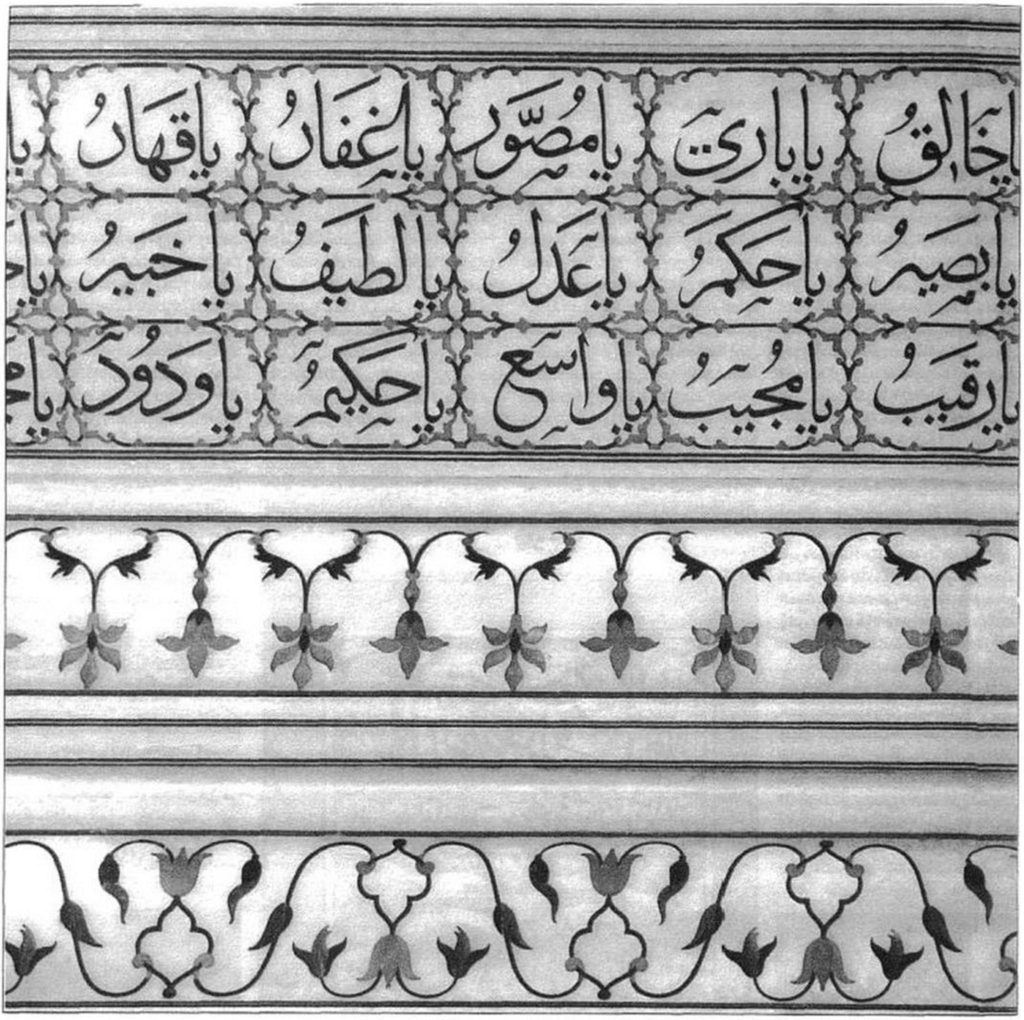
زخارف نباتية من الأحجار شبه الكريمة مرصعة فى الرخام فوق الضريح الخاوى لشاه جهان

العسير تحديد طرازها المعماري على وجه الدقة نتيجة ما لحق بالطرز من تطور متواصل. غير أن الأمر اللافت للنظر هو التباين الملحوظ بين «طراز ناجاره الشمالى» وبين «الطراز الجنوبى» الذى التزم فى تشكيل الأسطح الخارجية لأبراجه بزخارف أفقية مكررة تثير الملل أحيانا. ويزدان كل طابق منها بصف من المصاطب أو النوافذ الناتئة، كما تخلو جدران هذه الأبراج من النقوش وإن حفلت بالأعمدة الملتصقة النحيلة المضلعة التى نالها التطور التدريجى هى أيضا مع مرور الزمن. وكانت فى بادئ الأمر تُدعم بتماثيل لأسود تعلوها وسائد مسطحة لحمل الدعائم المشكَّلة من اللفائف الزخرفية أو زهور اللوتس. ويتشكل السقف من قبة مربعة أو مستديرة أو مضلعة تستند إلى وسادة، ويُحاط المعبد عادة بسور عال أو عدة أسوار لكل منها أربعة مداخل. وفى بعض المواقع، كما هى الحال فى مادوره، تتحول الساحة بأجمعها إلى مدينة معابد مقدسة تعج بكل أنشطة الحياة.

ويتجلى طراز «پالافه الدرافيدى المبكر» فى صوامع أسرة تشالوكيه فى بادامى ومعابد ماملپورم وماهاباليپورم. وأقدم هذه المعابد هى المعابد الكهفية فى أوندا ڤاله، والباجودات السبع، والمعابد الكهفية خلال القرن السابع والثامن، ثم معابد ما مليپورم. وفى عهد أسرة تشوله (٨٤٦-١١٧٣) ارتفع البرج المركزى للمعبد ارتفاعا كبيرا حتى بلغ ٥٨ مترا، وذلك بمضاعفة الطوابق ذات الأطناف (الكرانيش) وتكرارها، مثلما هو الحال فى معبد ڤيماناس بمدينة تانجور التى اتخذتها أسرة تشوله عاصمة تمارس منها سلطانها. وثمة نماذج بديعة لهذا الطراز شيدته أسرة تشوله فى «پولونا روه» بجزيرة سيلان (سرى لانكا).

وتميز طراز أسرة پانديه (١٢٥١ . ١٣١٠) بما طرأ على المداخل (البوابات) الكبرى من تطوير، وذلك بإنشاء طابق سفلى من الحجر تكسوه طبقة من قوالب الطوب تغشيها تماثيل جصية ملونة.

وحفلت هذه المراحل الأخيرة للطراز



كتابات منقوشة تحمل أسماء الله الحسنى وزخارف نباتية فوق تابوت ممتاز محل المودع بسرداب تحت سطح مبنى تاج محل

الدرافيدى الجنوبى بإنشاء القاعات الكبرى المعمدة «مانداپه»، حيث تشكّلت الأعمدة المحفورة فى الصخر فى مجموعات من الأعمدة النحيلة، أو زُوِّدت بدعامات فى حجم الأعمدة منحوتة بإتقان تصوِّر فرسانا فوق صهوات الخيل المتظاهرة يطاردون الفهود، أو راقصات أو أربابا أو تماثيل لمنشئى هذه المعابد أو لحيوانات مقدسة. كما رُصعت الأسقف بنقوش بديعة على نحو ما نشهد فى مدخل «مانداپه ناندى» المسقوف بمعبد براديشواره فى تانچافور من عهد أسرة تشوله. ويتيه هذا المعبد بارتفاع أبراجه التى تعلو كل المبانى المجاورة أو البعيدة على السواء حتى لو كانت قصراً ملكيا، كاشفًا موقعه لكل عين حتى ليغدو كأنه بيت للإله أو منارةً للتقوى والإيمان.

ومن المصادفات الغريبة أن يكون أشهر نماذج الطراز الدرافيدى فى فن المعمار هو أحد نماذجه اللاحقة، وأعنى به معبد ميناكشى فى مادُوراى. وبالرغم من الإبهار الذى يخطف به لبّ المُشاهد، فإنه لا يرقى إلى مستوى التصميمات الدرافيدية الرصينة المبكرة. وما دوراى هى العاصمة القديمة لأسرة بانديه، وقد حظيت بتخطيط متميز غير مسبوق حيث تصب كل شوارعها فى معبد ميناكشى، كما كانت مركزًا هامًا تعقد فيه المؤتمرات التى تتناول الشأن الإنسانى فى الأدب التاميلى. وجاء فى الأساطير أن الإله شيفه قد تجلّى بهذا المعبد فى هيئة «الجمال السماوى» بوصفه العريس المتأنق المُقبل على حفل زفافه. وثمة نقش بارز له بصالة المعبد الفضية وهو يرقص فى وضعة مخالفة لوضعته الراقصة بالصالة الذهبية، حيث يرفع قدمه اليمنى بدلا من اليسرى. وتعود أبراج المدخل الشامخة المهيبة «الجوپورە» التى تستقبل زائرى معبد ميناكشى إلى حقبة متأخرة من عهد أسرة ناياك خلال القرن السابع عشر. ويضم هذا المعبد ـ شديد التعقيد والذى شُيد على مراحل ـ أفنية أربعة، فغدا أشبه بالمتاهة التى تتعاقب فيها مختلف المبانى الواحد تلو الآخر، كالأسوار ومخازن الغلال والمستودعات وقاعات القربان والمقاصير والجواسق والمطابخ، كما تتألق أمام الحرم المقدس المركزى «البحيرة المقدسة» مستطيلة الشكل التى يُطلق عليها اسم «بركة زهور السوسن الذهبية»، وقد أحاط بها من كافة الجوانب رواق معمد، يليها فناء مكشوف يضم قاعة الأعمدة الألف. وتضم مدينة مادوراى فيما تضم قصر الملك «تريمولاناياك» الفاره الشهير الذى يشتمل على العديد من الأفنية والقاعات الضخمة وشرفة معمدة تحمل سقفًا عاليا زينت قبابه وعقوده بشبكة من الصيغ الزخرفية الجصية، ويعتبر هذا المبنى نموذجا للتزاوج الرصين بين العمارتين الهندية والإسلامية. ■

بـهــــــاء طـــاهــــر

الســـاحـــر...

■ تجربتى مع هذه الرواية غريبة إلى حد ما، جاء وقت لم اكن افتح فيه صحيفة سويسرية إلا واقرأ تقريظًا حماسيًا لها أو حوارًا مع مؤلفها، وعرفت من الصحف أنها ترجمت بعد صدورها بوقت قليل إلى خمس وأربعين لغة، وأن مؤلفها برازيلى اسمه باولو كويلهو «أو لعله كيلخو، فأنا لا أعرف النطق الصحيح للغة البرتغالية الأصلية ولا لاشتقاقها البرازيلى، ثم إن الرواية حصدت بعد ذلك جوائز ادبية.

ولم يكن كل ذلك إغراء كافيًا لقراءة الرواية، بل ربما كان العكس هو الصحيح، فصناعة الجوائز الأدبية فى العالم أمر يشكو منه القراء المخدوعون قبل الأدباء المحبطين الذين تخاصمهم تلك الجوائز، غير أن عبارة استوقفتنى فى مقال قال كاتبه: هذه رواية لا تقارن إلا بكتاب «النبى» لجبران او برواية «الأمير الصغير» لسانت إكزيبورى، قلت لنفسى بمثل هذه الصحبة فليهنأ اى كاتب فأنا مثل ملايين غيرى، مفتون بكليهما ولكن أتراه حقًا جديرًا بها؟

عندما قرأت الصفحات الأولى بل والفصول الأولى من الرواية قلت لغيرى هذه المرة هاأنا أتعرض للخديعة من جديد، وأقع فى شباك الدعاية والتهويل. وجدت بالفعل البساطة المتناهية التى تميز كتابى جبران وسانت إكزيبورى، ولكنى لم أجد ما عندهما من عمق وشعر، أو هكذا خيل إلى، فاتنى رغم العمر والتجريب أن الكاتب يستدرجنى بهون ورفق لكى أدخل عالمه، ثم إنى حين دخلت لم يعد لى من سحره وأسره فكاك. وبالتالى فإن هذه السطور وما بعدها هى نوع من الاعتذار لمن أسأت لهذه الرواية أمامهم، ومن التحذير - لنفسى قبل أى إنسان آخر - من ادعاء الفطنة ومن الغفلة عن كنز حين تقع عليه.

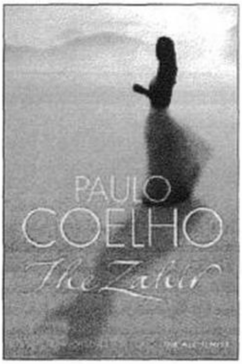
وكلمة «الكنز» هى المدخل الصحيح لرواية «السيميائى»، فهى باختصار شديد رحلة أخرى من رحلات الكنوز التى قرأناها فى الروايات وشاهدناها على الشاشة، مع شىء من الاختلاف! فالبحث عن الكنز هذه المرة ليس مغامرة إثارة، نتابع فيها الأحداث المشوقة، بحيث نتطلع فى لهفة إلى ما تحمله لنا الصفحة التالية من مفاجآت، هذه المرة نحن بالفعل فى رحلة بحث عن كنز حقيقى قيل إنه مخبوء فى الصحراء بالقرب من أهرام الجيزة ذاتها، ولكن الرحلة التى تقود الشاب الباحث عن الكنز من الأندلس عبر الصحراء هى رحلة فى داخل النفس أولاً قبل أن تكون فى دروب الصحراء، نحن باختصار أمام رواية فلسفية مثل «حى بن يقظان» لابن طفيل أو «الأمير الصغير» ومثلهما هى أيضاً مبذولة للجميع للكبار وللصغار على السواء، لكل أن يستمتع بها فى ذاتها، ولكل أن يستشف من طبقات المعنى فيها ما يستطيع.

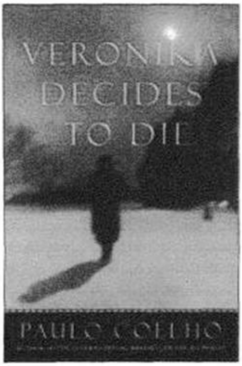
الباحث راع إسبانى بسيط يتجول بأغنامه فى ريف الأندلس، اسمه سانتياجو ولكنك باستثناء الصفحة الأولى والصفحة الأخيرة من الرواية لن تعرفه عبر صفحاتها إلا بصفته أى «الشاب». ولكن هذا الراعى مختلف عن غيره فهو قد اختار مهنة الرعى لكى يرى العالم وترك المدرسة والدراسة وهجر بلدته الصغيرة وسط دموع أمه وإشفاق أبيه، لم يكن يملك مالاً وكان الرعى وسيلته الوحيدة لكى يكتشف عوالم جديدة ولكى يتعلم أشياء لم تتحها له الدراسة، أول ما تعلمه أن هناك لغة تتجاوز الكلام، تلك اللغة ربطت بينه وبين غنمه حتى نشأ بينه وبينها عبر الصمت حب وحوار، تعتمد هى عليه مثلما يعتمد عليها، يسأل نفسه هل تعرف هى لحظة يقظته فتهب من رقادها أم هو الذى يهجره النعاس لحظة استيقاظها؟ هل تعرف مثله علامات الطريق وتسترشد بالنجوم؟ وأية قدرة داخل تلك الحيوانات تجعلها تميز بين

مقدمة الكاتب لترجمة كتاب
L'Alchimiste
(الكيميائى)
Paulo Coelho
Anne Carriere, Paris, 1994

ساحر الصحراء
باولو كويلهو
ترجمة: بهاء طاهر
دار الهلال: يوليو ١٩٩٦







الدخيل الكبير فتنفر منه وتنفره وبين الطفل الصغير الذى يحب أن يلعب معها ويمسد فراءها فتتركه يلهو دون أن تزعجه؟

بدا الراعى راضياً عن حياته وعما يعلمه له التجوال والرعى، ثم إنه يحب القراءة ويصحب معه باستمرار قصة يقرؤها ويبدلها حين يفرغ منها بكتاب جديد، وحين نلتقى به فى البداية نعرف أن هذه القصص كانت وسيلة لاجتذاب الفتاة التى استهوته فى المدينة والتى اعتقد أنها فتاة حياته، كانت ابنة التاجر الذى يجز له فراء غنمه وأدهشها أن تجد راعياً فقيراً يقرأ الكتب ويحكى القصص.

بدا أن كل شىء الآن قد استقر من جديد فهو يربح من عمله ما يكفيه، وهناك فتاة تنتظره وتتعلق به كما يتعلق بها، وبوسع الشاب الآن أن يتزوج وأن يكون أسرة أندلسية صغيرة مثل كل رفاقه.

ولكن حلماً يأتى فيتغير كل شىء، هاهو ذا يقضى مع غنمه ليلة فى كنيسة مهجورة مهدمة، نمت فيها شجرة جميز ضخمة مكان الهيكل، وبينما هو راقد تحت الشجرة إذا بطفل يأتيه فى المنام ينبئه أن هناك كنزاً مخبوءاً له ويقوده من يده حتى أهرام مصر. كانت تلك هى المرة الثانية التى يطارده فيها هذا الحلم. مفسرة الأحلام الغجرية التى ذهب يستعين بها على تعبير الرؤيا تشترط أن تحصل على العشر من الكنز قبل أن تبوح له بالسر، وإذ تحصل منه على القسم الذى لن يحنث به تنبئه أن عليه أن يذهب حتى أهرام مصر لأنه سيجد هناك كنزه! وحين ترى العرافة على وجهه علامات الغضب والإحباط لأنها قد فسرت الماء بالماء تبادره بقولها أرأيت؟ قلت لك منذ البدء إن حلمك عصى على التعبير، الأشياء البسيطة هى أغرب الأشياء، والحكماء وحدهم هم الذين يرونها.

هانحن أولاء إذن منذ مدخل الرواية نلتقى بمواقف وعبارات سيكون لها ما وراءها فى تلك الرواية الجميلة: اللغة التى تتجاوز الكلام وتربط الإنسان بغيره من الكائنات، التعلم من رؤية العالم.. البساطة التى ترادف الحكمة.. والسعى إلى تحقيق الحلم «الذى يساوى فهم الذات وتحقيق الذات»، وتلك محاور سوف تتداخل فيما يلى من الرواية وستتطور حتى تبلغ ذروتها الكاشفة فإذا بك بالفعل تشعر أنك ترى الأشياء فى نور جديد وترى نفسك فى قلب الأشياء مجلوا بهذا النور الكاشف «أليس ذلك بالفعل هو شأن كل أدب جدير بصفته؟».

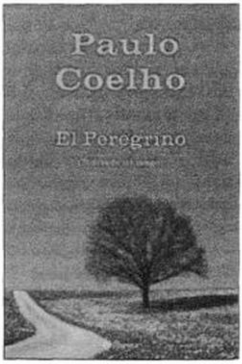
ولن يسمح المجال بأن نتتبع بالتفصيل عملية التطور تلك، ولا هو بالأمر المطلوب فمن المعلوم أن أى تلخيص لعمل أدبى هو إفساد له لأن كل جزئية وكل كلمة يضعها الكاتب الحصيف لهما دورهما فى السياق الكامل للعمل، ولذا فسيكون من الأجدى أن نتوقف عند بعض القضايا التى يطرحها هذا العمل وأن نستمع كلما أمكن إلى صوت المؤلف الخاص فى عبارات مستمدة من روايته.

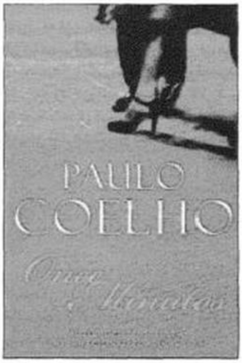
وأولى تلك المسائل التى أحب أن نشترك معاً فى تأملها هى استخدام الكاتب لعنصر الغرائبية «الفانتازيا» فى عمله، فهذه حكاية «أو إن شئت حدوتة» للخيال أن يجمح فيها كما يشاء، وأنت لا تعرف فى أى وقت تدور أحداثها، يمكنك أن تجازف فتقول إن تلك الأحداث تقع فى نهاية القرن الماضى أو فى مطلع هذا القرن، إذ لا يوجد ذكر فى الرواية لسيارة أو لطائرة أو لإمكان استخدام أى من هاتين الوسيلتين فى الانتقال، والأماكن أيضاً غير واقعية تماماً، فالفيوم فى هذه الرواية واحة كبيرة تضم خمسين ألف نخلة، يسكن أهلها الخيام وهى معزولة عن العالم لا سبيل على الوصول إليها إلا بقوافل الجمال، ويمكن للقبائل الصحراوية المتناحرة أن تحاصرها وتغزوها.

العالم إذن فى هذه الرواية عالم يصنعه خيال الكاتب لا الواقع الجغرافى ولا التاريخى، ومع ذلك - وكما لعلنا قد لاحظنا من العرض السريع لمدخل الرواية - فإن تسلسل الوقائع لا ينبو عن الواقع الذى رسم لنا المؤلف حدوده، وحين تصادفنا الغرائب فى الرواية وهى تحدث أكثر من مرة - فهى ليست من نوع غرائب جارسيا ماركيز التى تصنع عالماً موازياً لعالم الواقع يريد به ماركيز أن يخاطب وعياً يعلو على المنطق المألوف كيما يغير - بالضبط - هذا المنطق المألوف الراكد، الغرائب فى الرواية البرازيلية ترد باعتبارها معجزات أو خوارق، هكذا يراها أبطالها ويدهشون لها مثلما ندهش نحن القراء، وبهذا يتم إحكام الإيهام الروائى، والمعجزات فى نهاية المطاف أمر وارد.

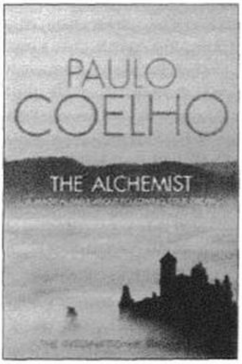
ومهما يكن الحال فإن للعناصر الغرائبية - هنا وهناك - مبرراً فنياً بالغ الوقع والتأثير، ويحسن أن يتدبر بعض كتابنا الجدد - وبعض نقادنا - مغزاه الحقيقى، حتى لا يزيد بفعل التقليد انتشار تلك الأعمال القصصية التى تنقض فيها على القراء الغرائب كالصواعق، على غير فهم ولا مأرب كما كان يقول حافظ إبراهيم.

ولنأخذ مثالاً على روايتنا لتوظيف ذلك العنصر من حيث توقفنا بالضبط. يخرج بطلنا الشاب غاضباً من عند العرافة التى ابتزت منه وعداً بمكافأة سخية لكى تكرر على سمعه ما أخبرنا هو به، يجلس فى حديقة ويحاول أن يقرأ فى كتاب، ولكن فكره يشرد بعيداً، يؤنب نفسه لأن حلماً بسراب بعيد يصرفه عما يملك بالفعل، عن الفتاة التى تنتظره فى

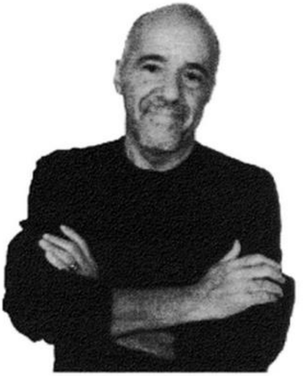








باولو كويلهو



المدينة وعن عمله الذى يحبه والمراعى التى يألفها وقطيعه الذى يبادله حباً بحب، ويبدو لنا أن عزمه سيستقر على البقاء عندما يأتى عجوز يحاول أن يستدرجه للحديث، ولكن الشاب المشغول بأفكاره يصده ويعزف عنه، غير أن العجوز يفرض عليه أن ينتبه إليه حين يحدثه عن كنز ينتظره، هل هو عراف آخر؟.. لا.. هو ملك لمدينة بعيدة اسمها «سالم»، كما يقول، يضحك الشاب ساخراً منه، ولكن حين ينحنى العجوز ليخط بعصا صغيرة شيئاً على الأرض يخطف بصر الشاب تحت معطف العجوز المهلهل درع من الذهب الخالص تتلألأ فيه الأحجار الكريمة! ولكن ما يخطه على الأرض هو الأكثر غرابة فالعجوز يكتب سطوراً من حياة الراعى لا يعرفها غيره، هنا يصغى إليه فيحدثه الملك «الملاك»؟ عن أسطورة الذات أو الأسطورة الذاتية، لا يعرف الشاب ما هى تلك الأسطورة فيشرحها له، يقول إن كلاً منا يعرف فى شرخ شبابه ما هى أسطورته الذاتية التى ينبغى أن يحققها ولكن قوى غامضة تحاول أن تصرفك عن تحقيق تلك الأسطورة، تضع أمامك كل أنواع العقبات، ومع أنك عندما تريد شيئاً بحق فإن رغبتك الحقيقية تصبح جزءاً من روح العالم الذى أنت جزء منه، وروح العالم تتغذى من سعادة البشر، إلا أنها تتغذى أيضاً من الشقاء والحسد والغيرة حين ينكص الإنسان عن إنجاز أسطورته، ذلك أن تحقيق الذات هو الالتزام الوحيد للإنسان على الأرض، حين يسعى إليه يندرج هو أيضاً فى تلك الروح الشاملة ويتآمر العالم كله لكى يحقق له رغبته مادام قد أوتى الشجاعة لقهر القوى الغامضة التى تريد أن تشل قدرته على الفعل، فليذهب الشاب إذن إلى مصر! هكذا ينصحه ملك سالم، وهو يزوده بنصح آخر: أن يتخذ قراراته بنفسه حين يسعى إلى تحقيق أسطورته على أن يلقى بالاً إلى الإشارات والتنبهات، ذلك أن الله قد خط فى العالم الطريق الذى يتعين أن يسلكه كل منا، وما علينا إلا أن ننتبه إلى ما فى الطريق من علامات.

هاهو ذا الملك العجوز قد أنهى تردد الراعى، ولكن من يكون ذلك الملك الذى لا يفتأ يكرر أن كل الأشياء هى شىء واحد؟ أليس هو على وجه التحديد وعى ذلك الراعى الصغير الذى خرج صبياً لكى يرى العالم، وصنع أسطورته الخاصة منذ آثر المرعى المفتوح على المدرسة المغلقة؟ قد يكون ملك سالم الغرائبى تجسيداً لذلك الوعى المنفتح على العالم وقد أخرجه الشاب من باطن ذاته لكى يحاوره، ولكنه على كل حال ملك روائى جميل.

وأجمل منه بكثير السيميائى أو الخيميائى الذى يعطى الرواية عنوانها «وفى هذه المرة فإن كلا النطقين مقبول إذ وجدتها فى أحد المعاجم العربية بالسين وفى معجم آخر بالخاء!»، ونحن نعرف ما السيمياء، ذلك العلم القديم المشكوك فيه الذى ورثت الكيمياء فكرته الأساسية أى تحويل العناصر بعضها إلى بعض، أما السيمياء التى عرفتها العصور الوسطى فكانت تسعى إلى تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب خالص وإلى البحث عن إكسير الحياة الذى يهب الخلود.

لن يلتقى الراعى بهذا السيميائى الأسطورى إلا فى جزء متأخر من الرواية وهو سيميائى مصرى من واحة الفيوم.

قبل ذلك كان لابد للشاب أن يعبر المضيق من الأندلس إلى أفريقيا وأن يتعرض لمحن كثيرة وأن يفقد ماله ويقرر العودة إلى وطنه قبل أن يلتقى بمغربى بائع أوان بلورية «كريستال»، يتعلم منه الكثير ويعلمه الكثير، وحين يجمع قدراً كافياً من المال يقرر العودة إلى الأندلس ليشترى قطيعاً جديداً من الغنم ويستأنف حياته التى قطعها حلم وعرافة غجرية وملك عجوز، ولكنه يجد نفسه مسوقاً فى اللحظة الأخيرة لكى ينضم إلى قافلة جمال ستشق الصحراء من الغرب إلى الفيوم، ويتذكر أثمن ما علمه إياه صديقه المغربى، تلك الكلمة العربية التى لا تقبل الترجمة إلى لغة أخرى: مكتوب.

لا يستطيع إنسان أن يهرب من المكتوب، ومادام قد كتب له أن يحقق أسطورته الخاصة فلا مهرب له من أن يمضى حتى النهاية.

ويبدو للشاب أن رحلته قد انتهت إلى غايتها عندما يصل إلى واحة الفيوم مع القافلة، ثم يظل محاصراً هناك بسبب حروب قبلية فى الصحراء، هناك يعثر على أثمن كنز كان يبحث عنه وهو الحب الحقيقى حين يلتقى بفاطمة الصحراوية الجميلة التى تبادله الحب، يحكى لها سره وقصته منذ البداية ويقرر أن يبقى فى الواحة ما بقى له من العمر ليعيش فرحة الحب التى لا تعدلها أى ثروة ولكن فاطمة ترفض، تقول له لقد علمتنى أن الإنسان يجب أن يقاسى لكى يحقق حلمه، فاذهب وابحث عن الكنز، تلال الرمال تغيرها الريح ولكن الصحراء تظل هى الصحراء، إن كنت أنا حقاً جزءاً من أسطورتك فسترجع لتجدنى هنا ذات يوم.

وذلك أيضاً ما يقوله له السيميائى العجوز الذى تخشاه الواحة ويلقبه بالساحر، يلتقى به فى مشهد عاصف ويحثه على أن يكمل رحلته حتى الأهرام. يسأله لماذا يسمونك السيميائى؟ لأنى كذلك بالفعل، ولماذا إذن فشل كل الآخرين؟ لأنهم يبحثون عن الذهب فحسب، يبحثون عن كنز أسطورتهم الخاصة دون أن يعيشوا تلك الأسطورة.

لكى تصل إلى السر لابد أن تنفذ إلى روح العالم، لا يلزمك حتى أن تشق الصحراء لكى تفهم، يكفى أن تتأمل ذرة واحدة من الرمل ففيها كل بدائع الخلق.

وما السبيل إلى ذلك؟.. استمع إلى قلبك فهو يدرك كل شىء لأنه قبس من روح العالم.

ولكن قلبى يخشى الألم.

قل له إن خشية الألم أمض من الألم نفسه، وإنه ما من قلب قد تألم وهو يسعى إلى تحقيق حلمه، توغل فى العالم تلج إلى روحه وتكتشف الكنز الذى خبأته تلك الروح لكل منا.

هذه هى السيمياء: كل ما فى الكون يتطور والذهب هو أرقى المعادن لكنه بدلاً من أن يصحب رمز التطور أصبح رمزاً للجشع، عرفت فى حياتى سيميائيين انعزلوا عن الدنيا فى معاملهم وحاولوا أن يطوروا أنفسهم ليصبحوا مثل الذهب، وهؤلاء هم الذين اكتشفوا بالفعل حجر الفلاسفة، لأنهم فهموا أنه عندما يرتقى الكائن فإن كل ما حوله يتطور، الحياة تريد أن تصهرك لكى تصبح أنت أيضاً مثل الذهب، ولهذا فهى تختبرك بالمحن قبل أن تعطيك كنزك الموعود لك.

ذلك هو درس السيميائى وهى أيضاً نبوءة، فما أشق المحن التى يخوضها الشاب لكى يجد كنزه، ولكن البوتقة التى تصهره هى نفسها التى تجلو روحه لكى تلتقى بروح العالم.

السيميائى حدوتة بسيطة كما قلت، لا تصنع سحرها الأحداث ولا حتى الأفكار فهى لن تعلم الجديد لدارس الفلسفة أو الباحث عن الحكمة، تماماً كما أن السيمياء لن تعلم شيئاً لمن يبحث عن الذهب، ولكن من يدخل عالمها سيجد أن الرحلة نفسها هى المنتهى.

ولم تنته بعد حكايتى مع هذه الرواية الجميلة، فقبل أن أفرغ منها دلتنى صديقة أديبة أكن لعلمها كل الاحترام على عرض قدمه الأديب الأرجنتينى بورخيس لإحدى ليالى ألف ليلة وهى التى استلهمها كاتبنا البرازيلى بالقطع فى روايته، وحين قرأت تلك الحكاية التى لا تتجاوز صفحة ازددت تقديراً لهذا السيميائى الروائى.

ثم إنى لم أنته أيضاً!

فأنا لا أستطيع أن أمنع نفسى فى الختام من الإشارة. بكل تواضع. إلى أنى قبل نشر السيميائى بثلاث سنوات، نشرت قصة عنوانها «أنا الملك جئت»، لم تترجم إلى أى لغة، وهى أيضاً رحلة بحث عن الذات فى الصحراء، فكيف اتفق أن توجد. دون معرفة ولا لقاء. مواقف متطابقة فى العملين، وفى بعض الأحيان نفس العبارات؟

سؤال أطرحه على «روح العالم»! ■

ظـاهـرة بـرازيـلـيـة

جـلاوكـو أورتـولانـو

■■ عندما سمعت للمرة الأولى بنبأ انضمام «باولو كويلهو Paulo Coelho»، كأحدث عضو بـ «الأكاديمية البرازيلية للآداب Academia Brasileira de Letras» ذات المكانة الرفيعة، اتصلت به على الفور، أولا لأهنئه على هذا الإنجاز الرائع، وثانيا لأطلب منه إجراء مقابلة قصيرة لمجلة «الأدب العالمي المعاصر World Literature Today»، وكان من الكرم بحيث وافق على الفور. وقد شعرت على وجه الخصوص بسعادة بالغة عندما علمت بانضمامه لعضوية الأكاديمية، كان مبعث سعادتي في الأساس أنني تعرضت شخصيا لنقد قاس من قبل نقاد شديدي التحفظ بسبب إدراجي لروايته «الكيميائي The Alchemist» ضمن قائمة حديثة لأفضل عشر روايات برازيلية في السنوات العشرين الأخيرة (مجلة الأدب العالمي المعاصر، عدد صيف-خريف ٢٠٠١ صفحة ٨٩-٩١). وسوف تتناول بعض إجابات «كويلهو»، والتي وردت في المقابلة التالية وقمت بترجمتها من البرتغالية، ذلك التحيز من وجهة نظره الشخصية.

ليس «باولو كويلهو» المولود عام ١٩٤٧ في «ريو دي جانيرو» مجرد أحد أكثر الكتاب مبيعا للكتب في العالم حاليا، ولكنه أيضا من أكثرهم تأثيرا، ليس في رأيي أنا فحسب، بل أيضا في رأي العديد من لجان التحكيم في ألمانيا وإيطاليا وبولندا وفرنسا وأسبانيا وأيرلندا والبرازيل ويوغوسلافيا، والذين كرموه بأكثر من اثنتي عشرة جائزة دولية خلال السنوات الماضية. لماذا اعترض إذا بعض النقاد على انتخابه لعضوية الأكاديمية أو اختيار أعماله كبعض أفضل نماذج الأدب البرازيلي المعاصر؟ أعتقد أن بعض أولئك النقاد استخفوا بالبساطة السردية لـ «كويلهو»، وهي أسلوب قوي برع فيه تماما على مر السنين. فرواية «الكيميائي» على سبيل المثال، تستخدم لغة كلغة الأساطير، نال المؤلف بسببها إعجابا دوليا. ونادرا مايستخدم «كويلهو» المجاز المركب أو الاستعارات اللغوية أو العبارات الاصطلاحية. وتتسم كل أعماله بالبساطة، وكما كتبت في مقالي السابق، فإن أسلوبه لا يسلب فقط خيال قرائه بل وقلوبهم أيضا. وهو أيضا صاحب رسالة بسيطة جدا وصالحة لكل العصور: تكمن السعادة في اكتشاف أنفسنا. وببساطة، فإن «باولو كويلهو» كاتب يبحث عن نفسه، وتلك خصلة توجز حقيقته الأدبية.

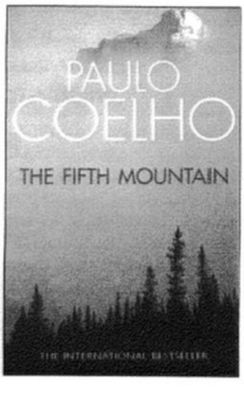
لقد أضحت تلك الظاهرة البرازيلية - كما يسمى - منسجمة تماما، ليس فقط في رحلة بحثه الخاصة، وإنما أيضا في كونه أصبح أحد أهم كتاب العصر، وربما كان ذلك مبعث دهشة لوالدته، حيث كانت تنهاه دائما عن امتهان حرفة ذات عائد مالي ضعيف جدا عادة في بلدان مثل البرازيل. ويبدو أنه كلما كتب أكثر كلما حاز استحسان كبار النقاد أمثال «أمبرتو إيكو Umberto Eco»، وكذلك أعداد متزايدة من القراء حول العالم. ووفقا للمعلومات المنشورة على موقعه على الإنترنت (www.paulocoelho.com.br/eng)، فقد بيعت له حتى اليوم حوالي ٤٣ مليون نسخة من أعماله في ١٥٠ دولة في ست وخمسين لغة مختلفة. ويجعل ذلك من «كويلهو» ثاني أشهر المؤلفين المعاصرين، وذلك طبقا لاستفتاء أجرته مجلة «اقرا Lire» الفرنسية عام ١٩٩٩. وتبلغ مجموعة أعماله حاليًا خمسة عشر كتابا ترجمت معظمها دار نشر «هاربر كولينز Harper Collins» - إلى اللغة الإنجليزية:

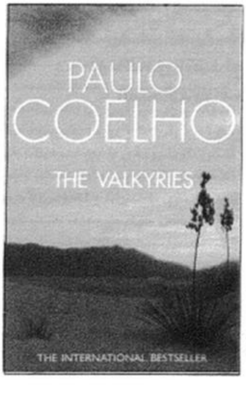
إن نضوج «باولو كويلهو» ككاتب يؤكده انضمامه كأحدث عضو إلى «الأكاديمية البرازيلية للآداب»، رغم كل الجدل المحيط بترشيحه. ومنذ بدايتها، عرفت الأكاديمية البالغة من العمر ١٠٤ أعوام، والتي أنشأها «ماشادو دي أسيس Machado de Assis» (١٨٣٩-١٩٠٨)، وهو مؤلف اعتبره الكثيرون أعظم كتاب عصره في النصف الغربي من الكرة الأرضية، عرفت بدقتها الشديدة في اختيار أعضائها الجدد. وكان على «كويلهو» أن يمر بجولتين من التصويت قبل حصوله على أغلبية الأصوات وإعلان عضويته في الأكاديمية، والذي كان - على الأرجح - مفاجأة للعديد من النقاد البرازيليين. وعلى أية حال، فرغم كل ما يقوله أولئك النقاد، فقد أصبح «كويلهو» اليوم أهم ممثل للأدب البرازيلي الرفيع، حتى على الرغم من أن الغالبية العظمى من أعماله لم تكتب في البرازيل. ولكن ذلك لا يقلل من «برازيلية» أعماله، بل يجعلها أكثر «عالمية». إن «كويلهو» يكتب بالبرتغالية، وهي لغته الأم، وبحس مواطن حقيقي معاصر من «ريو دي جانيرو».

فيما يلي نص مقابلة قصيرة جرت مع «كويلهو» في نهاية شهر يوليو من عام ٢٠٠٢، وكان الحوار الأصلي باللغة البرتغالية.

جلاوكو أوتولانو: في إحدى المناسبات، ذكر «أوي كنزابورو Oe Kenzaburo» (أديب ياباني حصل عام ١٩٩٤ على جائزة نوبل، ١٩٣٥-)، أن «باولو كويلهو» قد اكتشف سر الكيمياء الأدبية. إني على ثقة من أن الكثير من شباب الكتاب يتوقون لمعرفة المزيد عن ذلك. فهل تمانع مشاركتنا تلك الأسرار؟

باولو كويلهو: إن متوسط عدد النسخ في الطبعة الواحدة لأي رواية في الولايات المتحدة أو فرنسا هو حوالي ثلاثة آلاف نسخة، وهو نفس العدد في البرازيل. وليست هناك أية معادلة سرية. فالمؤلف الذي يحاول التعبير عن نفسه وليس في ذهنه سوى تسويق الكتاب قد يخرج من ذلك بكتاب ناجح، ولكن من المرجح جدا ألا يكرر نفس النجاح ثانية، مما سيجعله غير قادر على كسب عيشه من الكتابة. وفي حالتي الشخصية، فقد فعلت الشيء الوحيد الذي يجدر عمله، ألا وهو أن استغل كتاباتي لأعرف نفسي بصورة أفضل. وما دمت بقيت على ولائي لنفسي، دون الاهتمام بالبحث عن معادلات، فسيبقى قرائي أوفياء كذلك. وقد ابتعد الأدب أكثر وأكثر عن النقد لأن الأخير أصبح رجعيا بدلا من أن يكون تقليديا أكثر. ونتيجة لذلك، فقد عجز النقد الأدبي عن تسويق نفسه كما أنه عاجز





بترتيب مع مجلة:
World Literature Today

ترجمة: عادل فتحي

عن عرقلة مبيعات الكتب. ومن جهة أخرى، فإن القارئ لديه إحساس عال بالحقيقة، ويشترى الكتاب الذى يعكس حالته الذهنية أو الأمر الواقع. وعلى ذلك، فقد ظهر نوعان من البشر: نوع يريد أن يعيش الماضى فى الحاضر، مثل العديد من الأكاديميين الذين مازالوا مقيدين إلى سلسلة من التقاليد القديمة، ونوع يعيش فعلا فى الحاضر، وهم القراء.

أوتولانو: أثناء السنوات الأولى لتكوين شخصيتك، من هم المؤلفين البرازيليين أو الأجانب الذين كان لهم تأثير على كتاباتك بعد ذلك؟

كويلهو: «جورج لويس بورجيس Jorge Luis Borges» (أديب أرجنتينى، ١٨٩٩-١٩٨٦) و«جورج أرمادو Jorge Armado» (أديب برازيلى، ١٩١٢-٢٠٠١) و«هنرى ميلر Henry Miller» (أديب أمريكى، ١٨٩١-١٩٨٠) و«ويليام بليك William Blake» (أديب إنجليزى، ١٧٥٧-١٨٢٧).

أوتولانو: نادرا ما تقع أحداث قصصك فى البرازيل، مما يجعل بعض النقاد يستبعدون كتاباتك من لائحة الأدب البرازيلى. فما هو رأيك فى هذا الموقف؟ هل ترى فى نفسك كاتبا برازيليا؟

كويلهو: مما يثير الاهتمام أن أعمالى موجودة فى المدارس فى جميع أنحاء البرازيل، وأى كتاب يتناول الأدب البرازيلى بعد عام ١٩٩٠ سوف يشير بالتأكيد إلى أحد أعمالى. إن الكتابة عن البرازيل شىء ورؤية العالم من خلال عيون برازيلية شىء مختلف تماما، وهذا موجود فى كل سطر أكتبه. إن أحدا على الإطلاق لم يظن أن «هيمنجواى Hemingway» (أديب أمريكى، ١٨٩٩-١٩٦١) كاتب أسبانى، أو أن «هنرى ميلر Henry Miller» (أديب أمريكى، ١٨٩١-١٩٨٠) كان فرنسيا، حتى رغم أن كلا منهما كتب عن بلاد أخرى غير الولايات المتحدة.

أوتولانو: انضممت مؤخرا كأحدث عضو إلى «الأكاديمية البرازيلية للآداب» المعروفة بمكانتها الرفيعة، بالرغم من اعتراضات معينة من قبل بعض الأعضاء الأكثر تحفظا. فما هو فى رأيك العامل الحاسم الذى جعلهم يغيرون من موقفهم؟

كويلهو: إن أية معارضة ليست فقط طبيعية وإنما أيضا ضرورية، فهى جزء من العملية الإبداعية. إن مجلس «الأكاديمية البرازيلية للآداب» يتكون من أربعين عضوا، وقد حصلت على أغلبية الأصوات (٢٣ صوتًا) على الرغم من أن المرشح الآخر كانت لديه مؤهلات أدبية ممتازة. إن «الأكاديمية البرازيلية» ليست بحاجة إلى السوق ولا ترضخ لأى شىء. ولذلك فإن السبب فى قبول عضويتى هو حقيقة راسخة: لقد تغيرت ثوابت معايير قبول العضوية. وحيث أن «الأكاديمية» تضم اليوم أعضاء لديهم حس بالقضايا المعاصرة (وليس بالماضى كما تزعم الأسطورة)، فقد جعل ذلك من قبول عضويتى أمرا ممكنا. لقد تغير المشهد الثقافى، وأدرك الناس أهمية تحييد الأراء المسبقة ومحاولة تقييم الأدب كمرآة للحاضر وليس كشىء يقبع فى بعض مفاهيم الماضى.

أوتولانو: لا يبدو أن أعمالك تعتنق أى مذهب سياسى أو فكرى. فهل يجدر بنا أن نفترض أنه ليس لديك حقا انتماء لأى جماعة معينة، أم أننى عاجز عن قراءة ما بين السطور؟

كويلهو: إن أعمالى ملتزمة تماما بتوجه سياسى جديد، وهو بحث الإنسان عن هويته الحقيقية. إن أعمالى لا تتناول التصنيفات العتيقة البالية لليمين واليسار. فهناك ثورة تندلع ببطء، ولا يبدو أن الصحافة قد أحست بها حتى الأن. ولو اضطررت لإيجاز الفكرة كلها فى عبارة واحدة فقط، لقلت أن المنهج السياسى الجديد لهذا العصر هو أن «نموت بحيوية».

بمعنى أخر، أن ندرك ونشارك فيما حولنا إلى أنيحين الموت، وذلك شىء لايحدث كثيرا. إن الناس يموتون حقا يوم أن يتخلوا عن أحلامهم. وبعد ذلك، يغادر المرء فى رحلة، كما فعل «عوليس Ulysses»، متقبلا التحديات ومدركا أن على الإنسان أحيانا أن يقاتل وحيدا، وأنه، مع ذلك، ينوب عن الجنس البشرى بأكمله.

أوتولانو: فيما يطلق عليه فورة أدب أمريكا اللاتينية، والتى جاءت بمؤلفين عظام مثل «ماريو فارجاس ليوسا Mario Vargas liosa» (أديب من بيرو، ١٩٣٦-) و«جابرييل جارسيا ماركيز Gabriel Garcia Marquez» (أديب كولومبى، ١٩٢٨-) و«خوليو كورتازار Julio Cortazar» (أديب أرجنتينى، ١٩١٤-١٩٨٤) وغيرهم، تعرض الكثير من الكتاب للاتهام بأنهم ضحوا بالجودة الأدبية فى سبيل الانتشار بين عدد أكبر من القراء. فهل ترى أن هذا السلوك له ما يبرره فى عصر ثورة الاتصالات الذى نعيشه؟

كويلهو: أرى أن من ينتقد هؤلاء الكتاب لا يعرف الكثير عن الأدب. فإن أياَ منهم لم يرضخ للضغوط التجارية. إنهم أناس أسوياء يؤدون عملهم بإخلاص شديد.

أوتولانو: الأن بعد أن أصبحت أوسع انتشارا من المؤلف الكولومبى «جابرييل جارسيا ماركيز»، بل أشهر مؤلف من أمريكا اللاتينية على مر العصور، فهل يمكننا أن نفترض أن ساعة ازدهار الأدب البرازيلى قد حانت فى النهاية؟

أعمالى ملتزمة تماما بتوجه سياسى جديد، وهو بحث الإنسان عن هويته الحقيقية. إن أعمالى لا تتناول التصنيفات العتيقة البالية لليمين واليسار. فهناك ثورة تندلع ببطء، ولا يبدو أن الصحافة قد أحست بها حتى الآن



كويلهو: كتبى تباع فى أنحاء العالم منذ سبع سنوات. إن قضيتى لا تتعلق بالازدهار الأدبى على المستوى القومى، أساسا لأن المؤلفين البرازيليين متنوعون للغاية ويعكسون حقائق مختلفة جدا. إن الازدهار الشهير لأدب أمريكا اللاتينية هو من اختراع النقاد. وهذا التعبير لم يخرج عن حدود أمريكا اللاتينية. وبالنسبة للمؤلفين الذين حققوا شهرة، وهم «بورجيس» و«جارسيا ماركيز» و«فارجاس ليوسا»، فكانوا مختلفين تماما فى الفكر وفى أساليب الكتابة. لا يمكن للمرء أن يعمم أو أن يخلق بدعة جديدة عن طريق استخدام الأدب كأداة محفزة: لقد حقق هؤلاء المؤلفون الشهرة لأنهم كتبوا أدبا رفيعا وليس لأنهم جميعا من نفس القارة.

أوتولانو: ينسب الكثيرون الفضل فى نجاح أعمالك - جزئيا على الأقل - إلى الزمن الذى نعيش فيه. ومنذ الإعلان رسميا عن سقوط كل المذاهب، يبدو أن هناك حاجة للعودة إلى زمن كان أكثر اهتماما بالظروف البشرية. ويبدو أن أعمالك - على بساطتها - تلبى تلك الحاجة. ما هو رد فعلك على تلك المقولة؟

كويلهو: سقوط المذاهب لم يعلن رسميا. ما حدث هو انهيار نظام كامل من الأفكار البالية. إن الإنسان بحاجة دائما إلى القدوة، لأن ذلك من الطبيعة البشرية. إن البشر فى نظرى مثل البراكين، يحدث تراكم بالداخل دون ظهور أى شىء على السطح. يسأل الإنسان نفسه: هل ستكون حياتى هكذا دائما؟ وفى لحظة معينة تبدأ الثورة. فإن كان هذا الإنسان حكيما، فسوف يسمح للحمم فى داخله أن تتدفق للخارج وتغير المشهد من حوله، وإذا كان غير ذلك، فسوف يحاول أن يكتم الانفجار. وبدءا من تلك اللحظة، سيبذل كل طاقته لمحاولة إبقاء البركان تحت السيطرة. لقد كنت واقعيا بما فيه الكفاية لأدرك أنه من الضرورى فى لحظات معينة من حياتى أن أتحمل الألم الناتج عن الانفجار حتى أتمكن من الاستمتاع بالمشهد من حولى. إن هناك أراء كثيرة حول السبب فى السعى الدائم للبشرية للبحث عن القيم. ذات مرة، أرسل لى أحد الأصدقاء قصة عن رجل تعود أن يحكى لحفيدته عن نوعين من الحيوانات يقطنان داخل روحه: كلب

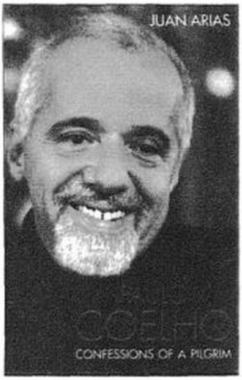
يحميه، وذئب يسعى لالتهام أى شىء يجده. تسأله الحفيدة أى الحيوانين اقوى. فيجيبها الجد بأن اقواهما هو الذى يتلقى تغذية أفضل حسب الظروف المحيطة. إن العقيدة المحورية للجنس البشرى منذ بدء الخلق كانت: إحترم جارك.

أوتولانو: لقد حظيت بتقدير كبير فى العديد من الدول مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسرائيل والبرازيل. ما أهمية هذا التقدير بالنسبة لك؟ هل تشعر أن لديك مسئولية اجتماعية أكبر مما كان لديك عندما بدأت مهنة الكتابة؟

كويلهو: شخصيتى موجودة فى كل كتاب من كتبى. فهى تمثل جوانب مختلفة متعددة من حياتى، وكل جانب له معاناته ونشواته. وتلك الكتب لا تمثل عالما أعتبره مثاليا، بل العالم الذى عشته. ولذلك فإنى مسئول عن كل سطر أكتبه. ومن جهة أخرى فإن الوجود دائما فى حالة تغير مستمر، وعلى أن أبقى منتبها لتلك التغيرات حتى أكون دائما جديرا بما أكتب. تلك هى مسئوليتى: أن أكون أمينا مع نفسى. والأن بعد أن بلغت حدا من الشهرة يصعب أن يبلغه كاتب، أدرك أن بإمكانى استغلال شهرتى لأكافح فى سبيل ما أؤمن به. ولذلك قررت إقامة «معهد باولو كويلهو Paulo Coelho Institute»، والذى يقوم برعاية الأطفال وكبار السن بمنحة سنوية قدرها ثلاثمائة الف دولار. كما وافقت أيضا على الانضمام إلى عدة مؤسسات أؤمن بأهدافها. وأنا مستشار خاص لبرنامج اليونسكو للتقارب الروحى والحوار الفكرى، وعضو فى مؤسسة «شواب Schwab Foundation»، التى وضعت هيكلا جديدا للعاملين فى المجال الاجتماعى، أى الناس المسئولين ليس فقط عن الإنتاج، وإنما أيضا عن كيفية تحقيق هذا الإنتاج.

أوتولانو: أنا أعلم جيدا - ككاتب - أن كل عمل هو بمثابة طفل لنا، وأننا عادة لا نفضل أن نتحدث علنا عن أطفالنا المفضلين. ولكن لو استطعت أن أطلب منك عمل استثناء هنا وأن تتحدث عن بعض أعمالك المفضلة، فما هى الأعمال التى ستختارها؟

كويلهو: الإجابة هنا موجودة فى السؤال نفسه: نحن نحب أطفالنا بالتساوى. قد يحتاج بعضهم للرعاية أكثر من الأخرين، ولكن سيكون من الظلم أن نحاول تصنيف هذا العمل أو ذلك. لا يتوجب علينا أن نحكم على الحب، بل أن نعيشه. ■



خـــارج عن النظـــام!

جـــوان أريـــاس

■■ كان «كويلهو» المولود فى ٢٤ أغسطس ١٩٤٧ فى ريودى جانيرو، دائما خارجا على النظام، باحثا عن كل جديد، وأدى به ذلك إلى تجربة كل شىء مر به، حسنا كان أم سيئا. وفى أثناء فوران عام ١٩٦٨، حين كان رجال حرب العصابات و جماعات الـ «هيبيز Hippies» يسيطرون على الساحة، وقع «كويلهو» فى حب «ماركس Marx» (فيلسوف سياسى ألمانى ومؤلف كتاب «رأس المال» ١٨١٨-١٨٨٣) و«إنجلز Engels» (اشتراكى ألمانى، ١٨٢٠-١٨٩٥) و«شى جيفارا Che Guevara» (ثائر أرجنتينى، ١٩٢٨-١٩٦٧). وقد شارك فى الانتخابات والتظاهرات. كما ساهم فى كل الحركات التقدمية وكان جزءا من جيل «السلام والحب».

وفى ذلك الوقت بدأ «كويليو» يمر بأزمة الإيمان، وانطلق يبحث عن خبرات روحانية جديدة، فلجأ إلى المخدرات وعقاقير الهلوسة والطوائف الدينية والسحر، مرتحلا فى كل أرجاء أمريكا اللاتينية على خطى «كارلوس كاستانيدا Carlos Castaneda» (عالم أجناس بشرية ولد عام ١٩٢٥ فى بيرو أو البرازيل حسب الروايات المختلفة وتوفى عام ١٩٩٨).

وفى النهاية، انصاع «كويلهو» لرغبة والده والتحق بكلية القانون فى جامعة «ريو دى جانيرو». ولكنه سرعان ما هجر الدراسة للعمل فى المسرح، حلمه الجديد. وبالنقود التى جمعها من مهنة التمثيل، وبعد هروبه من مستشفى للأمراض العقلية، رحل «كويلهو» إلى الولايات المتحدة، حيث ساعده رفاقه من «الهيبيز Hippies» عندما نفدت نقوده.

كانت عاطفته لا تزال متجهة للكتابة، فبدأ يخوض فى الصحافة وأنشأ مجلة فصلية اسمها «٢٠٠١». لم تستمر لأكثر من عددين، ولكنها كانت ذات أهمية قصوى لـ «كويلهو»، حيث أدى نشر إحدى المقالات بها إلى التقائه بالمنتج الموسيقى «راؤول سيكساس Raul Seixas» الذى تعاون معه فى النهاية كمؤلف لكلمات الأغانى. تلك كانت أولى لحظات المجد بالنسبة لـ «كويليو». كان المغنى يعمل فى العديد من البلاد، وبدأ المال يتدفق بكثرة على «كويلهو» من عائد كلمات الأغانى لدرجة أنه اشترى خمس شقق سكنية. كما انه كتب أيضا فى صحيفة «الكرة الأرضية El Globo» إلى أن نشر كتابه الأول عام ١٩٧٤ عن المسرح والتعليم.

تلك أيضا كانت السنوات التى شهدت أقسى تجاربه مع السحر الأسود عبر كتابات وأفكار «أليستر كراولى Aleister Crowly» (ساحر إنجليزى شهير، ١٨٧٥-١٩٤٧)، والتى كانت من أصعب التجارب التى مر بها فى حياته، وتحدث عنها بعمق فى كتبه. وعندما تمكن «كويلهو» من تحرير نفسه من أغلال السحر الأسود التى كانت تشده إلى شفا الهاوية، كان عليه أن يمر بتجارب قاسية أخرى فى حياته: فقد تم اختطافه وتعذيبه على يد إحدى الميليشيات أثناء الحكم العسكرى الديكتاتورى فى البرازيل والذى استمر من ١٩٦٤ إلى ١٩٨٥ . وبما يشبه المعجزة، تمكن «كويليو» من النجاة بحياته من الاحتجاز والتعذيب. وقرر عندئذ وضع حد لجنون المخدرات والسحر الأسود وبدأ بالفعل حياة طبيعية، حيث عمل فى العديد من شركات التسجيلات. ولكن الولع بالكتابة تحرك داخله ثانية عام ١٩٧٦، فانتقل إلى إنجلترا كمراسل لعدد من المجلات البرازيلية وقرر أن يكتب قصة حياته، واستغرق منه الأمر عاما كاملا. ومع ذلك، فعند عودته للبرازيل، ترك المخطوط خلفه عرضا فى إحدى حانات لندن، ولم تنشر سيرته الذاتية.

بعد ثلاث زيجات فاشلة، تزوج «كويلهو» فى عام ١٩٨١ من الرسامة «كريستينا أويتيسيكا Cristina Oiticica»، التى كان مقدرا لها أن تشاركه أعظم نجاحات حياته ككاتب عالمى شهير. وهما لا يزالان زوجين سعيدين. ولكن حنين «كويليو» إلى الترحال للبحث عن رسالة حياته لم يضعف. وبالنقود التى كسبها ذهبا فى جولة حول العالم لمدة ستة أشهر، إلى أن مر فى أحد معسكرات الاعتقال الألمانية بتجربة روحانية عميقة وحادة غيرت مجرى حياته مرة أخرى حيث آب إلى المعتقدات الكاثوليكية التى آمن بها والداه. وفى ذلك الوقت، ومع معلمه الروحى، ذهب «كويلهو» فى رحلة على الأقدام استغرقت ٥٥يوما لقطع سبعمائة كيلومتر من الطريق القديم إلى «سنتياجو دى كومبوستيلا Santiago de Compostela»، مقتفيا خطى حجيج القرون الوسطى.

وقادته تجربة الحج إلى «سنتياجو» إلى نشر أول نصوصه الأدبية: «مذكرات مشعوذ Diary of a Magus »، (أعيد تسميته بعد ذلك بـ «الحج The Pilgrimage»). بعد ذلك جاءت كتبه الأخرى، بداية من «الكيميائى The Alchemist»، وحتى روايته الحديثة «فيرونيكا تقرر أن تموت Veronika Decides to Die»، مما جعله واحدا من أكثر عشرة مؤلفين مبيعا للكتب فى العالم، وأيضا مؤلف مثير للجدل والعواطف المتطرفة، ولكنه مع ذلك دائم الابتسام والثقة بالنفس، فى سعيه لإحياء حاسة تذوق الغموض والسحر لدى الرجال والنساء فى بداية الألفية الثالثة، متغلبا على الرتابة والعجز فى كنف مجتمع الى ممل.

يقول «كويلهو» دائما أن لديه من النقود ما يكفى لثلاث حيوات أخرى. وهو يكسب الكثير، حتى أنه خصص أربعمائة ألف دولار سنويا من حقوق التأليف خاصته لمؤسسة تحمل اسمه وتديرها زوجته «كريستينا». وتستخدم تلك النقود لرعاية الأطفال اللقطاء الذين يعيشون فى أسوأ الأحياء القذرة فى «ريو»، وللعناية بكبار السن من الفقراء والمعوزين، ولتشجيع ترجمة الأدب البرازيلى إلى اللغات، وللبحث عن الأصول العريقة للبرازيل التى يعشقها بشدة ويعتبرها أكثر البلاد سحرا فى العالم لأنها - حسب قوله - لا تفرق بين ما هو مقدس وما هو وثنى، ولا يخجل أحد هناك من الإيمان بالروح. ■

حقيبـــــــة الفـــــــن

حســـن أبشـــر الطـــيب



محمد أحمد سرور



عبدالكريم كرومة

■■ لا يذكر الصبى لذلك الشهر اسماً، ولكنه على يقين أنه كان وقتئذ ابن الثامنة، مقبلاً على الحياة، به كل الميل للمرح والطرب، والكثير من الرغبة فى التمثيل، وإعادة التشكيل لما يراه من مواقف وأحداث. ولقد لمس منه أترابه هذه الرغبة فى التمثيل فقد كانوا يطلبون منه، ويلحون فى الرجاء أن يسعدهم بترديد بعض الأغانى الرائجة، ولا يهمهم فى ذلك الكلمات أو معانيها وإنما كيف يقلد الصبى ذلك الفنان فى حركته وفى سكونه وفى حشده لكل قدراته الصوتية للتعبير عما يختلج فى نفسه من الحان وأشجان.

يذكر الصبى الكثير من الأحداث التى ارتسمت فى ذاكرته منذ الطفولة الباكرة، بل إنه يذكر بعضها بوضوح كامل، وبكل تفاصيلها بأكثر مما عاشه من مواقف قبل عامين أو ثلاثة وقد تجاوز الآن السبعين بقليل. غير أن الحدث الأكبر الذى نقش فى ذاكرة الصبى بكل تفاصيله هو ذلك العرس الباذخ الذى أحدث دوياً هائلاً ومبهجاً ليس فى أحياء الركابية، وود أرو، وود البنا وحدها، بل فى مدينة أم درمان كلها. ذلك العُرس الذى امتدت أفراحه لأربعين يوماً بالتمام والكمال، تعطرت فيها المدينة، وأسفرت عن وجهها البهىّ الجميل، غنت ورقصت مع أساطين الغناء سرور وكرومة وإبراهيم عبد الجليل. ذلك كان عُرس حسن العُمدة كرم الله، الذى يشهد له الخاصة والعامة بأنه أبرع سائق ترام فى العاصمة كلها. وقد كانت له علاقات حميمة مع عدد كبير من الناس، يودونه لظرفه وحسن معاملته، وله صداقات بشكل خاص مع نجوم الغناء الرصين وقتها، فانتهزوا جميعاً مناسبة عُرسه، وابتدعوا له عُرساً لم تشهد أم درمان قبله أو بعده ما يماثله أو يقرب منه طولاً وعمقاً وعظمة ونشوة وتعبيراً عن البهجة والسعادة الغامرة. أربعون يوماً كاملة ظل فيها سرور وكرومة وإبراهيم عبد الجليل يعطرون المدينة وينثرون فيها الفرح بأغانيهم الخالدة فى الصباح وفى المساء.. فتأمل! وظل الصبى طوال مدة هذا العُرس، فى مركز دائرة هذا الكرنفال الجميل، يطرب لما يسمع من غناء عذب، ويختزن فى ذاكرته كل هذه الألحان بموسيقاها الموحية وكلماتها المتفردة، ويرتسم كل ذلك فى عقله الباطن. ولعلنا لا نبعد عن الحقيقة كثيراً أو قليلاً إذا قلنا أن الأيام الأربعين لعُرس حسن العمدة كانت البذرة الأولى فى تشكيل ذاكرة ورؤية وهوى ذلك الصبى لأغانى حقيبة الفن، وهو مبتدع البرنامج المتفرد الذى أحدث ثورة فى تاريخ الغناء الحديث فى السودان. كبر الصبى، وصار من الرواد الأوائل للإذاعة السودانية، وظل مستصحباً معه تلك الألحان وتلك الأشجان المعتقة التى حفرت فى ذاكرته من أيام ذلك العُرس الذى كان منظومة من الأعراس فى عُرس واحد.. فتأمل!

ذلك الصبى، الذى تجاوز الآن السبعين بقليل مد الله تعالى فى أيامه، هو (أب أحمد) الأستاذ صلاح أحمد محمد صالح، الذى استطاع أن يضع بصماته فى كل المواقع المهنية التى تسنمها بجدارة واقتدار، ووضع فى كل منها قدراً من إبداعاته، وأعطى كلاً منها من ذات نفسه الكثير. لقد أبدع وأجاد فى كل المواقع التى تمثل منظومة من حياته العملية المهنية. كان صحفياً بارزاً، ومذيعاً متميزاً صاحب إبداعات أصيلة وإشراقات برامجية موحية، إلى جانب صوته المعبر الذى يصفه صديقه الروائى المبدع الطيب صالح (وصوت صلاح أحمد، كأنك مزجت أصوات نات كنغ كول ولوى أرمسترونغ وجلال معوض). فتأمل كيف يكون التمازج العضوى بين هذه الأصوات الرائقة الوسيمة!

والأستاذ صلاح أحمد أيضاً من منظومة النجوم فى سماء الدبلوماسية السودانية، فقد كان له فضل بناء وتطوير

علاقات دبلوماسية نافعة مع كل البلدان التى مثل فيها السودان، وظلت علاقاته الحميمة مع رموزها متصلة إلى يومنا هذا. وهو من قلة من السفراء، الذى ترقوا إلى موقع وكيل وزارة الخارجية، ووصل إلى السن القانونية للتقاعد. ما وجدت النظم السياسية المتعاقبة سبباً لإحالته للتقاعد، ولربما كان مرد ذلك إتقانه حرفة الدبلوماسية داخلياً وخارجياً.. فتأمل !

والأستاذ صلاح أحمد إلى ذلك شاعر غنائى، صاحب أثر إيجابى فعال فى إثراء الغناء السودانى الحديث بقصائد أثرت الوجدان وحظيت بالاحتفاء لدى شريحة كبيرة من المستمعين على اختلاف أعمارهم، ومنها: أهواك، ومات الهوى، ويا مسافروناسى هواك، ويا ليالى الغرام، وداعاً يا غرامى، ونابك إيه فى هواه، إن تريدى ياليالى تسعدينا، وغيرها. وقد تغنى بها كبار الفنانين: أحمد المصطفى، وعثمان حسين، وسيد خليفة وغيرهم.

المحطة الثانية التى كانت ذات أثر كبير فى تشكيل رؤية وغرام الأستاذ صلاح أحمد بأغانى الحقيبة تتمثل فيما عايشه من محبة خاله السيد الطاهر أحمد حمدنا الله وإعجابه أشد ما يكون الإعجاب بأغانى الرواد الأوائل من الفنانين وفى طليعتهم: الحاج سرور، وكرومة، والأمين برهان، وإبراهيم عبد الجليل، وعلى الشايقى، وعلى أبو الجود، وعبد الله الماحى، وعوض وإبراهيم شمبات. وكان الخال بيمم شطر أرض الكنانة سنوياً ترويحاً للنفس وحرصاً على اقتناء الأسطوانات الجديدة التى سجل فيها هؤلاء الفنانون الكبار أغانيهم بإشراف شركة بيضافون المصرية. وتكونت لدى الخال الطاهر حمدنا الله نتيجة مقتنياته من الأسطوانات مكتبة كبيرة، كان بها حفياً وعليها حريصاً أشد ما يكون الحرص، وحفظها إمعاناً فى التحقق من سلامتها فى حقيبة كبيرة لا يقربها أحد، تأميناً لها من الضياع. ولعل صورة هذه الحقيبة ظلت مختزنة فى ذاكرة الأستاذ صلاح أحمد فرآها بعين خياله عندما ابتدع اسم برنامج: «من حقيبة الفن».

يضاف إلى ذلك أن من آيات إعجاب الطاهر حمدنا الله بأغانى الرواد الأوائل أنه كان شديد الحرص على الاحتفاظ بالنص الكامل لهذه الأغنيات. وقد كانت نصوص معظم هذه الأغانى تنشر وتقتند استجابة لطلب القراء فى مجلة هنا أم درمان التى عرفت لاحقاً بـ «مجلة الإذاعة والتلفزيون والمسرح». ظل هذا الكنز من المجلات مرجعاً أساسياً لأغنيات ما عرف لاحقاً بحقيبة الفن، ولولاه لصعب أو استحال فى بعض الحالات التوصل للنص الكامل لبعض الأغنيات الخالدة. جوهر الموضوع أن الأسطوانات والمكتبة التى حفظت نصوص الأغنيات قد كانت منهلاً ثرياً وموحياً للأستاذ صلاح أحمد، وإليها يعود بعض الفضل فى تشكيل رؤيته العبقرية فى إعادة إنتاج هذه الأغانى فى منظومة حقيبة الفن.

أما المحطة الثالثة ذات الأثر فى تشكيل منظور الأستاذ صلاح أحمد لأغانى الرواد الأوائل فقد كان نتاج سكنه فى دار تحظى بموقع فيما يمكن تسميته بشارع الفن. إن دار أسرته فى حى الركابية على مقربة من دار الحاج سرور وكان فيصل سرور صديقه، وعلى قرب أيضاً من دار كرومة، وهو فى ذات الوقت غير بعيد من ود البنا مقر الشاعر الفنان عبد الله البنا. ولم تكن دار الفنان الشاعر ورائد المسرح خالد أبو الروس ببعيدة من داره. لكل هذا فقد عاش فى بيئة الفن، والغناء الحديث بشكل خاص لحمتها وسداها. ومن جانب آخر فقد كانت كل هذه الأغنيات الشجية الرصينة تذاع من «الفونغرافات» المنتشرة فى مقاهى سوق أم درمان وهو على مرمى حجر من داره. لكل هذه الظواهر مجتمعة فقد أضحى صلاح أحمد مشبعاً بهذه الأنغام، وبهذه الكلمات الرصينة، وبهذا الأداء المتفرد للرواد الأوائل من أساطين الغناء السودانى. وكان من الطبيعى أن يضيف ذلك إلى تأصيل وتعميق تشكيل رؤيته ومنظوره لأغنيات الحقيبة.

وغنى عن القول أن لأسرته أثرها البين فى تشكيل وجدانه وفكره وميوله، فهو ابن المعلم والشاعر والسياسى الحصيف والوطنى الغيور الأستاذ أحمد محمد صالح، الذى كان يلقب بالإنجليزى الأسود لتمكنه من إجادة اللغة الإنجليزية. وكان فى ذات الوقت من أكثر شعراء العربية جزالة ورصانة، إضافة إلى تمتعه بالصدق الفنى



إبراهيم عبدالجليل



على محمد شمو



صلاح أحمد صالح

والإبانة فى التعبير عن فكره ومشاعره. فى هذه البيئة المترعة بالثقافة، الحفية بالشعر، نشأ صلاح ولابد أنه حظى بالتشجيع من والده لنظم الشعر والاستنارة بدواوين الشعراء التى تحفل بها مكتبة الوالد. كما أن صلاح فى أغلب الظن، وهو ظن أقرب إلى اليقين، كان يسترق السمع لأحاديث رجال السياسة والأدب، والشعر خاصة، الذين يزورون والده، ويلجأون إليه كمستودع حكمة وشاعر متميز ليعرضوا عليه البعض من أفكارهم وقصائدهم. كان صلاح يستمع إلى كل ذلك فتتعمق فى ذات نفسه، وفى عقله الباطن كل هذه الرؤى، والأفكار، والمشاعر، والألحان فيزداد بها ولعاً، وعليها حرصاً. وتكونت نتيجة لكل ذلك رؤيته العبقرية فى ابتداع حقيبة الفن.

لقد ولدت فكرة «حقيبة الفن» فى فكر صلاح أحمد، وخرجت من العقل الباطن إلى طور الرؤية الإبداعية المتكاملة فى لندن. تلك معلومة قد تدهش الكثير من القراء، وهى حقيقة لا جدال. قد كان صلاح حينئذ مذيعاً بالإذاعة البريطانية يعمل مع نخبة من المذيعين العرب للتعريف بصورة مباشرة وغير مباشرة بالحضارة العربية وتراثها الثقافى الثرى فى العديد من مجالات الآداب والفنون. وقد برزت وقتئذ فكرة برنامج للتعريف بتاريخ الغناء فى البلاد العربية، وكان من الطبيعى أن يعهد بتقديم البرنامج عن تاريخ الأغنية السودانية للأستاذ صلاح أحمد.

يقول صلاح: بدأت الكتابة بالعودة إلى عهد الطنابرة والدوبيت والترانيم المرتجلة حتى عهد الأغنية الحديثة. وكانت طبيعة البرنامج تستوجب تقديم نماذج غنائية. استعنت عليها بما كنت أملكه من أسطوانات سودانية وما توافر لدى بفضل ما قدمه السودانيون المقيمون فى بريطانيا وقتها.

ويحدثنى صلاح قائلاً: إن ما توافر له من أغنيات وقتها لم يكن فى نظره كافياً، حيث إنه كان يرى أن قصيدة «عزة فى هواك» للشاعر الرائع خليل فرح هى القمة التى لا يمكن تجاوزها فى تاريخ الأغنية السودانية الحديثة. إنها أغنية خالدة فى فكر ووجدان كل سودانى. ولهذا رأيت أهمية تقديمها فى البرنامج لضمان نجاحه، غير أننى لم أعثر على تسجيل لها

بالرغم من مساعى الجادة، واضطررت إلى تأجيل تقديم البرنامج حرصاً بأن تكون «عزة» فى صدر مختاراته. وفجأة خطر لى أن أحاول تقديم الأغنية، بتوزيع موسيقى جديد، وبمجهود محلى فى لندن. وعرضت الفكرة على الأستاذ نعيم البصرى رئيس وحدة الموسيقى فى القسم العربى بالإذاعة البريطانية آنذاك، الذى تحمس لها وأبدى رغبة بالمشاركة بضرب الطبل. ورحب الأستاذ المبعوث وقتها خليفة خوجلى بالغناء وهو يمتلك صوتاً فارهاً أقرب الأصوات إلى صوت الأستاذ عبد العزيز داود، وعزف على آلة الكمان الأستاذ الماحى إسماعيل الذى كان مبعوثاً للتأهيل فى علوم الموسيقى، واستعنا بمواطن أرمنى يجيد العزف على البيانو وتدوين النوته الموسيقية. بفضل من الله تعالى وتوفيقه كتب لجوقتنا الموسيقية تلك النجاح، فكانت أغنية «عزة فى هواك» دُرة ذلك البرنامج، وواسطة عقده ومنظومته من الأغانى السودانية الخالدة.

حدثت هذه التجربة الأولى فى عام ١٩٥٣، وظلت الفكرة حية ومتجددة فى ذهن ومشاعر الأستاذ صلاح أحمد. وقد كان من نتاج عدم حصوله على تسجيل لأغنية «عزة فى هواك» أن انتابه الخوف من ضياع التراث الغنائى السودانى نتيجة لعدم توثيقه وحفظه. من هنا برزت إلى موقع الصدارة فكرته العبقرية فى تقديم برنامج من الإذاعة السودانية تكون رسالته الأساسية حفظ التراث الغنائى السودانى وتوثيقه، بل إعادة إنتاجه بمصاحبة الآلات الموسيقية الحديثة التى أصبحت سمة ملازمة لكل الأغنيات الجديدة بعد افتتاح الإذاعة السودانية.

عند عودته للإذاعة السودانية فى عام ١٩٥٤ شرع الأستاذ صلاح أحمد لوضع رؤيته فى إعادة إنتاج أغنيات الرواد الأوائل للأغنية الحديثة موضع التنفيذ. واجهته صعوبات تمثلت فى عدم العثور على النصوص الغنائية المكتملة، فاستعان على ذلك بمكتبة خاله الطاهر حمدنا الله، التى عرفها منذ أيام صباه، ومكنه الخال من الاستعانة بما كان يدخر من مجلة «هنا أم درمان» التى عرفت لاحقاً بـ «مجلة الإذاعة والتلفزيون والمسرح»، ومن مقتنياته من الأسطوانات التى كان بها حفياً. هذا المصادر كانت منهلاً لبرنامج حقيبة الفن.











وبدأ صلاح اختيار بعض النصوص الغنائية وتوزيعها على بعض المطربين المحدثين. وتبادر إلى ذهنه تسمية برنامجه «من حقيبة الفن». ترى هل جال بخاطره وقتئذ حقيبة خاله التى كان يحتفظ فيها بمقتنياته من أسطوانات الرواد الأوائل للأغنية السودانية الحديثة. ربما. وربما كان ذلك لأثر حقيبة قسم الأخبار بالإذاعة وما تحدثه من صوت عند فتحها وإغلاقها.

يقول صلاح: كانت هناك حقيبة حديدية سوداء فى قسم الأخبار فى الإذاعة، وكان مقره آنذاك فى الخرطوم، بينما كانت الاستديوهات فى أم درمان. وتذكرت أن الحقيبة تحدث صوتاً عندما أفتحها، ولم تكن لنا معرفة آنذاك بالمؤثرات الصوتية. من هنا برزت فكرة ابتداء البرنامج بصوت فتح الحقيبة، وبصوت إغلاقها عند نهاية البرنامج.

بدأ صلاح برنامجه عظيم الأثر، «من حقيبة الفن» لمدة ساعة كاملة حياً وعلى الهواء مباشرة فى يوم السبت ١٨ نوفمبر ١٩٥٤. وابتدر الحديث بقوله: (اليوم أنفض الغبار عن تراث الأغنية السودانية الأصيلة.) وقد راق هذا التعبير لست البنات، الفتاة اللجناء بحيهم، فظلت تنقل خبر البرنامج الجديد من دار لأخرى مرددة القول: (بارك الله فى صلاح النفض العبار). قد وفق صلاح فى استهلاله البرنامج بهذه الكلمات الموحية، ووفقت ست البنات بدعواتها الصادقة لمباركة ما قام به صلاح من إنتاج برنامج إذاعى عظيم الأثر.

قدم صلاح فى حلقته الأولى من حقيبة الفن أربع أغنيات بأصوات فنانين محدثين وبمصاحبة الآلات الموسيقية الحديثة:

- «عزة فى هواك»، غناء الأستاذ عبد العزيز محمد داود.
- «أنا ما معيون»، غناء الأستاذ أحمد المصطفى.
- «الزمان زمانك»، غناء الأستاذ عثمان حسين.
- «متى مزارى»، غناء الأستاذ سيد خليفة.

وجد برنامج «من حقيبة الفن» ترحيباً هائلاً من شريحة كبيرة من المستمعين تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والسبعين. وانهالت الرسائل بالمئات لاسيما من الجيل الذى عاش شبابه إبان تصدر تلك الأغنيات الرصينة للمحافل، فقد أعادتهم إلى أيام الشباب وذكرياته العذبة.

فى شهر نوفمبر الماضى، وعلى وجه التحديد فى ٢٠٠٤/١١/١٨ كان العيد الذهبى لبرنامج حقيبة الفن. خمسون عاماً على ميلاد هذا البرنامج الرائع الذى عطر حياتنا بهذا الغناء الأصيل، الثرى بالكلمات المترعة بالجمال، الغنى بالألحان الشجية، والأداء الصادق المعبر.

من الطبيعى أن يتحقق لبرنامج حقيبة الفن كل هذا النجاح وكل هذا الأثر العميق فى تشكيل الوجدان السودانى. وما تأتى له ذلك إلا بتوافر أربع عبقريات تفاعلت تفاعلاً حياً مع بعضها البعض ليكون نتاجها هذا البرنامج الرائع. وتتمثل هذه العبقريات الأربع فى:

- عبقرية مبتكر الفكرة الأستاذ صلاح أحمد محمد صالح الذى اختزن الفكرة منذ أيام الصبا فى عقله الباطن، ورعاها، وابتدع رؤية إعادة إنتاج أغانى الرواد الأوائل بأصوات المطربين المحدثين وبتوزيع موسيقى يقوم على استخدام الآلات الموسيقية الحديثة، وأمعن فى إتقان دوره بالتثبت من نصوص الأغانى الكاملة والصحيحة، واختيار من اختار من المطربين الذين يتسق صوت كل منهم مع الأغانى التى حظى بتقديمها.
- والعبقرية الثانية تتجسد فى النجوم المضيئة، المشرئبة إلى السموّ والسماء، شعراء الحقيبة ومن نسج لاحقاً شعراً بديعاً على منوالهم. لقد غذوا الوجدان الوطنى برصانة الكلمة، وسموّ المعانى، وجزالة اللغة، وأحيوا فى النفوس نشوة الطرب بما انتظم فى قصائدهم من أوزان وموسيقى هامسة وجهيرة فى آن.

وظلت قصائدهم الحسان دائماً صادقة ومعبرة عن رؤاهم ومشاعرهم، وثقافتهم وبيئتهم التى تغنوا بمفاتنها ومحاسنها كأجمل وأعظم ما يكون الغناء.

تحية تقدير وإعزاز لشعراء الحقيبة: خليل فرح، وإبراهيم العبادى، ومحمد الرضى (ود الرضى)، وصالح عبد السيد

(أبو صلاح)، وعمر البنا، وسيد عبد العزيز، وأحمد محمد حسين (العمرابى)، ومحمد عبد المطلب (حدباى)، ومصطفى الحاج بطران، واحمد عبد الرحيم حامد (العمرابى)، وعلى المساح، وعبيد عبد الرحمن، ومحمد على عبد الله (الأمى)، ومحمد بشير عتيق، وعبد الرحمن الريح، ومصطفى التنى.

• أما العبقرية الثالثة فتتمثل فى أساطين الطرب، الذين أبدعوا فى الأداء وأتقنوا أساليب إثارة كوامن النشوة والفرح. ويأتى فى طليعتهم عميد الفن السودانى الحاج محمد أحمد سرور، وعبد الكريم عبد الله مختار الشهير بـ «كرومة»، وابراهيم عبد الجليل عصفور السودان، والثنائى عوض وابراهيم شمبات، وبشير الرباطابى، وأولاد الموردة، وأبو عثمان جقود، ومن ترسم خطاهم، وحفظ لأغانى الحقيبة روعتها من المطربين المحدثين أمثال: عبد العزيز محمد داود، أحمد المصطفى، عثمان حسين، سيد خليفة، عبد الكريم الكابلى، عبيد الطيب، بادى محمد الطيب، عوض الكريم عبد الله، أحفاد البنا، صلاح بن البادية، حمد الريح وغيرهم.

• وللعبقرية الرابعة دور لا يمكن أن ينساه المؤرخ المنصف لحقيبة الفن، تلك الأدوار والإضافات الثرية والموحية لسلسلة موصولة من المبدعين الذين تعاقبوا على تقديم برنامج حقيبة الفن. وأخص بالذكر منهم الأساتذة: على محمد شمو، والمبارك إبراهيم، ومبارك المغربى.

لكل هذه العبقريات مجتمعة ازدانت ساحة الغناء السودانى الحديث بأغانى الحقيبة، وتعمقت جذورهـا فى الوجدان الوطنى، وطرب لها أهل السودان على اختلاف أعمارهم، وظلت دائماً نبعاً ثراً ومتجدداً ينهل منه أهل الفن والغناء.

وتظل الحقيقة الذهبية ماثلة فلم يكن الأثر الإيجابى الفعال لحقيبة الفن مقصوراً على الأغنية السودانية، فقد كانت تداعيات فكرتها القائمة على إعادة إنتاج الفن الرصين وتوثيقه، ذات أثر على فنون أخرى ومنها ما عشنا من إحياء وإعادة إنتاج فى برامج إذاعية مبتكرة للمدائح النبوية وللأغنية الشعبية. جوهر الموضوع أن فكرة صلاح أحمد العبقرية فى إعادة إنتاج الأغنية الحديثة كانت ولا تزال مركز الدائرة لنهضة متميزة فى العديد من ألوان الفن السودانى.

بمثل هذا النموذج الرفيع الذى ابتكره صلاح أحمد فى برنامجه حقيبة الفن يكون للثقافة معناها فى إحياء التراث وفى استلهام التراث. وإحياء التراث واستلهامه كما يقول الدكتور فهمى جدعان، المتمثل فى الوثائق والنصوص والمبدعات الفنية، أدبية أو علمية، من شأنه أن يوضح ويجلى صورتنا التاريخية ويساعدنا على تجسيدها فى حياتنا الراهنة. ذلك يكون بـ «تثقف» هذا التراث وتنميم وجودنا به، أى بتحويله إلى جوهر ثقافتنا وبنيتها الصميمية. بهذا ينتقل التراث إلى حالة «التثقف العام»، وبهذا يكون من المؤكد بلورة «تراث حى» يمكن إدماجه فى منظومة الحاضر وإخراجه من «حلقات الصفوة» إلى «ثقافة» معيشة، والانتقال إلى المرحلة الأهم، مرحلة التثقف التراثى العام.

وتظل «عزة فى هواك» درة حقيبة الفن، وواسطة عقدها النضيد، تزداد على مر الأيام طلاوة حتى أصبحت بمثابة الحداء الوطنى الخالد. تجئ هذه القصيدة المتفردة فى خمسة عشر بيتاً، ملتزمة بلزوم ما لا يلزم - ما عدا المقطعين الثانى والثالث - وهو يعد آية مطلوبة ومألوفة فى الشعر الغنائى وقتئذ، مترعة بجزالة اللفظ، وصحوْ الكلمات، وتناغم جرس المفردات التى تبعث فى النفوس نشوة الطرب.

أنشأ الشاعر خليل فرح (١٨٩٩ - ١٩٣٢) هذه القصيدة الوطنية الخالدة بمصر أخريات العشرينيات من القرن الماضى، وكان آنذاك نزيل مستشفى المواساة بالإسكندرية. والقصيدة رمزية وطنية، رمز إلى الوطن بكلمة «عزة»، وأشار إلى بعض معالم العاصمة المثلثة كأنموذج ومركز القلب للوطن، واستثار وطنية كل أبناء جيله، داعياً للثبات كالجبال، واليقظة والجد فى محاربة الاستعمار، وتغنى فى ذات الوقت بمراتع

وجد برنامج «من حقيبة الفن» ترحيباً هائلاً من شريحة كبيرة من المستمعين تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والسبعين، وانهالت الرسائل بالمئات

إذا نظر عشاق الفن الغنائى السودانى فى اختيار سبع قصائد تماثل المعلقات السبع العربية، فلا جدال أن قصيدة «عزة فى هواك» ستكون إحدى هذه القصائد

وملاعب الشباب ومواطن الجمال. إنك لتشعر وكأنه يتلمس الكلمات، ويختار لك منها من بستان يملكه ما يعبر فى صدق عن مشاعره الوطنية، ليشجيك ويغنيك، ويزيدك زهواً بوطنك، ويعمق فى نفسك إرتخاص كل غال للذود عن حياض هذا الوطن الجميل. والشعر لا تحمله السطور، بل ما وراء آفاق السطور من مشاعر ومبادئ وأنغام يتردد ويزداد بريقها عبر الأجيال. هذه القصيدة الرائعة وحدة متكاملة، يكمل البعض منها البعض الآخر، وليس من اليسر الاستشهاد ببعضها حيث إن ذلك لا يغنى عن الأبيات الأخرى. تأمل هذه المعزة لعزة، وهذا الكبرياء الأصيل، وهذا الشوق الجارف للعودة، وهذه الاستثارة الحميمة للذود عن حياض الوطن:

عزة فى هواك نحن الجبال
للبخوض صفاك نحن النبال
عزة ما بنوم الليل محال
بحسب النجوم فوق الرحال
عزة ما سليت وطن الجمال
ولا ابتغيت بديل غير الكمال
عزة فى الفؤاد سحرك حلال
ونار هواك شفا وتيهك دلال.

ويخيل إلىّ إذا نظر عشاق الفن الغنائى السودانى الحديث فى اختيار سبع قصائد تماثل المعلقات السبع العربية التى ظلت الأجيال العربية تحفظها بشرح الزوزنى، فلا جدال أن قصيدة «عزة فى هواك» ستكون إحدى هذه القصائد، بل أكاد أجزم أنها ستكون أولى هذه المعلقات، فهى إضافة إلى طلاوة جرسها أعظم أغنية وطنية فى تاريخ السودان الحديث.. فتأمل!

ولعله من الأهمية بمكان، أن ننظر فى إطار نظرتنا لميلاد برنامج حقيبة الفن - الذى أعاد إنتاج أغنيات الرواد الأوائل - فى المراحل السابقة لميلاد الأغنية الحديثة.

إن القارئ المتأمل للمصادر التاريخية وللإفادات الرواة يلمس أن هناك ما يقرب من الإجماع على أن ميلاد الأغنية السودانية قد كان مع مستهل القرن العشرين. غير أن ذلك لا يعنى أنه لم يكن هناك ثمة غناء قبل مطلع القرن العشرين. كانت

هناك بعض ألوان الغناء والتطريب مثل أغنيات «الدلوكة» في الأعراس خاصة، والحداء في البادية، و«الدوبيت» وهو أكثر هذه الألوان شيوعاً حيث وجد حظاً من الرعاية والعناية من مجموعة مستنيرة من الشعراء، وتشير بعض المصادر أنهم كانوا نحو خمسة عشر شاعراً غنائياً من أبرزهم: إبراهيم العبادي، ويوسف حسب الله الملقب بسلطان العاشقين، وصالح عبد السيد الملقب بأبي صلاح، وخليل فرح، وأبو عثمان جقود، ومحمد عثمان بدري.

كانوا يغنون «الدوبيت».. ذلك عهد المطرب والطنابرة، و«الطمبور» في هذا السياق لا يعني آلة موسيقية، بل يعني أداء صوتياً منغماً تقوم به الجوقة التي تقف خلف المغني. وأغنيات الطنبور عبارة عن مقاطع قصيرة يؤديها المطرب الأول ثم تتبعه الجوقة من الطنابرة، ومن نماذج ذلك:

يا جميل أقرب
أكشف الشلاخ
خلني أطرب
بي هواك هضرب
ومن جفاك ألذ
قرصة العقرب

ولقد أحدث قدوم محمد ود الفكي من كبوشية إلى أم درمان نقلة نوعية بينة في تاريخ الغناء السوداني الحديث. كان قدومه الثاني قبيل عام ١٩١٥ حيث أنه قد زار العاصمة نحو العام ١٩٠٠. وقد ود الفكي، كما يقول الأستاذ السر قدور الفنان والراوية لتاريخ الغناء السوداني:

جاء محمد ود الفكي إلى أم درمان من منطقة غنية بالنغم، وفي قلبها مدينة كبوشية التي يجوز أن نطلق عليها عاصمة الغناء إذا جاز التعبير، فهي مدينة عريقة في فنون الغناء والطرب. وإلى جانب فنون الغناء فإن المنطقة غنية بالمدائح النبوية، والإنشاد، وفنون الدوبيت قولاً وتطريباً.

كما أن الشيخ محمد ود الفكي بحكم نشأته الدينية (علماً بأن والده الفكي بابكر كان فقيهاً متمكناً ذائع الصيت، وقد ساءه انصراف ابنه للغناء) على دراية بفنون التجويد وضبط الأصوات ومخارج الحروف. قد استفاد ود الفكي من هذه الحصيلة من ناحية، ومن ناحية أخرى أفاده عدم الانتماء إلى إحدى المجموعات القبلية في العاصمة أن يصبح مطرباً عاماً، وهو بالتالي أول











مطرب سوداني يخرج من إطار الانتماء القبلي إلى رحابة الانتماء القومي. وقد اعتمد ود الفكي في بداية مشواره الفني على ما حمله معه من فنون النغم وجاء به من منطقته كبوشية، ثم سرعان ما سعى إلى التجديد متعاوناً مع شباب العاصمة الذين يعبرون عن روح عصر جديد، ومن هؤلاء يوسف حسب الله ومحمد عثمان بدري وإبراهيم العبادي.

ويثبت الأستاذ السر قدور أن ود الفكي أصبح بعد فترة مطرب المدينة الأول، وطور أسلوبه في الغناء، واتخذ لنفسه أسلوباً وسطاً بين ألحان الغناء الشعبي وألحان المدائح النبوية. وقد تأثر في هذا الأسلوب الجديد بالبيئة النغمية المتنوعة في أم درمان. وبدأ الشعراء الشباب يؤلفون له الرميات الجديدة. وكان أكثرهم إبداعاً في هذا اللون الشاعر محمد ود الرضي الذي طور أسلوب الرميات فجعل كل مجموعة منها تمثل وحدة فنية (عضوية) بعد أن كان المطرب يقدمها متناثرة وأحياناً متنافرة. ومن أشهر رميات ود الرضي «طابق البوخة»:

طابق البوخة
قام ندا يهتف
نام من الدوخة
إيده عاقباهو
الجدلة مملوخة
لي معالق الجوف
موسة مجلوخة

وتمثل الرميات الإيقاعية التي استخدم فيها ود الفكي إيقاع العصاية أو النقر بالعصاية المرحلة الثانية في تطور فنه الغنائي. وقد شارك في هذه التطور شعراء كان لهم القدر الأكبر في ميلاد الأغنية السودانية، يأتي في طليعتهم العبادي وأبو صلاح وعمر البنا، ولا تزال قصائدهم الغنائية هي الدرر الغوالي في التراث الثري لحقيبة الفن.

بلغ ود الفكي من الشهرة أوجاً عظيماً، وتأثر بأسلوبه العديد من المطربين يأتي في صدارتهم الحاج محمد أحمد سرور الذي يعد بحق المؤسس للأغنية القومية الحديثة. قد تتلمذ سرور على ود الفكي وسار على نهجه، ووجد كل المساندة والتشجيع من الشاعر إبراهيم العبادي. والعبادي من قبل ومن بعد فنان شامل: شاعر غنائي، وكاتب مجموعة من المسرحيات أشهرها

مسرحية الملك نمر التي ألفها عام ١٩٢٧، وصاحب ديوان أستاذ الأغاني الذي قدم فيه نماذج لأسلوب كتابة الأغنية الحديثة، وأول من بادر بالدعوة في عام ١٩٢٣ لاتحاد يضم الشعراء وكل المطربين والمهتمين بتطوير الفن الغنائي.

أما النقلة النوعية الكبرى في تاريخ الأغنية السودانية فقد حدثت محض صدفة موفقة. قصد «الطنابرة» أن يفرضوا سطوتهم على الفنان سرور، ويعكروا بهاء تلك الليلة المفرحة، فجاءت الأقدار بعكس ما أرادوا فكانت تلك الليلة معلماً بارزاً لأفول مجد «الطنابرة». يحدثنا الأستاذ حسن نجيلة، في كتابه الممتع «ملامح من المجتمع السوداني» - الجزء الثاني - الصفحة (٦٠) عن هذا الحدث الكبير الذي غير مجرى الأغنية السودانية، وأحدث فيها تطوراً نوعياً ومميزاً بقوله: كان ذلك عام ١٩٢٠ في زواج التاجر المعروف بشير الشيخ في أم درمان، فقد تجمع الشباب من الجنسين لإحياء حفلة رقص كالمتعارف آنذاك. وجاء سرور وفي رفقته صديقه الفنان الأمين برهان. استعد سرور ليبدأ (رمياته) ويتبعه «الطنابرة» الذين تآمروا في تلك الليلة على سرور وقرروا ألا يطمبروا معه لأنه اختلف معهم في الطريق الذي يؤدي به رمياته خلال الطمبور.

كان سرور ينزع للتجديد بطبعه، وهم يريدونه أن يلتزم بالمتعارف آنذاك. الفتيات جالسات على الحصير (السباتة) في انتظار ابتداء الغناء والطنبور، وأصدقاء العريس يملأون الدار، والفنان سرور حائر ماذا يفعل وقد أصر الطنابرة ألا يسايروه مكايدة منهم!

وهنا طلب المجتمعون من سرور أن يغني لهم دون طنبور. وغنى سرور وسانده الأمين برهان. وكانت مفاجأة سارة عندما قامت فتاة جريئة، ونفضت الثوب، وأخذت ترقص في رشاقة على نغمات سرور وبرهان دون طنبور.

وكان هذا أول حدث من نوعه، وتتالت الفتيات يرقصن في تلك الليلة الساهرة، على نغمات سرور وبرهان وقد أبدعن أيما إبداع. وكانت الأغنية التي رقصت عليها أول بنت من كلمات العبادي مطلعها:

وقفت شيء عجيب فى الدارة
وأسفرت اللثام عن الدارة
تتختل دلال وقدارة
وسهم الحاظها ما بداره
جات تتمايل العرجونة
ديان خدها الطربانا
زى الزهرة فى إبانا

فى تلك الليلة ولد عهد جديد لفن الغناء السودانى فقد غبر الطنبور فى العاصمة الوطنية نهائياً. وظل سرور طوال أيام ذلك العرس يغنى مع زميله برهان والفتيات يرقصن على ألحانه، والمعجبون بهذا اللون الجديد يتزايدون، ومن ثم صار هذا هو طابع ليالى الأفراح.

بمحض الصدفة وأحداث ذلك العُرس الجميل كما حدثنا عنها الأستاذ حسن نجيلة كان مولد الأغنية السودانية الحديثة بفضل إبداع مؤسسها الحاج محمد أحمد سرور.

تخلصت من إسار الطنبور واشرأبت إلى ألوان جديدة من الألحان والموسيقى. ويعود الفضل فى ذات الوقت للشاعر إبراهيم العبادى، الذى ابتدع بقدراته الشاعرية الخلاقة الشكل الحديث للقصيدة الغنائية التى كانت تنحصر فى القوالب الرباعية المعروفة بالدوبيت.

وكلمة «دوبيت» فارسية الأصل معناها البيتان، ونموذجها الأقرب فى اللغة الفارسية رباعيات الخيام. والعبادى من قبل ومن بعد قد آزر سرور منذ كان يافعاً، وتعهده بالرعاية، وشجعه على اللون الجديد للأغنية السودانية حتى تسنى له تأسيس هذه المدرسة، وعقدت له إمارة الغناء الحديث بحق وجدارة.

وعندما افتتحت الإذاعة السودانية فى العام ١٩٤٠ كان من الطبيعى أن أولى الأغنيات التى بثت منها هى فرائد عميد الفن الحاج محمد أحمد سرور.

وقد كان الرجل شديد الاعتزاز بفنه وبلقبه، وبالشهرة التى بناها بجهده ونزوعه للتجويد والإتقان، وبدوره الرائد فى بناء الأغنية السودانية الحديثة.

وشهدت الفترة التى أعقبت هذه الثورة الكبرى فى تكوين وموسيقى الأغنية السودانية، أعنى الفترة من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٤٠ ازدهار الأغانى وفقاً لهذا اللون الجديد، وتم تسجيل مئات الأسطوانات فى القاهرة للرواد الأوائل من المطربين: الحاج محمد أحمد سرور، وعبد الله الماحى، والأمين برهان، وعبد الكريم كرومة، وإبراهيم عبد الجليل، والفاضل أحمد، ومن الأصوات النسائية أم الحسن الشايقية، ومهلة العبادية، وفاطمة خميس.

ولقد ذاع صيت الأسطوانات باقتناء معظم المقاهى فى العاصمة والمدن السودانية، للفونغراف، الذى كان له أثره فى نشر هذا الغناء العذب الشجى.

كما كان لزيارات الفنانين للمدن السودانية الكبرى دورها فى ترقية الذوق الغنائى، ونشر هذا الفن الغنائى الجميل والمتجدد، الذى انتقل بالمواطن من الغناء القبلى إلى الغناء القومى.

عندما بدأ بث الإذاعة السودانية بتها مطلع الأربعينيات كانت الساحة الفنية السودانية مترعة بالألحان والأنغام نتيجة مصاحبة العود والكمان لأغنيات كبار المطربين. قدمت الإذاعة حينئذ سلسلة من النجوم التى أضاءت ساحة الفن الغنائى، يأتى فى صدارتهم الأساتذة: إسماعيل عبد المعين، إبراهيم الكاشف، وأحمد المصطفى، وحسن عطية. وللفنان إبراهيم الكاشف السبق فى تجديد أساليب التلحين واستخدام الفرقة الموسيقية بديلاً عن الكورس، وما كان ذلك نتيجة دراسة سابقة بل لما تمتع به من فطرة شفيفة وذكاء فنى واجتماعى، ولكل ذلك فقد كان جديراً بلقب «أبو الفن».

فى قمة هذا الجبل الأشم من تراث الغناء السودانى وقف الأستاذ صلاح أحمد محمد صالح، ليحفر بأناة فى ذاكرة الوطن مستكشفاً روعة هذا الغناء الجميل، موثقاً له، ومبتدعاً لإعادة إنتاجه على نحو يجعله متسقاً مع ما جد من ألحان وآلات موسيقية وألوان جديدة من الأداء. كانت بذلك حقيبة الفن ولا تزال فتحاً جديداً فى عالم الأغنية السودانية. ومن حسن حظ الرواد الأوائل وحسن حظنا فى آن، أن تواصل تقديم هذا البرنامج الرائع لخمسين عاماً، تعاقبت على تقديمه سلسلة موصولة من المبدعين حرصوا على مساراته، وأضافوا إليه من إبداعاتهم. ■

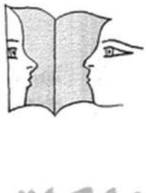
كتاب الزاوية

زكى نجيب محمود

المجتمع الجديد

ما هى الأسس الأولية التى يقترح للمجتمع الجديد أن يقوم عليها؟ أولها المساواة. مساواة على المستوى القومى ومساواة على مستوى العالم بأسره، فلكل إنسان على وجه الأرض - من حيث هو إنسان وكفى - حق نابع من فطرته البشرية نفسها فى أن يشبع حاجاته الطبيعية الأساسية من تغذية وإسكان ورعاية صحية وتعليم، لأنه بغير أن تجد هذه الحاجات الأساسية ما يشبعها إلى الحد المعقول، فإنه يتعذر على الإنسان أن يشارك فى الحياة الحضارية مشاركة مقرونة بالكرامة الواجبة. وليست المشاركة فى الحياة المتحضرة الكريمة مما يجوز أن يغنى فيه إنسان عن إنسان، لأنه «فرض عين» كما نقول فى الفقه، أى أنه فرض مفروض على كل إنسان باعتباره إنسانًا.

والمجتمع الجديد المقترح ليس مجتمعًا استهلاكيًا على الصورة التى نراها اليوم فى البلاد المتقدمة والغنية، بل هو مجتمع إنتاج، والإنتاج فيه تحدده الحاجات الطبيعية الضرورية لكل إنسان، لا الربح الذى يجىء أو لا يجىء، فلا ينبغى للاستهلاك أن يكون غاية فى ذاته، كما هو الحال الآن. إذ ننتج من السلع ما لا تقتضيه الحاجة، ننتجه لا لشىء إلا ليلهو به أصحاب الثراء، فى الوقت الذى نترك فيه ملايين الناس يعوزهم سد حاجاتهم الضرورية. لكننا إذ نقول أن الإنتاج محدد بالحاجات الضرورية لا يفوتنا أن نشير إلى أن تلك الحاجات نفسها تختلف باختلاف العصور واختلاف الثقافات والحضارات، فلابد من مسايرة التغيرات الطارئة بحكم العصر وثقافته وحضارته، فما لم يكن حاجة ضرورية فى ظل ثقافة ماضية، قد يصبح الآن ضرورة لا غنى عنها، والأمثلة على ذلك كثيرة.



عندما ينظر الكاتب إلى نفسه

شوقي ضيف

■■ لعل أقدم صورة للترجمة الشخصية تلك الكلمات التي كان ينقشها القدماء على شواهد قبورهم، فيعرفون بأنفسهم، وقد يذكرون بعض أعمالهم. واشتهر المصريون في عصور الفراعنة بكثرة ما نقشوا على قبورهم وأهراماتهم وفي معابدهم وهياكلهم من تواريخهم وأفعالهم. وكانت تسري هذه الروح في الأمم القديمة من حولهم. وقد سجل يوليوس قيصر في كتابه «التعليقات» حروبه في الغال والحرب الأهلية بينه وبين بومبي، وعرض عرضاً بارعاً الدسائس والمؤامرات التي كان ينسج خيوطها من حوله من الأصدقاء والأعداء على السواء.

وأثر على ملوك الفرس وصايا لأبنائهم توضح سياستهم، نقلها عنهم العرب فيما نقلوه من تواريخهم وأخبارهم. وفي كتاب «تجارب الأمم» لمسكويه أن كسرى أنو شروان ألف كتاباً في سيرته وسياسته، واكتفى مسكويه في التعريف به ببعض صفحات من هذا الكتاب تصور حروبه وانتصاراته على الروم والترك والديلم، كما تصور سياسته الداخلية ونشره للعدل في رعيته وتخفيفه لمغارم الضرائب عنها، حتى تقوى على عمارة الأرض واستخراج ثمارها.

ومع مر التاريخ نشأ المؤرخون، ونشأت طبقات من المفكرين والفلاسفة، أودعت كتاباتها كثيراً من حياتها وأحوالها وتجاربها، وكان من أهم ما قرأ له العرب فصولاً طويلة في ذلك جالينوس الفيلسوف والطبيب اليوناني المشهور، فإنه ضمن كتبه الكثيرة التي نقلوها نبذاً ونوادر متفرقة عن حياته، وخاصة في مؤلفيه: «مراتب قراءة كتبه» و«فينكس كتبه» أو فهرسها الخاص. وفيهما صور نشأته وحياته العلمية تصويراً دقيقاً. ومن قوله في المؤلف الأول: «إن أبي لم يزل يؤدبني بما كان يحسنه من علم الهندسة والحساب والرياضيات التي يؤدب بها الأحداث، حتى انتهيت من السن إلى خمس عشرة سنة. ثم إنه أسلمني إلى تعليم المنطق، وقصد بي حينئذ إلى تعليم الفلسفة وحدها. فرأى رؤيا دعته إلى تعليمي الطب.. وقد أتت علي من السنين سبع عشرة سنة». ويعرض علينا في فهرست كتبه مؤلفاته وتاريخ تأليفها ويشرح ما فيها من الآراء، ويذكر بعض الحوادث التي مرت به، بحيث يمكن أن يقال إن هذا المؤلف والمؤلف السابق له ترجمة ذاتية أو شخصية لجالينوس.

وليست ترجمة جالينوس ولا ترجمة كسرى آنو شروان كل ما قرأه العرب من تراجم شخصية أجنبية فإنهم قرءوا في كتاب «كليلة ودمنة» الذي ترجمه ابن المقفع عن الفارسية ترجمة لبرزويه رأس أطباء فارس الذي نقل للفرس هذا الكتاب عن أصوله الهندية. وتبدأ الترجمة على هذا النحو:

«أبي كان من المقاتلة، وكانت أمي من عظماء بيوت الزمازمة «المجوس» وكان منشئي في نعمة كاملة، وكنت أكرم ولد أبوي عليهما، وكانا بي أشد احتفاظاً من دون إخوتي، حتى إذا بلغت سبع سنين أسلماني إلى المؤدب، فلما حذقت في الكتابة شكرت أبوي، ونظرت في العلم، فكانت أول ما ابتدأت به وحرصت عليه علم الطب، لأني كنت عرفت فضله. وكلما سددت منه علماً ازددت فيه حرصاً وله اتباعاً. فلما همت نفسي بمداواة المرضى وعزمت على ذلك أمرتها «شاورتها» ثم خيرتها بين الأمور الأربعة التي يطلبها الناس وفيها يرغبون ولها يسعون، فقلت: أي هذه الخلال أبتغي في علمي وأيها أحرى بي فأدرك حاجتي؟ المال أم الذكر أم اللذات أم الآخرة؟ وكنت وجدت في كتب الطب أن أفضل الأطباء من واظب على طبه، لا يبتغي إلا الآخرة، فرأيت أن أطلب الاشتغال بالطب ابتغاء الآخرة، لئلا أكون كالتاجر الذي باع ياقوتة ثمينة بخرزة لا تساوي شيئاً».

ثم يمضي برزويه فيقص علينا في حديث مسهب سيرته في مداواة المرضى وكيف كان يزجر نفسه عن النظر إلى من هم دونه في العلم وفوقه في الجاه والمال، وكيف كان يقبل على تقديم الخير للناس ابتغاء الدار الآخرة غير مؤثر للذة ولا منخدع بمنفعة ولا بصلة لقريب أو صديق. ثم يحدثنا أنه شك في دين آبائه وأجداده، فالتمس ديناً جديداً ودعاه ذلك إلى أن يبحث في الأديان، وطال بحثه وتفكيره وتردده. وأخيراً انتهى إلى مجموعة من الفضائل توافق كل الديانات، كما انتهى إلى النسك والزهد في الدنيا ومتاعها وشهواتها وكل ما بها من زخارف الحياة. وهي ترجمة بديعة، وإن كان يظن أنها استخدمت في الأصل الفارسي للدعوة إلى مذهب «ماني» الذي عرف عندهم والذي كان يدعو إلى رفض الشهوات واطراح اللذات، مما ليس هنا تفصيله. على كل حال قرأ العرب هذه الترجمة لبرزويه، وكان لها أثرها في تصورهم للترجمة الشخصية، وإن لم يبلغ هذا الأثر مبلغ ترجمة جالينوس لنفسه كما سنرى في الفصول التالية.

وإذا كان العرب في العصر العباسي عرفوا بعض ما كان عند الأجانب من هذه الترجمة فإنهم في العصر الحديث عرفوا أيضاً كثيراً مما كتبه الغربيون في هذا الباب، ولسنا نستطيع أن نحصي هنا أعمال الغربيين، فهي كثيرة ومتنوعة، ولكل أمة تراجمها الممتازة، بحيث يؤلف هذا الفن عند القوم، كل في محيطه وبيئته، سلسلة متلاحقة من الآثار. ومن أروع التراجم عندهم «الاعترافات» لجان جاك روسو، وهو يقول في فاتحتها: إنه سيعرض نفسه على حقيقتها ولن يموه فيها، ولن يخفي سيئة أو يزيف حسنة، إنما سيذكر الحق مجرداً، ولن ينقص منه شيئاً. ومضى فعرض حياته عرضاً دقيقاً. ولمعاصره «جيته» ترجمة شخصية سماها «الشعر والحقيقة» عرضها بأسلوبه الرائع.

وكثرت هذه الترجمة في القرن التاسع عشر: وممن ترجموا لأنفسهم فيه ستندال، وتتميز ترجمته بنظرات تحليلية في الطبائع الإنسانية في نفسه وفيمن حوله، وكان من رأيه أن الأديب ثمرة كل الظروف التي تحيط به، وبهذا الرأي تأثر في كتابته عن نفسه، وحاول أن يرد عواطفه وكل ما يتصل به إلى محيطه. ولتولستوي ترجمة معروفة سماها «طفولة وفتوة وشباب» عرض فيها حياته عرضاً دقيقاً. والفلاسفة الغربيون الذين ترجموا لأنفسهم كثيرون وهم يكشفون لنا في تراجمهم عن حياتهم العقلية وتطورها، بحيث لا يستغني عنها دارس لفلسفتهم.

ولن نستطيع أن نذكر هنا كل من ترجموا لأنفسهم في الغرب، إنما حسبنا أن نشير إلى أن هذا الفن الأدبي له تراث كبير عند القوم، وأن هذا التراث اطلع عليه أدباؤنا المحدثون، وأنهم أفادوا منه في صنعهم لتراجمهم التي نقرؤها لهم، وخاصة حين نجدهم يعرضون لأطراف حياتهم في صراحة، وحين يخوضون في المؤثرات التي أثيرت فيهم. ومن المحقق أن فن التراجم الغربية ارتقى عند القوم، حتى أصبحت الترجمة شيئاً طريفاً يقرأ، بما وضعوا فيها من اعترافاتهم، وضمنوها من سيئاتهم وحسناتهم. وليس ذلك فحسب، فهم يكتبون على ضوء الفكر الحديث وآرائه النفسية في الفرد والجماعة، وبذلك يتيحون لنا دراسة

صفحات من كتاب:
الترجمة الشخصية
شوقي ضيف
دار المعارف ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٠

ممتعة لأشخاصهم في العوالم التي ينتسبون إليها، ونقصد عوالم الفلسفة والأدب والعلم. وقد يتخذ بعضهم ستاراً من القصة، ولكن مع ذلك تعرف الحقيقة. فإذا القصة حين تغير الأسماء تصبح علماً عليه وعلى أهله وأصدقائه والأشخاص الذين عرفهم، على نحو ما هو معروف عن قصة «راعي ويكفيلد» لجولد سمث، ولم تشتهر قصته في هذا الباب كما اشتهرت قصة «ديفد كبر فيلد» لديكنز فإنه قص فيها حياته الأولى، وليس «مستر مكوبر» تلك الشخصية البديعة في القصة إلا أبوه بكل ما يميزه من سمات. ويمكن أن نقول بصفة عامة إن كثيراً من مواقف القصص، بل إن كثيراً من أبطالها يصورون كاتبها في ظروف معينة. فالكاتب كثيراً ما يستمد من واقع نفسه وتجربته الذاتية، ولا يضعف ذلك من عمله، بل قد يرفع منه أحياناً، لأنه يجعل التجربة التي نقرؤها في القصة تجربة صادقة معبرة عن واقع حقيقي.

ولعل من الطريف أن أدباءنا المعاصرين قلدوا الغربيين في العملين أو الوجهتين جميعاً، فهم تارة يكتبون تراجم شخصية كاملة، يرسمون فيها حياتهم رسماً دقيقاً، لا ينسون فيه البيئة والوسط والظروف الخارجية، وتارة أخرى يقصون على طريقة القوم قصصاً يصور حياتهم، إن لم يكن تصويراً كاملاً، فهو تصوير لبعض تجاربها. ومن أمتع ما كتب في هذا اللون قصة «إبراهيم الكاتب» لإبراهيم عبد القادر المازني. حقاً إنه لا يصح أن نعتمد كل الاعتماد على ما جاء في هذه القصة من حوادث لمعرفة حياة المازني، ولكنها في جملتها تعد تصويراً لوقائعه وتجاربه الشخصية.

وكتابة القصص على هذا النحو المستمد من حياة الكاتب لا تعد ترجمة ذاتية له بالمعنى الدقيق، لأنه يضيف إلى تجاربه تجارب أخرى من محيطه، ولكنها على كل حال تعد تعبيراً عن نفسه، وإن لم يكن تعبيراً دقيقاً على نحو ما نجد في الترجمة الشخصية التي تنحصر في تجارب الكاتب، ولا يضاف إليها أي تجربة من الخارج، ولا أي حادثة، من شأنها أن تضع ستاراً أو لثاماً بيننا وبين حقائقه.

نهج المحدثون نهج قدمائنا في الترجمة لأنفسهم، وقد اطلع من أتقن منهم اللغات الأجنبية على ما لدى الغرب من ترجمات شخصية. فكان القديم العربي والجديد الغربي باعثاً لهم على الترجمة لأنفسهم، ولعل أهم من ترجموا لأنفسهم في القرن الماضي علي مبارك، فقد كتب في مؤلفه «الخطط التوفيقية» سيرة حياته، واستخرجها منه الدكتور محمد دري الحكيم ونشرها مفردة. وهي سيرة طويلة تقع في نحو ستين صحيفة، ألم فيها إلماماً دقيقاً بنشأته وتعلمه في مصر وفرنسا، كما ألم بوظائفه وتقلباته في الحكومة وخارجها، وما قام به من أعمال وإصلاحات في التعليم وغيره. وقد كتبها سنة ١٨٨٩ للميلاد أي قبيل وفاته بقليل، فهي سيرة كاملة.

ويعرفنا في أولها بقريته «برنبال الجديدة» التي تقع في الشمال الشرقي للدلتا على البحر الصغير بالقرب من المنصورة، وكان بها أربع حارات ومسجد وكتاب ومعملان لتفريخ الدجاج وأربعة أنوال يدوية للنسيج ودكان لعطار وآخر لصباغ، وضريحان لوليين وبعض صناع كنجار للسواقي ونوتي للمراكب. وفي هذه القرية ولد علي مبارك سنة ١٢٣٩هـ/ ١٨٢٣م للشيخ مبارك خطيب المسجد وإمامه ومأذون البلدة الذي يعقد الزواج بها، ويفتي الناس في شئونهم الدينية.

ولما صلب عوده بعض الصلابة أرسله أبوه إلى كتاب القرية، وكان المقرئ فيه شيخاً ضريراً قاسياً يضرب الصغار ويعنف بهم، مما كره «علي مبارك» في التعلم وحفظ القرآن. وحدث أن رميت على أبيه وأسرته أرض، عجزوا عن دفع ضرائبها للحاكم، فبيعت بهائمهم، وسيموا العذاب على نحو ما هو مشهور عن الأسرة العلوية وحكمها لمصر في القرن الماضي. وتشتتت أسرة علي مبارك في البلاد، ونزل أبوه بعرب في الشرقية يسمون «السماعنة» فاتخذوه شيخاً لهم وكفوه مئونته. ولما استقرت به النوى أرسل ابنه إلى كتاب يعلم فيه شيخ يسمى أبا الخضر، ولم تمض مدة طويلة بعلي حتى نفر من هذا الكتاب كما نفر من كتاب بلدته السابق. فماذا يصنع أبوه؟ لقد رأى أن يلحقه بكاتب ممن يكتبون للناس في شئونهم اليومية، ولم يعجب ذلك علياً، فطوف في البلاد القريبة، ولقي كثيراً من صنوف المشقة، ومازال على ذلك حتى اشتغل كاتباً صغيراً بين يدي «عنبر أفندي» مأمور زراعة القطن بأبي كبير. وعجب علي حين رآه أسود حبشياً، وعرف عنه أنه تعلم بمدرسة «قصر العيني» فطمحت نفسه أن يلتحق بها، وأن يصبح مثله من الحكام. وعرف فيما عرف أن هناك مفتشاً للحكومة يمر بمكاتب القرى، يختار منها الطلاب النابهين، فيلحقهم بالمدرسة المذكورة. فترك عمله، والتحق بكتاب، ومر المفتش بهذا الكتاب، فأعجب به، واختاره فيمن يختارهم للمدرسة، وكانت سنه إذ ذاك اثنتي عشرة سنة. ودخل المدرسة، فلم ترقه، إذ لم تكن بها عناية بمأكل ولا ملبس، وكانت بها روح عسكرية شديدة، وكاد أن يرجع لولا أن أنعم الله عليه، فنقل إلى مدرسة الهندسة بأبي زعبل سنة ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م. يقول:

«وكان أثقل الفنون علي وأصعبها فن الهندسة والحساب والنحو. فكنت أراها كالطلاسم، وأرى كلام المعلمين فيها ككلام السحرة. وبقيت كذلك مدة إلى أن جمع المرحوم إبراهيم بك رأفت متأخري التلامذة في آخر السنة الثالثة من انتقالنا إلى مدرسة أبي زعبل، وجعلهم فرقة مستقلة، فكنت أنا منهم، بل آخرهم، وجعل نفسه هو المعلم لهذه الفرقة. ففي أول درس ألقاه علينا أفصح عن الغرض المقصود من الهندسة بمعنى واضح وألفاظ وجيزة.. فانفتح من حسن بيانه قفل قلبي ووعيت ما يقول، وكانت طريقته هي باب الفتوح علي. ولم أقم من أول درس إلا على فائدة، وهكذا جميع دروسه بخلاف غيره من المعلمين، فلم تكن لهم هذه الطريقة، وكان التزامهم لحالة واحدة هو المانع من الفهم، فختمت عليه في أول سنة جميع الهندسة والحساب وصرت أول فرقتي.. وكان رأفت بك يضرب بي المثل ويجعل نجابتي على يديه برهاناً على سوء تعليم المعلمين، وأن سوء التعليم هو السبب في تأخر التلامذة. وفي تلك السنة، وهي سنة ١٢٥٥هـ/ فرزوا منا تلامذة لمدرسة المهندسخانة ببولاق، فاختاروني فيمن اختاروه، فأقمت بها خمس سنين، وأخذت جميع دروسها، وكنت فيها دائماً أول فرقتي».

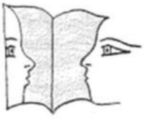
وفي سنة ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م أرسل بعث علمي إلى فرنسا، فكان بين مبعوثيه، وأقام بها خمس سنوات تعلم فيها الفرنسية وأتقنها كما تعلم الهندسة الحربية والمدنية، وعاد في عهد عباس الأول، وكانت مصر تجتاز دوراً من أدوار محنتها فقد أغلق المدارس، وخفض ميزانية التعليم إلى خمسة آلاف جنيه في العام، والتحق علي مبارك بمدرسة في «طرة»، ولم يكن فيها إلا جماعة قليلة متقدمة في السن. وفي تلك المدة تزوج بكريمة أحد معلميه في مدرسة أبي زعبل، ثم حدثته نفسه بزيارة أهله وكانوا قد عادوا إلى «برنبال». يقول واصفاً للمفاجأة والزيارة:

«فوجدت أبي قد سافر إلى مصر لزيارتي، ولم أجد في المنزل إلا والدتي وبعض أخوتي، وكان دخولي عليهم ليلاً، فطرقت الباب. فقيل من أنت؟ فقلت ابنكم علي مبارك. وكانت مدة مفارقتي لأمي أربع عشرة سنة لم ترني فيها ولا سمعت صوتي. فقامت مدهوشة إلى ما وراء الباب، وجعلت تنظر وتحد النظر وكنت بقيافة العسكرية الفرنساوية لابساً سيفاً وكسوة تشريف. وكررت السؤال حتى علمت صدقي، ففتحت الباب وعانقتني ووقعت مغشياً عليها ثم أفاقت، وجعلت تبكي وتضحك وتزغرد، وجاء أهل البيت والأقارب والجيران، وامتلأ المنزل ناساً، وبقينا كذلك إلى الصباح، والناس بين ذاهب وآيب، ثم رأيت والدتي في حيرة فيما تصنعه لي من الإكرام، وتريد عمل وليمة وهي فارغة اليد، ورأيتها تبكي، وأقمت عندهم يومين، ثم استأذنتهم ووعدتهم بالعود».

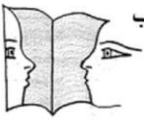
وألمت بعلي مبارك أيام بؤس ونعيم، وكان ذلك حال الموظفين المتصلين بالأسرة العلوية، وخاصة كبارهم، فيوماً يرضون عنهم ويوماً يغضبون. ولما تولى سعيد غضب عليه وألحقه بالفرقة الحربية التي سافرت لتؤازر الدولة العثمانية في حروبها مع الروس. وفي هذه الرحلة تعلم التركية وعاد إلى مصر، فكان يوظف حيناً ويطرد فيشتغل بالتجارة والهندسة الحرة حيناً آخر. وذهب عهد سعيد وجاء عهد إسماعيل فقام فيه بإصلاحات هندسية كثيرة، وأسند إليه ديوان التعليم، فنهض به خير نهوض، وهو أكبر مصلح للتعليم عرفته مصر في القرن الماضي، ولم يعن فقط بالتعليم العالي، بل عني به في جميع مراحله، يقول:

«وكانت كثرة أشغالي لا تشغلني عن الالتفات إلى ما يتعلق بأحوال التلامذة والمعلمين، فكنت كل يوم أدخل عندهم بكرة وعشياً عند غدوي من البيت ورواحي. وأعملت فكري فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية. وكانت المكاتب الأهلية في المدن والأرياف جارية على العادة القديمة ليس فيها إلا تعليم القرآن الشريف، وأقل من القليل من يتممه منهم ويجيد حفظه ويجوده ويحسن قراءته مع رداءة الخط في عامة المكاتب المذكورة. فاستحسنت إجراءها على نسق المدارس المنتظمة، فحررت لائحة بتنظيمها.. ورتب مفتشون لرعاية العمل بموجبه، وأنشأت مدارس مركزية في بعض مدن القطر كأسيوط والمنيا وبني سويف وبنها، وانتخب لكل منها المعلمون والضباط، وعين لها سائر الخدمة، ورتبت بها أدوات التعليم، ورغب الناس في تعليم أولادهم بها وكثرت فيها الأطفال. وأنشأت في القاهرة والإسكندرية بعض مكاتب على هذا الأسلوب مثل مكتبي «القربية» أحدهما للبنات والآخر للأطفال الذكور ومكتب الجمالية ومكتب باب الشعرية ومكتب البنات بالسيوفية».

وبذلك تحول التعليم في مصر من دوائره الحربية الخاصة التي أرادها محمد علي إلى دوائر



الكاتب كثيراً ما يستمد من واقع نفسه وتجربته الذاتية، ولا يضعف ذلك من عمله، بل قد يرفع منه أحياناً، لأنه يجعل التجربة التي نقرؤها في القصة تجربة صادقة معبرة عن واقع حقيقي



الثقافة الشعبية، وهى صفحة بيضاء ومأثرة جليلة لعلى مبارك، إذ نقل التعليم نقلة واسعة، ولم يقصره على الذكور كما كان من قبل، فكان ذلك نواة نهضتها العلمية. وقد فكر فى تعليم اللغة العربية، وكان تعليمها عقيماً على الطريقة الأزهرية، ولقى هو نفسه فى هذه الطريقة غير قليل من العنت، كما حدثنا آنفاً، إذ كان يرى النحو كأنه طلاسم، ولم يفتح عليه فيه، من أجل ذلك كله أنشأ مدرسة «دار العلوم» لتنهض بالدراسة الأدبية واللغوية على نمط جديد. وألحق بالمدارس مطبعة لطبع ما يلزم من الكتب لها، وأنشأ مجلة سميت «روضة المدارس المصرية»، وأقام قاعة للمحاضرات العامة. وكانت المحاضرات تلقى فيها يومياً ما عدا أيام الجمع، وإليه يرجع فضل إنشاء دار الكتب المصرية فقد جمع الكتب المتفرقة بالمساجد فى مكان واحد، وضم إليها كثيراً من الكتب الأجنبية، ونظم الاطلاع فيها والاستعارة منها. وبجانب ذلك كان يؤلف ويشجع على التأليف، للتلاميذ وغير التلاميذ.

والحق أن هذه الترجمة غنية بمعارف كثيرة، وهى معارف نطلع من خلالها على وجوه حياتنا التعليمية فى القرن الماضى، فقد تصادف أن كان على مبارك أهم من نهضوا بتلك الحياة حينئذ، وسجل كل ما صنعه فيها، بحيث تعد هذه الترجمة وثيقة خطيرة للتعليم فى عهد إسماعيل. وكان يتولى أحياناً ديوان الأوقاف أو ديوان الأشغال أو نظارتهما، فيدخل كثيراً من ضروب الإصلاح. ونراه يعرض للديون التى أثقل بها إسماعيل كاهل مصر كما يعرض لثورة عرابى. وقد عاد إلى الوزارة فى عصر الاحتلال، ولكنه لا يعرض علينا شيئاً من أعماله، فقد شل المحتلون يده، حتى ليقول: «وها أنا الآن قائم بهذا الأمر على حسب المصالح بقدر الإمكان.. وآخذ فى تأدية ما فرض علىّ قياماً بحق وطنى».

وإذا كان يؤخذ على هذه السيرة شىء فهو نكوص صاحبها عن الاشتراك فى الثورة العرابية، وهى ثورة وطنية كان من واجبه أن يخوض غمارها، وليكن ما يكون، ولكنه كان يؤثر الدعة، فغادر القاهرة إلى «برنبال» مهتماً بإصلاح أراض له هناك وزراعتها، ثم عاد فعمل مع المحتلين، وكان خيراً له أن يعتزل العمل ويظل بعيداً عن السياسة وأوزارها فى ذلك الوقت التعس الذى كان يرزح فيه الوطن تحت كابوس الاحتلال. وقد توفى سنة ١٨٩٣م.

ونمضى فى القرن العشرين فنجد كثيرين يترجمون لأنفسهم لا فى مصر وحدها، بل فى بلدان العالم العربى المختلفة، ومن أشهر من كتبوا حياتهم «محمد كرد على» أديب سوريا وعالمها الذى توفى منذ سنوات قريبة، فقد ترجم لنفسه فى نهاية الجزء السادس من كتابه «خطط الشام». ونراه يقول إنه كردى الأصل. نزح جده من السليمانية إلى دمشق فى التجارة، وفيها صادر بعض حكام الترك الظالمين أملاكه، وعاش مجرداً من ثروته، يقول:

«وخلّف والدى يتيماً فقيراً، فاشتغل لأول أمره فى صناعة الخياطة ثم فى التجارة، فأثرى مرات، وخسر مرات، وابتاع فى آخر أمره مزرعة صغيرة فى الغوطة تمززتها أنا واخوتى منذ كنا صغاراً وإلى الآن. ولدت فى دمشق أواخر صفر سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م من أم شركسية، ولما بلغت السادسة من العمر أخذت بتلقى القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الإسلامية والحساب والطبيعيات فى مدرسة كافل سيباى الأميرية، ونلت شهادتها من الدرجة الأولى. ثم دخلت المكتب الرشدى العسكرى فدرست مبادئ التركية، وكانت دروس الفرنسية ناقصة، فأتانى والدى بمعلم إلى الدار أخذت عنه نحو هذه اللغة وصرفها على الأصول مدة ثلاث سنين، وبرعت بالترجمة من الفرنسية إلى العربية وبالعكس. ولما أحرزت شهادة مدرسة الرشدية.. عينت مدة ست سنين موظفاً فى قلم الأمور الأجنبية، فأخذت فى خلالها أتقن آداب التركية.. وقد اختلفت حولين كاملين إلى المدرسة اللعازاريين للاضطلاع بآداب اللغة الفرنسية.. وقد اقتطعت مع ذلك جانباً من الوقت لدرس الآداب العربية والعلوم الإسلامية، وتلقيت اللغة الفارسية حتى حذقتها ثم أنسيتها».

ويقول إنه كان أكبر من وجهه نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى وإشراب روحه محبة العرب وآثارهم وإقدامه على النشر والتأليف أستاذه الشيخ طاهر الجزائرى، وقد انبعثت فيه رغبة شديدة إلى مطالعة كتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع وأصول الشعب ومدنياتهم. فقرأ كثيراً من كتب الفرنسيين وعكف على قراءة مجلاتهم المختلفة. ولم يلبث أن أصبح صحفياً، إذ حرر جريدة (الشام) الأسبوعية ثلاث سنين وراسل مجلة المقتطف بمصر، وأخذ اسمه يلمع ويشتهر. وزار القاهرة سنة ١٩٠١ ودُعى إلى التحرير فى مجلة الرائد المصرى، فلبى الدعوة، واختلف إلى دروس الشيخ محمد عبده ومجالسه. ثم عاد إلى دمشق وكانت عين الحكام الترك عليه، فكانوا يفتشون داره مراراً. ودعاه ذلك إلى الهجرة الثانية إلى مصر ليصدر فيها مجلته المقتبس واشترك معها فى تحرير جريدة الظاهر اليومية وجريدة المؤيد التى كان يحررها الشيخ على يوسف. وتعرف فى أثناء ذلك على كثير من رجالات مصر البارزين. حتى إذا حدث الانقلاب العثمانى سنة ١٩٠٨ شعر كما شعر غيره من العرب بأن الحكم التركى ستخف وطأة ظلمه، وأن ساستهم سيعرفون ما للشعوب من حقوق. فرجع إلى دمشق وأصدر جريدة المقتبس يومية سياسية. ويعترف بأنه لم يكن يرى الانفصال عن الدولة العثمانية، إنما كان يريد الإصلاح ما استطاع، ومع ذلك تولاه حكام الترك بالنقمة والسخط الشديد. فغادر الشام إلى فرنسا، وتعرف فيها على بعض فلاسفتها وكتابها. وكتب فى وصف هذه السياحة طائفة من المقالات وجمعها باسم «غرائب الغرب». ورجع إلى دمشق، فلقى نفس السخط من حكام الترك، فهاجر إلى مصر سنة ١٩١٢ ولقى كثيراً من المشقة فى طريقه إليها، وسرعان ما عاد إلى مسقط رأسه. على أنه لم يلبث فى السنة التالية أن رحل إلى إيطاليا وفرنسا وأواسط أوروبا باحثاً عن المخطوطات العربية النفيسة فى مكاتب الغرب، وعاد ليجد اضطهاد العثمانيين له قد تفاقم، فقد أغلقوا صحيفته «المقتبس» ووضعوه تحت رقابة شديدة. ثم عادوا بعد إعلان الحرب الأولى فى هذا القرن، فعفوا عنه، ودفعوه إلى العمل معهم والدعاية لهم فى أثناء الحرب، فصدع لمشيئتهم، وأعاد صحيفة «المقتبس» وحرر لهم صحيفة أخرى تسمى «الشرق». وبينما كان فى الآستانة أواخر هذه الحرب سقطت دمشق فى أيدى الحلفاء، فعاد إليها وتولى رياسة ديوان المعارف، وأنشأ المجمع العلمى العربى الذى لا يزال قائماً إلى اليوم. وعزل ثم أعاده الاحتلال الفرنسى إلى وظيفته سنة ١٩٢٠، وزار أوروبا وطوف فى كثير من بلدانها. ويقف هنا ليرد عن نفسه ما أشيع عنه من مديح الانتداب الفرنسى، وقد آثر أن يترك الوظيفة. ويخلص لرياسة المجمع العلمى العربى وتأسيسه. ولكن لا نصل إلى سنة ١٩٢٨ حتى نراه يتولى وزارة المعارف ويمثل دولته فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى مدينة أكسفورد بإنجلترا، ويقول إنه أنشأ كلية للآداب وأخرى للإلهيات، فتمت للجامعة السورية أربع شعب، هاتان الشعبتان وشعبة للطب وأخرى للحقوق.

ومن طريف ما تتضمنه هذه الترجمة اعتراف صاحبها بممالأته للحكام من العثمانيين والفرنسيين، وفى ذلك يقول عن صحيفته:

«كان مذهب المقتبس السياسى معاونة الحكومة بالمعقول وانتقادها عند الاقتضاء وتحبيذها إذا أتت ما تحبذ عليه. ينزع أبداً إلى إنارة الأفكار وتقوية روح القومية العربية، وسياسته وطنية ليس فيها شىء من روح الكراهية للأجانب».

وطبيعى أن يقول ذلك وهو قد اشتغل فعلاً فى الدعاية للعثمانيين فى أثناء الحرب الأولى، ثم كان ممن آزروا الانتداب الفرنسى فى حكم سوريا الشقيقة. على أن هذه صراحة تحمد له، ومن نمطها يقول:

«خلقت عصبى المزاج دمويه، مغرماً بالموسيقى العربية، محباً للطرب والأنس والدعابة، عاشقاً للطبيعة والسياحة.. وقد ولعت بالتجدد، ومن عادتى أن أقف بمعالجته عند حد لا أتعداه إلى هدم أصل من الأصول المقدسة، وأدور من الإصلاح التدريجى العلمى فى دائرة لا تتعدى الثورة فى الأفكار».

وقد شكا كثيراً من الصحف التى كانت تتحامل عليه والصحفيين الذين كانوا يسلبونه، وسمى أهم مؤلفاته، وهى: رسائل البلغاء، وغرائب الغرب. وغابر الأندلس وحاضرها، وتاريخ الحضارة، والقديم والحديث، ورواية المجرم البرىء، وقصة الفضيلة والرذيلة. وآخر مؤلفاته: خطط الشام يقول «وهو كتاب فى مدنية الشام وتاريخه، صرفت فى تأليفه ثلاثين عاماً، وطالعت لأجله زهاء ألف ومائتى مجلد باللغات الثلاث: العربية والتركية والفرنسية، وأنفقت فى سبيل تأليفه نحو ألف وخمسمائة جنيه. ويدخل فى ستة مجلدات». ويذكر طائفة من كتبه لم تطبع، ويشير إلى مقالاته الكثيرة فى المجلات والصحف وخاصة مجلة المجمع العلمى العربى. وقد توفى سنة ١٩٥٤م. ■

شهادة للتاريخ

عبد العظيم أنيس



■■ التقيت بها بالصدفة على مائدة العشاء عند بعض الأصدقاء فى الأسبوع الماضى، ولم تكن تعرف عنى غير أننى أستاذ بالجامعة، ولم أكن أعرف عنها غير أنها إنجليزية مهتمة بقضايا التعليم وأنها ليست بعيدة عن نشاط المجلس البريطانى الثقافى فى القاهرة.

ولأن مكانى على المائدة جاء مجاوراً لمكانها. ولأن أدب الحوار يقتضى نوعاً من الحديث والحوار، فقد سألتها إن كانت مقيمة بمصر منذ مدة طويلة؟.. قالت: أربع سنوات. قلت: وهل تروق لك الحياة بمصر؟ قالت: نعم باستثناء المتاعب المعروفة، المواصلات، الضوضاء، المجارى.. إلخ لكنى أحب هذا الشعب الكريم المضياف والصبور أيضاً.

ومضى الحديث على هذا النحو التقليدى حتى فاجأتنى بسؤال أطار النعاس من عيونى والملل من نفسى.

قالت: قل لى بالله كيف تسمح أنظمتكم التعليمية بدخول الحاصلين على الثانوية البريطانية «المستوى العادى» الجامعات المصرية مع أن هذه الشهادة فى بلادنا لا تؤهل الحاصل عليها إلا للخروج من المدرسة الثانوية إلى العمل، وأن الطالب فى بريطانيا عليه أن يمضى عامين فى الدراسة قبل أن تقبله الجامعة وكيف تقبل جامعاتكم طلبة لم يدرسوا لغتكم القومية، اللغة العربية، فى السنتين الثانية والثالثة الثانوية. إن الوضع الذى أراه هنا هو أن أعداداً هائلة متزايدة كل عام من الطلبة المصريين بعد نجاحهم فى امتحان السنة الأولى الثانوية فى مدارسهم المصرية يتقدمون لامتحان المجلس البريطانى فى الشهادة الثانوية البريطانية، وهى لا تتضمن بالطبع امتحاناً فى اللغة العربية، ويحصلون عليها خلال عام وبعدها يدخلون

ذكريات من حياتى
عبدالعظيم أنيس
دار الهلال. ٣٢٢ صفحة.
٢٠٠٢

جامعاتكم، فكأنهم بذلك قد وفروا عاماً كاملاً من دراستهم ووفروا مشقة دراسة اللغة العربية سنتين كاملتين، وجامعاتكم تقبلهم على ذلك! هل يمكن أن تفسر لى هذا اللغز؟ وكيف يتسق كل هذا مع مبدأ تكافؤ الفرص الذى تتحدثون عنه كثيراً؟!

قلت: هذا سؤال جدير بأن توجهيه إلى وزير التعليم فى مصر، وأمين المجلس الأعلى للجامعات، ورؤساء الجامعات المصرية، الذين قبلوا على أنفسهم هذا الوضع المهين لشهادة الثانوية المصرية، والذين رضوا على طيب خاطر بسياسة القفز من فوق القواعد الديمقراطية لدخول الجامعة مجاملة لبعض الفئات القادرة فى مصر وصاحبة الصوت العالى. ولقد فات عليك أن تذكرى أن طالب الثانوية البريطانية المصرى قد وفر على نفسه أيضاً مشقة دراسة الرياضيات فى المناهج المصرية لمدة عامين، لأنك، كما لا شك تعرفين أن مناهج الرياضيات فى الثانوية البريطانية أدنى كثيراً من مناهج مصر.

قالت: نعم أعلم ذلك، وهذا أمر طبيعى لأن شهادتنا هذه لا تؤهل أحداً لدخول الجامعة، ولو حاول أحد طلابكم من الحاصلين على الثانوية البريطانية، التقدم إلى جامعة بريطانية لرفض طلبه طبعاً. وبالمناسبة لم أفهم أيضاً، كيف قبلت السيدة جيهان السادات أصلاً كطالبة فى قسم اللغة العربية، فى كلية الآداب، مع أنها لم تؤد امتحانها فى مناهج اللغة العربية للمرحلة الثانوية؟ ألم تتقدم إلى جامعة القاهرة بشهادة الثانوية البريطانية؟

قلت - وأنا أزداد خجلاً: هذا سؤال جدير أن يوجه لرئيس قسم اللغة العربية فى كلية الآداب ولعميد كلية الآداب ورئيس جامعة القاهرة آنذاك؟

وسألتها عن عدد الطلاب المصريين المتقدمين هذا العام للثانوية البريطانية، فقالت على الفور: لدى المجلس البريطانى موعدان للجلوس إلى هذا الامتحان.. يناير ويونيو، والعدد المتقدم من الطلاب المصريين فى كل موعد يزيد على الألفين! فكم يكون العدد بعد عدة سنوات؟

ولأن العشاء انتهى بسرعة فقد حمدت الله على انصرافنا دون أن أضطر إلى إجابة السيدة الإنجليزية على هذه الأسئلة المحرجة. لكنى فكرت وأنا عائد إلى منزلى أن هذه قضية جديرة أن تفتح على صفحات الصحف مرات ومرات، وأنه، رغم أنه قد سبق لى أن أثرت الموضوع على صفحات «الأهالى» منذ عدة شهور، فإنه من الضرورة إلقاء أضواء جديدة على الظروف التى ظهرت فيها هذه «الموضة» الجديدة التى يقبل عليها بأعداد متزايدة أبناء القادرين والأثرياء لدخول الجامعة من الباب الخلفى!

إننى أعتقد أن هذا الباب الخلفى قد فتح على مصراعيه فى عام ١٩٧٤ عندما كان ابن رئيس الجمهورية السابق طالباً فى الثانوية العامة. كنت آنذاك وثيق الصلة بوزارة التربية والتعليم، فقد كنت رئيساً للجنة القومية لتعليم الرياضيات فى التعليم العام، وكنت مستشاراً للوزارة ومشرفاً على تدريب المدرسين فى الرياضيات المعاصرة، وكنت أزور المدارس الثانوية التى طبقت المناهج الجديدة، وأناقش نظار المدارس فى توزيع جدول الرياضيات على المدرسين وفى اختيار المدرسين أنفسهم للتدريس فى الفصول المختلفة، وأحضر كثيراً من الحصص بنفسى.

ومن بين هذه المدارس التى كنت أزورها آنذاك مدرسة بورسعيد بالزمالك، حيث كان جمال السادات، وكان معروفاً بالمدرسة أنه يستحيل عليه أن ينجح فى امتحان الثانوية العامة المصرية (القسم العلمى)، فما بالك بالحصول على مجموع يدخله كلية مثل كلية الهندسة!

فى هذا الوقت، بدأت صحف الحكومة فجأة تتحدث عن صعوبة مناهج الثانوية العامة، وإلى هنا فإن الأمر طبيعى إلى حد ما. لكن الأغرب من ذلك أن الموضوع دخل مجلس الوزراء.. نعم أخذ مجلس الوزراء يناقش صعوبة مناهج الثانوية العامة، وكان د. عبد القادر حاتم يرأس المجلس، وقرر تشكيل لجنة وزارية لبحث الموضوع! إن الشكوى من مناهج التعليم العام أمر طبيعى والآراء بين التربويين تتفاوت حول هذا الموضوع، لكن الطبيعى أن يدور الجدل حول هذا فى أروقة الوزارة المختصة.. وزارة التعليم. أما أن يجد مجلس الوزراء الوقت لمناقشة مناهج الثانوية العامة بالذات وفى عام ١٩٧٤ بالذات عندما كان جمال السادات طالباً بالثانوية العامة. فلابد أنه كان مصادفة سعيدة!

وقد شكلت اللجنة الوزارية لبحث هذا الموضوع من المرحوم د. حسن الشريف وزير التأمينات، ود. محمود عبد الحافظ وزير الإسكان، والدكتور كامل ليلة وزير التعليم السابق، والمرحوم الأستاذ على عبد الرازق وزير التربية والتعليم. واستدعيت أنا لحضور اجتماعات اللجنة مع أساتذة آخرين من الجامعات ومن رجال الوزارة فى مكتب وزير التأمينات. يشهد على هذه الواقعة كثيرون من رجال الجامعات منهم: د. صبحى عبد الحكيم رئيس مجلس الشورى الأسبق والذى كان يمثل مادة الجغرافيا، والدكتور محمد أنيس والذى كان يمثل مادة التاريخ، والدكتور محمد النادى الذى كان يمثل مادة الطبيعة. ولقد قلت للصديق المرحوم د. حسن الشريف ساخراً فى التليفون: «إن العلاقة بين التأمينات ومناهج الثانوية العامة لابد وثيقة، وإلا ما عقدتم الاجتماع فى وزارة التأمينات».

ولقد كان واضحاً أن الأستاذ على عبد الرازق لم يكن راضياً عن هذا العمل، ولذلك لم يحضر الاجتماع وحضر الدكتور كامل ليلة الاجتماع قرب نهايته، ودارت المناقشة أساساً بين المستشارين وبين وزيرى التأمينات والإسكان. وكان واضحاً منذ أول الاجتماع، أن مادة الرياضيات هى المستهدفة بالاختصار الشديد، ولذا دارت مناقشات حادة بينى وبين وزير الإسكان طالت لأكثر من ساعة، وصممت على موقفى برفضى طلب وزير الإسكان بإلغاء كتاب التفاضل والتكامل من مناهج الثانوية العامة، والتفت دكتور محمود عبد الحافظ إلى المرحوم دكتور حسن الشريف وقال بالإنجليزية بصوت مسموع «لا فائدة.. لا يوجد طريق للتفاهم».

وأرسل لى أستاذ جامعى تحت منضدة الاجتماع، ورقة سلمها لى دكتور صبحى عبد الحكيم - الذى كان يجلس بجوارى، يقول فيها «كفى.. إنك لن تقنع هؤلاء الناس بشىء أبداً».

وانفض الاجتماع وأنا على موقفى ورجال الوزارة من أساتذة الرياضيات متضامنون معى فى هذا الموقف مقتنعون بالأسباب التى أبديتها فى رفض طلبات وزير الإسكان.

كان هذا فيما أذكر فى يناير سنة ١٩٧٤، وبعدها نسيت الموضوع، وانشغلت بأعمال كثيرة منها وضع امتحان الثانوية العامة لدور يونيو سنة ١٩٧٤ فى الرياضيات، ومنها الإعداد لسفرى إلى بريطانيا لمدة ستة أشهر - من مايو إلى أكتوبر - كأستاذ زائر فى إحدى جامعات بريطانيا.. حتى كان يوم جمعة خلال شهر مارس سنة ١٩٧٤ خرجت فيه مع أسرتى لقضاء النهار فى «برج المنوفية»، وتناول الغداء هناك.

وعندما عدنا بعد الظهر أخبرنا الجيران أن سيارة من رئاسة الجمهورية جاءت تسأل عنى مرتين، وأن رجلاً بالسيارة ترك لدى الجيران ورقة لتسليمها لى، وعندما فتحت الورقة وجدت أنها من مكتب الرئيس ومكتوب عليها بالحبر «رجاء الاتصال بأرقام

اكتشف أبناء القادرين وتلاميذ المدارس الخاصة ما اكتشفه ابن السادات عام ١٩٧٤، وهو أن هناك باباً خلفياً لدخول الجامعات المصرية حتى لو كنت لا تعرف أى شىء عن لغتك القومية، كما لا تعرف شيئاً فى الرياضيات، وهذا الباب الخلفى يدعى «الثانوية الإنجليزية»

التليفونات..... ثم توقيع غير واضح.
وأدرت قرص التليفون بأحد هذه الأرقام وقلت: «أنا فلان... ماذا تريدون منى؟ وعرفت أن الذى يرد على التليفون هو رجل قال عن نفسه أنه العقيد رءوف، وأنه يريد أن يعرف متى يرسلون سيارة من الرئاسة لحضورى إلى منزل الرئيس لأن جمال لديه أسئلة فى الرياضيات يريد أن يسألنى فيها؟

وامتلأت نفسى بالغضب وقلت لمحدثى وأنا أحاول أن أضبط أعصابى، إنك لا شك لا تعلم أن أستاذ الجامعة يحال إلى مجلس تأديب إذا أعطى دروساً خاصة».

قال فى برود: «لا أعرف».

وقلت: «أنا واثق من ذلك.. وواثق أيضاً أنك لا تعرف أننى واضع امتحان الثانوية العامة!

قال فى برود أيضاً: «لا.. لا أعرف، وأعطيته اسم أحد المدرسين الأوائل بالمدارس الثانوية ليتصلوا به حتى يجيب على أسئلة جمال السادات فى الرياضيات، ووضعت السماعة.

لكنى بقيت فى ثورة غضب طوال الليل، وحاولت المرحومة زوجتى أن تهدئ من غضبى، وفى الصباح ذهبت إلى وزير التعليم.. المرحوم الأستاذ على عبد الرازق لأخبره بما حدث ولأعرف منه إن كان على علم بهذه المهزلة أم لا.

لقد كنت ومازلت أكن لهذا الرجل محبة، لسابق معرفتى به، ولم أكن أتصور أن يكون له صلة بهذا الموضوع. ولقد أثنى الرجل على موقفى، لكنى وجدته يحاول أن يقنعنى بالذهاب مرة واحدة إلى منزل السادات لتقييم «الولد» كما قال: فأمه منزعجة بسبب حالته وهى تخشى عليه من الرسوب فى الامتحان ولا تعرف ماذا تصنع!

وفهمت من الوزير أنها كثيرة الاتصال به فى هذا الموضوع، وأنه يشعر بحرج شديد.

قلت له:

«لماذا لا ترسل أحد مفتشى الوزارة أو مدرسيها الأوائل لتقييم الولد، إن كانت المسألة مجرد تقييم. إننى أريد أن أعرف من الذى أعطاهم اسمى بالذات».

قال الوزير:

«إن اسمك موجود على الكتب، والكل يعرف أنك تزور المدارس كثيراً لمتابعة مشروع الرياضيات المعاصرة الذى بدأ مع اليونسكو.

وصممت على رفض طلب الوزير وقد حاول أن يستخدم معى حججاً أخرى، فقد قال:

«إن السادات خارج من حرب أكتوبر، وليس لديه وقت للإشراف على الولد».

وضحكت، وقلت:

«هل تريد أن تقنعنى أن السادات لو لم يكن خارجاً من حرب أكتوبر لساعد ابنه فى الرياضيات؟ إننى بصراحة لا أتوقع من وزير التعليم أن يطلب منى هذا الطلب».

وانصرفت من مكتب الوزير حزيناً وتملكنى الشعور بأن ما حدث بالأمس ليس إلا المحاولة الثانية، بعد فشل المحاولة الأولى فى اختصار المناهج بشدة على يد اللجنة الوزارية، وكان أشد ما أحزننى هو الشعور بأن مصر تدار كعزبة.. وعلى الخولى والتملى والأنفار أن يكونوا فى خدمات السيد صاحب العزبة، وأن الحديث عن سيادة القانون هو عبث فى عبث.

ولم يمض على هذه الواقعة أكثر من شهر حتى حدث تعديل وزارى! وخرج المرحوم على عبد الرازق من وزارة التربية والتعليم، وعين دكتور مصطفى كمال حلمى مكانه فى أبريل سنة ١٩٧٤، وذهبت إليه مهنئاً كصديق قديم. لكننى حكيت له القصة بأكملها وسألته إن كان يعرفها فقال إن هذه أول مرة يسمع بها، قلت على الفور:

«على أى حال لقد رويت تلك القصة حتى لا يحاولون معك».

كان هذا فى أبريل سنة ١٩٧٤ ولم يبق على امتحان الثانوية العامة المصرية غير شهرين. وقد عرفت بعد ذلك أن شخصاً ما تقدم لهم بالحل العبقرى.. وهو إخراج ابن السادات من امتحان الثانوية العامة المصرى، وإدخاله امتحان الثانوية الإنجليزية فى يونيو، حيث لا يوجد امتحان فى اللغة العربية، وحيث امتحان الرياضيات هو امتحان الضرب والقسمة!

أما من هو الشخص لم أعرف..

ومنذ ذلك الحين اكتشف أبناء القادرين وتلاميذ المدارس الخاصة ما اكتشفه ابن السادات عام ١٩٧٤، وهو أن هناك باباً خلفياً لدخول الجامعات المصرية حتى ولو كنت لا تعرف أى شىء عن لغتك القومية، كما لا تعرف شيئاً فى الرياضيات، وهذا الباب الخلفى يدعى «الثانوية الإنجليزية».

فمتى يتحرك وزير التعليم لتصحيح هذه الأوضاع المشينة. ■

رءوف عباس
فى سيرته الذاتية

عُبادة كُحيلة

■ مادامت الأنا حاضرة، فلدى الإنسان أى إنسان - ميل فطرى لأن يتحدث عن نفسه، وليس الكاتب بنجوة من هذا الميل الذى يصل به إلى أن يتقنع وراء شخصياته، وهو ما نلمسه بوضوح فى «ثلاثية محفوظ» (بين القصرين وقصر الشوق والسكرية)، ونلمسه كذلك فى «ثلاثية الحكيم» (عودة الروح وعصفور من الشرق ويوميات نائب فى الأرياف)، كما نلمسه عند العقاد فى «سارة»، والمازنى فى «إبراهيم الكاتب».

على أن الكاتب فى أحيان أخرى يفارق قناعه ليتعرى أمام قارئه فيما يعرف بالسيرة الذاتية، ومع أنها فن قديم فى تراثنا الإنسانى، إلا أن الأمثلة عليه قليلة قبل عصرنا هذا الحديث، بين هذه الأمثلة «اعترافات القديس أوغسطين» التى تشابهها من وجوه عدة اعترافات الإمام الغزالى فى كتابه «المنقذ من الضلال».

وتذهب الكثرة الغالبة من الباحثين إلى أن أول سيرة ذاتية فى عصرنا الحديث هى سيرة جان جاك روسو، وقد حفلت بجراة، ربما كانت غريبة فى زمانها، وقد عاصرت هذه السيرة سيرة الدكتور جونسون لبوزويل، وتعد أول سيرة غيرية فى الآداب الغربية.

مشيناها خطى
سيرة ذاتية
رءوف عباس
دار الهلال . ٣٣٦ صفحة . ٢٠٠٤

فى تراثنا العربى لدينا نموذجان هامان للسيرة الذاتية: هما سيرة ابن خلدون التى سجلها فى كتابه «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً»، وهى أشبه بتقرير عن حياته، وتفسير وفى أحيان تبرير لتحولاته، ويعيبها أن ملكة الوصف عنده خابية وأحاسيسه فاترة، كما أنه مولع بالاستطرادات التى تعتور السياق، وكان أجمل به أن يختصر فيها، بخلاف ما كانت عليه الحال فى السيرة الأخرى، سيرة الشاعر والفارس العربى أسامة بن منقذ فى كتابه «الاعتبار» فهى أشبه برواية متعددة الأحداث والأجواء والمناظر، صاغها بأسلوب بسيط يقترب فى أحيان من اللغة المحكية، ويبتعد عن الزخارف اللفظية.

إذا نحن انتقلنا إلى عصرنا الحديث، نجد أن فن السيرة الذاتية قد تخلف فى نشأته عن قرينه فى الغرب، فهذا الأخير سبقنا إلى نهضة، جعلت كتاب هذه السيرة من الأفراد المتميزين، بعد أن كانوا من الحكام والمتنفذين.

تعود الإرهاصات الأولى للسيرة الذاتية فى شرقنا العربى إلى أحمد فارس الشدياق فى كتابه «الساق على الساق»، لكن البداية الحقيقية لها كانت مع طه حسين فى «الأيام»، وبعده تتابعت السير الذاتية عند أحمد أمين فى «حياتى»، وتوفيق الحكيم فى «زهرة العمر» و«سجن العمر»، وزكى نجيب محمود فى «قصة نفس»، و«قصة عقل»، ثم تبلغ السيرة الذاتية قامة عالية عند لويس عوض فى «أوراق العمر»، فكان أكثر صدقية وأوفر صراحة، تطرق إلى ما كان مسكوتاً عنه: مثل علاقاته الجنسية وعلاقاته بأسرته وأشقائه.

قبل أشهر صدر كتاب فى السيرة الذاتية لكاتب متميز

إصدارات: فى السيرة الذاتية

رءوف عباس

ومؤرخ مرموق هو رءوف عباس حامد: عنوانه: «مشيناها خطى»، وقد أثار هذا الكتاب لدى صدوره ضجة داخل وطنه وخارج وطنه، ونفدت أعداده فأعيد طبعه غير مرة.

إذا نحن طالعنا «مشيناها خطى» نجد الكاتب قد التزم فيه بالشرط الأول للسيرة الذاتية، فقد كتبها بعد أن بدأ مرحلة الشيخوخة (٦٥ عاماً)، صحيح أن نيتشه كتب سيرته فى مرحلة عمرية مبكرة نسبياً، وعلى نهجه سار طه حسين فى «الأيام» إلا أن الدارج فى هذا الفن أن يكتب المرء عن نفسه، وقد بلغت تجربته الحياتية مرحلة نضجها، عركته وعركها، وشرع فى تأمل مجرياتها بنظرة فاحصة إليها، كابد فيها ما كابد، وعاند فيها ما عاند.

من هذه الشرائط أن يكون الكاتب ذا تميز فى منحى من المناحى، أضاف إليه وترك بصمة واضحة عليه.. وهو ما يتحقق فى شخص رءوف عباس، وقد كتبت عنه ذات يوم أصفه بأنه «بقية باقية من جيل البنائين العظام الذين تعتز بها جامعاتهم اعتزازهم بهذه الجامعات. فقد خلف فى علم التاريخ مدرسة ترددت أصداؤها فى وطنه، وجاوزته إلى وطنه العربى الكبير. واجتمع فيه إلى كونه عالماً كونه إنساناً مضى به قطار العمر شامخاً مترفعاً عن الدنايا، لم تعرف عنه زلة فى صبوته، ولا هفوة فى سنوات كهولته، وهو فى تعامله مع عالمنا هذا الردىء، كان العهد به وما يزال شجاعاً، يقول قولة حق ومقالة صدق، لا يقيم وزناً لمال ولا جاه، ومناط المرء عنده عطاؤه.. عطاؤه فحسب».

حدد الكاتب الهدف من كتابه فى إهدائه «إلى الشباب.. عساهم يجدون فيه ما يفيد.. وإلى الذين يسممون أمامهم الأبار. لعلهم يتعظون» كما حدد منهجه فى أنه «إذ يروى حكايته، لا يتقيد إلا بما رآه وسمعه وعاشه، وكان شاهد عيان عليه، دون مبالغة فى الوصف، أو تزيين أو تزييف، التزاماً منه بأمانة الكلمة، مهما كانت دلالتها ومهما كان وقعها».

إذا نحن تعقبنا الكاتب نجده قد التزم على مدار كتابه بهذه القاعدة الذهبية، فهو لا يخجل من الحديث عن فقره الذى كان رفيقه الأثير، منذ مولده فى العام ١٩٣٩، ابناً أكبر لعامل بسيط فقير، بعث به إلى القاهرة - وهو بعد طفل صغير - ليعيش مع جدته الفقيرة بدورها، فى عزبة هرميس، وهى عزبة لا تصلها الكهرباء ولا الماء، قد حذف من قاموسه مصطلح العشاء، وأضاف إليه فى مرحلة تالية مصطلح الإفطار، ويعترف بأن جدته حرمته من تذوق طعم اللحم، فقد احتكرته لنفسها، وحين اختلس ذات يوم قطعة منه، لعنته وأمه لأنه «مفجوع» مثلها.

لا يقف الفقر عند هذا الحد، بل إنه أوعز لأبيه، بأن يلحقه بالكتاب، علّه يصبح عالماً أزهرياً، إذ ليس فى إمكانه أن ينفق عليه فى مدرسة. ويشاء القدر أن يتدخل فى هيئة شخص كريم حل هذه المشكلة، وصار «صاحبنا» تلميذاً فى مدرسة حنيفة السلحدار، لكنها عاودته مرة ثانية، حين فكر فى الالتحاق بالجامعة، لولا شخص آخر كريم، أقرضه قرضاً حسناً، وسيدة كريمة أعطته مبلغاً كانت قد ادخرته، ليعينها على تصاريف الزمن.. وفى المقابل كان على «صاحبنا» أن يسير إلى كليته فى كل يوم خمسة كيلو مترات فى الذهاب ومثلها فى الإياب.

وإذا كان المرمى الأول للسيرة الذاتية هو أن يحدد لنا الكاتب ملامح شخصيته، نجده إنساناً بسيطاً يجلس وهو «الأفندى» خريج الجامعة مع العمال فى مطعمهم، وليس مع الموظفين، يشاركهم همومهم، ويدافع عن حقوقهم، غير مكترث بعسف يناله من الإدارة، وفياً لأساتذته يعترف بفضلهم، حتى من أساء منهم الظن به «وسيظل هذا موقفه إلى أن يلقاهم جميعاً فى رحاب الله، عندما تفرغ كأس الأجل» معتداً بنفسه، ينفر عرقه الصعيدى، عند أول إساءة، وكذا كانت حاله مع عميده، حين إعارته للخارج، فيلوح له باستقالته، عقلانياً منذ نعومة أظفاره، يمزق حجاباً، وضعوه له بعد حادثة أفضت إلى عاهة مستديمة، سوف تصحبه إلى قبره، يصر على أن يفهم القرآن الكريم لا أن يستظهره فحسب، معطاء لا ينتظر ثواباً لعطائه، فيبادر إبان مقامه فى اليابان، ودون تكليف من أحد إلى المساهمة فى تأسيس قسم للغة اليابانية بجامعته، ويمهد السبيل لابتعاث زملاء له إلى هناك، ولدى عوده إلى وطنه يعيد بناء قسم التاريخ، وقد صار قاعاً صفصفاً، ليعين فيه معيدون ومدرسون (كاتب هذه السطور أحدهم)، شجاعاً يعرض عن كتابة بحث لابنة الرئيس الراحل، وأوراقه لدى لجنة الترقيات، دون أن يتعظ مما جرى لزميله حسن حنفى، مغامراً، لكنها المغامرة المحسوبة، فيضحى من أجل استكمال دراسته بوظيفة مستقرة، مقابل منحة مؤقتة، عنيداً يصر على التعيين فى جامعة غير جامعته، مادام هذا حقه، متسامحاً مع إخوانه الأقباط، باعتبارهم جزءاً من نسيج هذا الوطن شأنهم شأن المسلمين، متصدياً للدفاع عن حقوقهم، غير أبه بما قد يترتب على ذلك من تبعات، وطنياً يشارك قبل أن ينبت عذاره فى مظاهرات الأربعينيات ومطالع الخمسينيات، رغماً عن تأنيب جدته لانصياعه إلى «العيال البطالين» ويتطوع مرتين (١٩٥٦ و ١٩٦٧) للذود عن الوطن ضد أعداء الوطن.

ومع انحياز الكاتب إلى «نظام يوليو» لانحيازه إلى الفقراء، وما طرحه من مشروع نهضوى، كانت له إنجازاته التى لا ينكرها غير جاحد، فإنه لم يكن من دراويشه، يتوجه إليه بسهام النقد، ولكن من داخله، فيعيب عليه افتقاره إلى الديمقراطية، وحكمه بأساليب أمنية، عانى هو نفسه منها، وعليه فلم ينضم إلى أى من تنظيماته السياسية التى غلب عليها النفاق والانتهازية، وآثر أن يكون من الأغلبية الصامتة.

لكن الكاتب لا ينظر إلى نفسه بعد هذا العمر على أنه مبرأ مما يصيب البشر من أوجه القصور فيقول: «ولا يعنى ذلك أن صاحبنا كان دائماً حكيماً خالياً من العيوب والأخطاء، فلا يوجد قديسون بين البشر، فجميعهم خطاءون، وكثيراً ما يتأمل صاحبنا هذه المواقف التى مرت به ويعيد تقييمها، فيأخذ على نفسه أنه بالغ فى سوء الظن بمواقف أطراف بعينها، ولكن ليس كل الظن إثماً على أى حال، حسبه أنه لم يتخذ موقفاً يوماً ما بدافع شخصى محض، وكثيراً ما يكتشف أنه وضع ثقته فى غير أهلها، وظن أن كل ما يلمع ذهب».

كاتب السيرة لا يقف عند وصف صورته، إنما يصف أيضاً صور من عاصروه، لأنه فى علاقاته بهؤلاء يتكشف الصراع الذى يعطى السيرة الذاتية حيويتها، فهو ضرورة لها، مثلما هو ضرورة للرواية، فهناك أخيار وأشرار ودرجات بين هذا وذاك وبكل ألوان الطيف، وإذا نحن تعقبنا الكاتب فى سيرته نجده مولعاً برسم صور للشخصيات التى صادفها عبر رحلة حياته، خصوصاً من شغل منها مواقع فى هيئة التدريس بالجامعتين اللتين درس فى إحداهما ومارس عمله فى الأخرى.

بين هذه الشخصيات ذلك الموظف بدرجة أستاذ الذى صعد فى مناصب جامعته ليصل إلى أعلاها، ليس بما توافر لديه من علم، فلم يكن لديه سوى اليسير، وإنما بما توافر لديه من صفات ذميمة ودس ونميمة، وشبكة علاقات مع من هم على شاكلته، تجمعهم المصلحة ولا يجمعهم الواجب. فكان يقف ضد تعيين المعيدين فى قسمه، والمرة الوحيدة



مع انحياز الكاتب إلى «نظام يوليو» فإنه لم يكن من دراويشه، يتوجه إليه بسهام النقد، ولكن من داخله، فيعيب عليه افتقاره إلى الديمقراطية

رءوف عبـــــاس

التى وقف فيها مع تعيين أحدهم كانت دون وجه حق ولمصلحة ارتآها، وحين كانت تتاح له فرصة الإشراف على طلاب فى مرحلة الدراسات العليا كان يتلذذ بإذلالهم ويتعمد تأخيرهم فى الحصول على درجاتهم، بخلاف ما كانت عليه حاله مع طلاب عرب وغير عرب، وهو يقف حجر عثرة ضد تطوير الدراسة فى قسمه، حتى يضمن توزيع كتبه ومذكراته، وعهد عنه تعصبه ضد الأقباط، ووقوفه دائماً فى معسكر الفساد، واستغلاله منصبه فى لجنة الترقيات، دون صعود عناصر جادة وشريفة (وكاتب هذا المقال أحدهم أو بالأحرى أحد ضحاياه).

لم يستخدم الكاتب الأسلوب التقريرى المباشر فى تصويره لهذه الشخصيات إنما هو يحكى قصصاً له شهود عليها بأسلوب فيه من المتعة ما فيه من المرارة، بحيث يستطيع أن يوصل فكره إلى قارئه على نحو سلس وشائق، وقد يلجأ أحياناً إلى التصوير الكاريكاتيرى، فعندما توجه فى زيارة إلى جدته، بعد أن تركها ليعيش مع أبويه، ولاحظت عليه ما أصابه من زيادة فى وزنه قالت إن هذا سوف يؤدى إلى «تخن مخه وخيبته فى الدراسة بإذن واحد أحد»، وعندما يصف أحد زملائه من الذين طالتهم تهمة الفساد يقول إنه «برىء من شبهة القدوة»، ويستعيد ذكرياته عندما كان صبياً فيحكى عن «عربجى، الحنطور الذى يشرب من «قرعة، البوظة ويسقى حصانه معه، ويجيد فى وصف شخصية أستاذه إبراهيم نصحى «بك»، وهو التركى الذى يترفع عن أبناء الفلاحين، وينظر إليهم بازدراء، وينعى على الجامعة أنها «برطشت».

على أن الكاتب فى عرضه تلك الصور يستدرك فيقول إنه «فى تقديمه لما مر به من تجارب، يحرص على ذكر تلك التى يقوم عليها شهود معاصرون (أمد الله فى أعمارهم)؛ حتى لا يظن أحد أن بعضها أملته الأوهام وأحلام اليقظة وتصفية الحسابات، فكلها وقائع ثابتة، أكتفى بالإشارة إلى مناصب أصحابها أحياناً، وذكر بعضهم بالاسم أحياناً أخرى، لا بقصد التشهير بهذا أو ذاك، ولكن بغرض دق ناقوس الخطر لمن خدعتهم المظاهر، فأخفت عنهم الجوهر».

ولأن سيرة الكاتب لا تنفصل عن سيرة عصره، فإن من واجبه أن يكون شاهد عيان على هذا العصر، وهو ما التزم به فى هذا الكتاب بحيث إننا نستمد منه بعضاً مما كانت عليه صورة مصر خلال الخمسين السنة الأخيرة من القرن العشرين. وقد كان فى هذه الشهادة منفعلاً بمشاكل وطنه وهموم وطنه، كما كان طرفاً فى بعض هذه المشاكل والهموم، مشاركاً فيها أو منفعلاً بها أو مراقباً جيداً لها.

أنظر إليه وهو يرسم صورة لعزبة هرميس التى عاش فيها صبياً خلال الأربعينيات ومطالع الخمسينيات، وسكانها وكيف كانوا يعيشون حياتهم مسلمين ومسيحيين، لا يشعرون بأنهم مسلمون ومسيحيون قدر ما يشعرون بأنهم فقراء ومصريون.

يقول: «وكان سكان العزبة موزعين توزيعاً متساوياً بين الإسلام والمسيحية فى بعض البيوت، بينما كان المسلمون أقلية فى البعض الآخر من تلك البيوت، ولعل تجمع الأقباط المناويين الفقراء فى هذا المكان يعود إلى قربه من كنيسة مارى جرجس التى تقع فى نهاية شارع الجيوشى. وكان فناء الكنيسة مرتعاً لأطفال العزبة من المسلمين والأقباط. فيذكر صاحبنا تلك الأيام التى شارك فيها أترابه اللعب فى فناء الكنيسة، وتناول معهم لقمة القربان من يد «أبونا» القمص، ويذكر «عمته، أم جرجس، جارة جدته التى كانت تناديها «يا أمى»، وكانت تخاطب والد صاحبنا عند زيارته لأمه «يا أخويا»، وظل صاحبنا حتى بلغ الثامنة من عمره، يعتقد أن «عمته»، أم جرجس شقيقة لوالده وابنة لجدته، وخاصة أن أبا جرجس كان ينادى الجدة «يا حماتى»، وعندما كان يحدث سوء تفاهم بين أبوى جرجس، كانت الجدة تعنف الزوج، فيسترضيها ويقبل رأسها.

«لذلك كانت عزبة هرميس «مصر الصغرى»، عاش سكانها معاً وكأنهم أسرة واحدة، يأكلون معاً من طبق واحد، فرغم فقرهم الشديد، كانوا يتبادلون أطباق الطعام والحلوى، ولم تكن أيام صيام الأقباط العديدة عائقاً أمام استمرار هذه العادة، بل كان الجميع مسلمين وأقباطاً صائمين معظم العام بالمفهوم القبطى للصيام، لا تعرف «طباليهم» اللحوم إلا فى المواسم والأعياد. وكانت النسوة المسلمات والقبطيات يتبادلن إرضاع أطفال بعضهن البعض، بل ورعاية أطفال بعضهن البعض، إذا اضطرت إحدى الأمهات إلى السفر إلى قريتها فجأة لأمر طارئ، والجميع لا يفوته واجب عيادة المرضى، وتقديم التحية فى الأفراح، والتعازى فى الأتراح».

الأهم من ذلك كله تطرق صاحبنا إلى المسكوت عنه.. بصريح العبارة السلطة، حتى فى عهدها الناصرى الذى يتحمس له، ويعتبر نفسه واحداً من المستفيدين منه، فيتحدث عن المباحث التى طاردته فى الشركة التى عمل بها عقيب تخرجه من الجامعة، وطاردته وهو معيد جعل أطروحته لدرجة الماجستير عن تاريخ الطبقة العاملة المصرية، وكاد يكون واحداً من ضحاياها لولا أستاذه أحمد عزت عبد الكريم.

يصل الكاتب بنا إلى ذروة التوتر الدرامى، إذا شئنا أن نستعير شيئاً من مصطلحات الأدب فى الفصل الذى عقده عن الجامعة بعنوان «تحت القبة وهم»، وإن كان قد تناولها على نحو أو آخر فى فصول سابقة، ويتضح لنا أن الجامعة كانت بالنسبة له حلماً وردياً، عندما كان طالباً فى جامعة عين شمس، فكان بها أساتذة يتعاملون مع طلابهم على أنهم أبناؤهم، يعلمونهم ثم هم يعلمونهم كيف يتعلمون.. لكن هذا الحلم تبدد لدى التحاقه بجامعة القاهرة معيداً، ثم عضواً بهيئة التدريس، فالأساتذة غير الأساتذة ولم يكن العلم فى جملة أولوياتهم، وكانوا فى جلساتهم الخاصة لا حديث لهم إلا فى النميمة، ومادام لكل شىء سبب فالسبب يكمن أولاً وقبل كل شىء فى تدخل السلطة فى شئون الجامعة، وجامعة القاهرة على نحو خاص باعتبارها الجامعة الأم، خصوصاً أنها لوحت لأساتذتها بمناصب الوزارة، فهرع الكثيرون منهم إليها وجعلوا أنفسهم فى خدمتها وخدمة أمنها، الذى صار مديره فى الجامعة يفوق فى سلطاته سلطات رئيس الجامعة، ويأتى لنا بمهازل عن انتخابات الاتحادات الطلابية، ومهازل أخرى عن انتخابات الاتحاد الاشتراكى فى كليته، وكيف تحول بعض من كبار الأساتذة إلى عملاء للمباحث وكتبة تقارير. ثم هو يأتى بصور عما أفرزه هذا المناخ الفاسد، منها أنه أتاح الفرصة لزوج الرئيس السابق وبناتها لأن يلتحقن بالجامعة دون وجه حق، فتحصل هذه الزوج على أعلى الدرجات وتعين معيدة، بل تحصل على درجة الماجستير (وبعدها الدكتوراة) فى وقت قياسى، وقد أحاطت بها جوقة من الأساتذة المنافقين الذين كوفئوا على «خدماتهم الوطنية» بأعلى المناصب، كما يأتى بصور أخرى عن جهلاء وفاسدين وصلوا إلى مناصب الجامعة العليا، لدرجة أن أحدهم كان يجهل من هو



أنظر إليه وهو يرسم صورة لعزبة هرميس التى عاش فيها صبياً، وسكانها وكيف كانوا يعيشون حياتهم، لا يشعرون بأنهم مسلمون ومسيحيون قدر ما يشعرون بأنهم فقراء ومصريون

كتاب الزاوية

زكى نجيب محمود

المشاركة فى الفعل

دنيا العمل فى الأمة هى ترجمانها فقل لى ماذا يسودها من مشاعر فى صدور العاملين أقل لك ما حقيقة تلك الأمة فى مرحلتها الراهنة، إنك إذا فحصت دنيا العمل وما يدور فى أرجائها كنت كمن يتطلع إلى صميم آلامه من ثقب المفتاح، أو كمن يسترق السمع من وراء الجدران، وأسوأ الحالات هى أن يفقد العامل اهتمامه بالعمل لشعوره بأن قيمته لم تعد تزيد عن ترس فى آلة، وأما أفضل الحالات فهى أن يشعر العامل وكأنه يعمل لنفسه.

كان من أصدق الملاحظات التى أثبتها ابن تيمية قوله أن أهم ما يشد أفراد الأمة بعضهم إلى بعض فى أمة واحدة متماسكة هى المشاركة فى الفعل، فقد يشترك الأفراد فى لغة واحدة، بل قد يشتركون فى عقيدة واحدة، ويجمعهم تاريخ واحد، ولكنهم يتبعثرون فى «الفعل» بحيث لا يستهدفون جميعاً هدفًا واحدًا. وبهذا يفقدون أهم مقومات الأمة، ولقد أصاب ابن تيمية كل الصواب فى ذلك، فوحدانية الهدف وما يتبعها من وحدانية القيم بين أبناء الشعب الواحد هى أقوى ما يجعلهم شعبًا واحدًا، وبهذا يفقدون أهم مقومات الأمة.

ولقد سألت نفسى: هل كانت هذه حالة العمال وهم يبنون الأهرامات فى مصر القديمة؟ أو وهم يبنون سور الصين العظيم؟ هل كانت هذه هى حالتهم وهم يقيمون أروع المساجد وأعظم الكاتدرائيات؟ هل هذه هى حالتهم فى معظم البلاد التى يسمونها بالبلاد النامية حيث يشتد الوعى الوطنى بأهداف العمل القومية؟

إنه إذا كان الجواب عن هذه الأسئلة هو بالنفى، بقى أن نسأل: ما الذى حضر هنا فامتنع الشقاء بالعمل، وغاب هناك فشاع الشقاء به؟ إنه الإيمان بقيم وأهداف.

إصدارات: فى السيرة الذاتية

رءوف عباس

أحمد لطفى السيد أول رئيس مصرى لجامعته وأستاذ لأجيال متعاقبة من المصريين، وأخيراً وليس آخراً تعديل شروط الإعارة، لخدمة أغراض شخصية لا علاقة لها بالعلم.

يتحدث الكاتب بعد ذلك عن آليات الفساد التى تتمثل فى دعم الكتاب الجامعى والصناديق الخاصة ولجان الممتحنين ولجان الترقى التى حرمت الجامعة من عالم جليل ذى سمعة عالمية، هو أيمن فؤاد سيد، بعد أن تحكم فى مصيره من لا يصلحون لأن يتتلمذوا على يديه.

لكن الكاتب مع حزنه الشديد على ما آل إليه حال الجامعة. إلا أنه، وهو العالم الذى يؤرخ لأزمنة سابقة على زمانه بمنهج علمى صارم ورؤية نقدية موثقة، يعلم جيداً أن الجامعة مؤسسة لا تنفصل عن المجتمع الذى تنتمى إليه، وهو مجتمع يمر بخلل بنيوى خطير، فيقول وهو ممرور «هذا غيض من فيض، عايشه صاحبنا تحت قبة الجامعة التى ظنها يوماً مثالاً للنزاهة والنقاء خلت من الآفات التى يعانيها المجتمع. كان يظن أن الجامعة «بيت الحكمة»، العقل المفكر الذى يرسم للأمة خطاها، فاكتشف أنه كان واهماً، وتبين له أن الجامعة خلية من خلايا المجتمع، تتأثر بما يصيب بقية الخلايا من عطب ومن أمراض، وأدرك أن الجامعة مرآة تنعكس على صفحتها صورة المجتمع بما فيه من تناقضات، وما يعانيه من علل وأوجاع».

يبقى بعد ذلك أن نتساءل.. لماذا كانت الصور التى تتتابع عبر صفحات الكتاب فى معظمها صور قاتمة كابية وحزينة، مع أن الواقع لا يخلو من صور أخرى وضيئة؟.. لا نجد لذلك من تعليل إلا أن الكاتب تملكته - كما قال شللى - «شهوة إصلاح العالم».. هذه الشهوة التى جعلته يلتفت إلى هذه الصور الحزينة ويعرض عما سواها، ويحضرنا فى هذا الشأن تلك السطور من «حياتى فى الشعر» حين يقول صلاح عبد الصبور «يصفنى نقادى بأننى حزين، ويديننى بعضهم بحزنى، طالباً إبعادى عن مدينة المستقبل السعيدة، بدعوى أننى أفسد أحلامها وأمانيها، بما أبدوه من بذور الشك فى قدرتها على تجاوز واقعها المزدهر (فى رأيه) إلى مستقبل أزهر. وقد ينسى هذا الكاتب أن الفنانين والفئران هم أكثر الكائنات استشعاراً للخطر، ولكن الفئران حين تستشعر الخطر تعدو لتلقى بنفسها فى البحر، هرباً من السفينة الغارقة. أما الفنانون فإنهم يظلون يقرعون الأجراس ويصرخون بملء الفم، حتى ينقذوا السفينة أو يغرقوا معها».

لنا فى النهاية عتاب على الكاتب ورجاء.. عتاب لأنه لا يسترسل كثيراً فى ذكرياته عن حياته العائلية، ومنها حياته العاطفية، وربما اعتذر عن هذه بشغله وأسرته بطلب القوت، ثم شغله هو بطلب العلم، وربما كان السبب زواجه فى سن مبكرة من زميلة له، اطمأن إليها، وكانت عند حسن ظنه فى الحال والاستقبال، وخير معين فى رحلة الحياة، لكننا نحسب أن ليس له عذر حين لا يتحدث باستفاضة عن علاقاته بأبيه وأمه وأشقائه وأصدقائه ورفاق الصبا، لأن هذه العلاقات وما يترتب عليها، تشكل عنصراً أساسياً فى بناء شخصيته، وفى تفسير مواقف عديدة وحادثات عرضت له.

كذلك فمن اللازم لمؤرخ مرموق ترك بصماته واضحة على علم التاريخ، وهى بصمات غير منكورة، أن يسهب فى الحديث عن موارد ثقافته، فمعروف عن رءوف عباس ثقافة موسوعية، أعانته فى فهمه للتاريخ وإحاطته بتفصيلاته وبواعثها.. هذه الثقافة لا تتأتى إلا بمطالعات فى مجالات شتى؛ لكنه يكتفى بذكر ولعه بمشاهدة الأفلام السينمائية فى صباه ومطالعة «البعكوكة، وسندباد»، ثم قراءة بعض الكتب للرافعى (المؤرخ) وبعض الكتب لطه حسين وسلامة موسى وجرجى زيدان (لا حديث عن العقاد) ولا يذكر لنا ما عدا ذلك وأظنه كثيراً.

أما عن الرجاء فهو أن يتحفنا الكاتب بكتاب آخر عن الشخصيات التى عرفها، وعرض للمحات من حياتها.. وهكذا فعل غيره من سابقيه، وبينهم العقاد وطه حسين وهيكل والبشرى وفتحى رضوان وغيرهم، فيصير شاهداً على رجال عصره، مثلما كان شاهداً على عصره. ■

«تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.»

الإسلام فى عيون غربية.. بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء

د. محمد عمارة
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٣٨٣صفحة



يؤكد المؤلف أنه لا توجد مشكلة بين الإسلام والإنسان الغربى أو العلم الغربى، وإنما المشكلة مع مؤسسات الهيمنة الغربية. السياسية والكنسية والإعلامية. ويقدم المؤلف فى كتابه شهادات غربية تفترى على الإسلام، كما يقدم أيضاً شهادات غربية لعشرات من أعلام الثقافة الغربية تنصف الإسلام.

فى النوع الأول من الشهادات، يستعرض الكتاب افتراء الحرب الصليبية الجديدة عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، واتخاذ الإسلام عدواً عقب سقوط الشيوعية سنة ١٩٩٠، والتحريض على الإسلام فى ثمانينيات القرن العشرين، ويعود الكتاب إلى الماضى البعيد مؤكداً وجود تيارات غربية عادت الإسلام منذ فجر ظهوره.

وفى النوع الثانى من الشهادات التى تنصف الإسلام يستعرض المؤلف أكثر من ثلاثين شهادة غربية لعلماء الاستشراق والثقافة الغربية يؤكدون فيها التأثيرات الحضارية الهائلة للإسلام على العقل والفكر الغربى والنهضة الأوروبية، والإضافات الإسلامية فى علوم الحساب والمثلثات والجبر والفلك والنظرة النقدية الإسلامية للموروث العلمى القديم، وسماحة الإسلام، وتميز الفقه الإسلامى على القوانين الوضعية وغيرها الكثير.

■

الآخر.. الحوار.. المواطنة

سمير مرقص
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥، ٢٠٣ صفحات



يضم هذا الكتاب عدداً من الدراسات والمقالات التى كتبت بين عامى ٢٠٠١ و٢٠٠٤ والتى تعالج موضوع الحوار بين «الذات» و«الآخر» مصرياً وعالمياً.

ويؤكد المؤلف أن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فى التاريخ المصرى ظلت صامدة أمام كثير من التحديات والتوترات على مر القرون، بل إنها تقدم تجربة تاريخية متميزة تعايش فيها «دينان» وشعب واحد. وكان الطرفان يدركان أن حياتهما معاً فى وطن واحد هى خيار استراتيجى منذ دخول الإسلام إلى مصر.

ويتناول الكتاب ما حدث فى السبعينيات من القرن الماضى، وكيف كان لسياسة الانفتاح الاقتصادى دور كبير فى تعميق الاغتراب الثقافى والاجتماعى والتهميش السياسى للقطاعات الشعبية الواسعة، وهو ما جعل المشكلة الطائفية تبرز على السطح.

يتناول القسم الثانى من الكتاب رؤية الكاتب حول حوار الحضارات، بالإضافة إلى حوار مع جورج كيرى رئيس أساقفة كانتربرى المتقاعد. أما القسم الثالث فيتناول حوارين أجريا مع المؤلف ويطرح فيهما وجهة نظره حول الكثير من القضايا مثل تجديد الخطاب الدينى، ودفع الأقباط فى الحياة السياسية، ووجهة نظره فى الإخوان المسلمين والأزهر والمسيحية الصهيونية، والأصولية الدينية فى أمريكا، وتفجيرات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، والإصلاح السياسى وغيرها.

■

آلام الحلاج ـ شهيد التصوف الإسلامى

لويس ماسينيون
ترجمة: الحسينى مصطفى حلاج



عاش الحلاج فى فترة ازدهار الإسلام الكبرى إبان الخلافة العباسية، حيث تربع المجتمع العربى فى بغداد على مصب ثقافتين: الآرامية واليونانية. وقد أصبحت هذه المدينة حاضرة العالم الثقافية فى القرن العاشر الميلادى، وكان للفكر العربى آنذاك أساتذته الأفذاذ مثل النظام وابن الراوندى إلى الباقلانى فى علم الكلام، ومن الجاحظ إلى التوحيدى وابن سينا فى الفلسفة، ومن أبى النواس وابن الرومى إلى المتنبى والمعرى فى الشعر، والخليل بن جنى فى اللغة، وكان الرازى من الأطباء، والبطانى من الرياضيين..

وكان الحلاج بين هؤلاء وواحداً من أوائل علماء الكلام المتصوفة، وكان أكثر عمقاً من الأنطاكى والمحاسبى، وأكثر صلابة وحزماً من الغزالى.. وقد أدرك الحلاج القيمة التى لا تقدر بثمن لنهج يعرض أسلوب حياة تتماثل فيه الأفعال الخارجية مع النيات الباطنية. لم يعتمد نهجه على فهم قواعد اللغة العربية وحسب، بل على استخدام المنطق كما صنفه ونسقه اليونانيون. واستطاع أن يلجأ إليه كأنه زهد عقلى فيعريه من الصور الحسية والصيغ المبتدعة.

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام، الأول يتضمن مراحل حياة الحلاج وانعكاساتها الاجتماعية بدءاً من محاولاته الأولى فى الزهد الفردى، ثم الروايات الرسمية لقضيته وصولاً إلى استشهاده.

ويتضمن القسم الثانى عرضاً منهجيا لمذهبه ضمن إطار علم الكلام فى زمانه، ومعالم أزمة الذات الهائلة التى أوصلته إلى قضيته ومقتله.

أما القسم الثالث فيبحث وفقاً للترتيب الزمنى لمؤلفات كتبت عنه بالعربية والفارسية والتركية والماليزية والهندية والسريانية والعبرانية، بالإضافة إلى اللغات الأوروبية المختلفة.

■

الدولة المصرية والرؤية العصرية من فقه المراجعة إلى فكر المستقبل

د. مصطفى الفقى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٣٢٧صفحة



كان ظهور العولمة والتقدم المذهل فى تكنولوجيا المعلومات والسرعة الهائلة فى وسائل الاتصال، وراء وجود ذلك المواطن الذى قد لا يتمسك بالثوابت، ولكن يمضى وراء مجتمع إنسانى واسع سقطت فيه الحواجز وتلاشت منه الحدود، خصوصاً أنه مع انهيار مبدأ السيادة المطلقة للدولة، فإن المشاعر الوطنية يمكن أن تكون قد اهتزت لدى بعض الأجيال الجديدة، بحكم الانبهار بنمط الحياة فى مجتمعات أخرى أكثر تقدماً. كما أن التداخل بين السلطة والثروة قد أدى إلى حالة من الميوعة الوطنية والأخلاقية أيضاً.. هذا ما يكشف عنه د. الفقى فى مقدمته لكتابه الذى جاء ليواجه هذه السلبيات، من خلال اكتشاف مواطن القوة والجمال فى تاريخنا البعيد والقريب، وصولاً إلى طرح رؤية لصياغة مستقبل أفضل لمصر وللعالم العربى كله.

ينطلق الكتاب من فقه المراجعة من خلال استعراض قضايا مختلفة فى مجالات التعليم والإدارة والثقافة والتكنولوجيا والدفاع العربى المشترك وغيرها الكثير إلى فقه المواجهة الذى يحاول تغيير الواقع الراهن بالاستفادة من العناصر الإيجابية الموجودة فيه.

يتجاوز الكتاب قضايا العمل الوطنى، إلى الصعيد القومى، حيث يلقى الضوء على إحياء الفكر القومى العربى، وتوازنات الشرق الأوسط الجديدة، وعروبة العراق، والعلاقات مع أمريكا ومع أوروبا، ومستقبل السلام والأمن فى المنطقة. كما يتناول الكتاب أيضاً إمكانية طرح مبادرة إسلامية شاملة تسعى إلى مصالحة تاريخية وحقيقية مع الغرب فى إطار مشروع إصلاح دينى واجتماعى وثقافى يقف نداً للطرح الأمريكى.

■

النسيج واللباس فى الاقتصاد العالمى

كيتى ج. ديكرسون
ترجمة: نور الدين شيخ عبيد
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٤، ١٠٣٨ صفحة، ٢٨ دولاراً أو ما يعادلها



يتناول هذا الكتاب إنتاج اللباس والنسيج وتسويقهما من منظور عالمى، وهو يعتبر أحد المراجع الأكثر دقة وشمولاً والأكثر اعتماداً من قبل الطلاب والباحثين المهتمين بقطاع اللباس والنسيج والموضة، فى علاقته بالاقتصاد وبالعلوم السياسية، إضافة إلى التسويق. وقد أصبحت لهذا الكتاب هذه المكانة بفضل خبرة مؤلفته الواسعة مع موظفى منظمات التجارة الدولية ولدرايتها بالعلاقات الدولية فى الموضوع. وإذا كان مما لا شك فيه أن العولمة هى بصدد تغيير طرق إدارة الأعمال بصورة جذرية، فإن هذا الكتاب يساعد على فهم التحولات الجارية، وعلى التعامل معها.

ويتناول هذا الكتاب تأثير الوضع العالمى السريع التغير فى هذا القطاع، ويبحث فى العولمة من حيث آثارها فى

صناعة النسيج والعاملين المتأثرين بهذه التغيرات.

وتتضمن الطبعة العربية إضافة إلى تقديم صورة محدثة عن التغيرات الجيوسياسية لمحة موجزة عن صناعات النسيج والملابس فى معظم مناطق العالم، وكذلك بحثًا عن الدور الخاص للنسيج فى التنمية الاقتصادية للدول.

■

سيكولوجية المقامر ـ التشخيص والتنبؤ والعلاج

د. أكرم زيدان

الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٥، ٢٠٨ صفحات

يحاول المؤلف من خلال الكتاب أن يتناول سلوك المقامرة، ليس بوصفه جريمة تتطلب العقاب، وإنما باعتباره مرضًا يستوجب العلاج.

ويتحدث الكتاب بالتفصيل عن النظريات النفسية للمقامر، مع إشارة سريعة إلى بعض النظريات الاجتماعية والاقتصادية والبيولوجية، وكذلك النماذج الطبية التى تتناول ظاهرة المقامرة.

وإذا كان اهتمام الباحثين فى الغرب قد انصب حول نظريات المقامرة فقط، فإن الكتاب الحالى يركز على نظريات المقامرة ومشكلات المقامر واضطراباته الشخصية، من خلال مناقشة العديد من القضايا السيكولوجية التى تؤثر فى المقامرة وتتأثر بها أيضًا، مثل الغرائز الجزئية بأبعادها الأربعة (السادية ـ المازوخية ـ النظارية ـ الاستعراضية)، وسلوك المخاطرة واشتهاء المثير واضطرابات الشخصية المتمثلة فى الاكتئاب والهوس الخفيف والقلق والسيكوباتية والانتحار.

الفصل الأول من الكتاب يقدم نظرة تاريخية للمقامرة فى الحضارات المختلفة وصولاً إلى العصر الحديث وظهور عدد من المنظمات العالمية التى تدرس سلوك المقامرة، بينما يتناول الفصل الثانى مفاهيم المقامرة وأنواعها.

ومن خلال الفصل الثالث، وقد جاء بعنوان «المنهج»، يدعو الكاتب لتبنى المنهجين الإكلينيكى والتجريبى للتعرف على الديناميات النفسية للمقامر المرضى.

الفصل الرابع يتناول نظريات المقامرة، والفصل الخامس يتناول أسبابها.

بينما يأتى الفصل السادس من الكتاب ليشرح وببعض التفصيل سلوك المخاطرة لدى المقامرين، يليه الفصل السابع، حيث يطرح المؤلف موضوع الغرائز الجزية لدى المقامر، ويتبعه الفصل الثامن بعنوان «اضطرابات الشخصية لدى المقامر المرضى».

الفصل التاسع من الكتاب يحاول الإجابة على سؤال ما إذا كانت المقامرة إدمانًا.

والفصل العاشر يقدم أساليب العلاج النفسى للإدمان، ثم يأتى الفصل الحادى عشر والأخير ليقدم عرضًا لدراسات الحالة مع بعض المقامرين.

لا يكتفى الكتاب بالرصد فقط، بل يهتم بالتفسير والتحليل والنظر بعمق إلى الديناميات النفسية للمقامر.

وفى أحيان كثيرة ينظر هذا الكتاب ويعيد النظر فى قضايا سيكولوجية كثيرة ومتنوعة من أجل التشخيص والتنبؤ بشقيه: التصنيفى والدينامى، حيث يتسنى رسم اللوحة الإكلينيكية للمقامر المرضى، التى تمكننا من الوصول إلى أنسب الطرق العلاجية.

ويرى المؤلف أن أنسبها هى طريقة العلاج النفسى الجماعى، مما جعله يتناولها بشىء من التفصيل.

■

الأعمال الكاملة لياسين الحافظ

إعداد: عبد الإله بلقزيز

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ١٢٧٥ صفحة، ٢٨ دولارًا



استهدف مركز دراسات الوحدة العربية من نشر أعمال ياسين الحافظ فى مجلد واحد إتاحة المصادر الفكرية الأصلية لتكون فى متناول المهتمين بتجديد الفكر القومى العربى والثقافة القومية العربية.

وتضم هذه الأعمال الكاملة بالإضافة إلى كتبه الخمسة الشهيرة عددًا من كتابات ياسين الحافظ التى لم تنشر من قبل، ومقدمة لهذه الأعمال أعدها عبد الإله بلقزيز.

إن ما يجعل فكر ياسين الحافظ فكرًا تمس إليه حاجة الزمن العربى الراهن بتحدياته وسلبياته، وأيضًا إيجابياته ما ظهر منها وما بطن، هو تجاوزه الحاضر الذى عاش فيه عمر وعيه من الخمسينيات إلى أواخر سبعينيات القرن الماضى بقدرة غير عادية على توقع الآتى من التحولات والظواهر.. فثمة استثنائية فكرية كامنة فى مؤلفاته كمفكر قومى قادرة على أن تعيد لهذا الفكر وهجه فى عقول أجيال لم تلازمه الحياة زمنيًا، حيث تجد فيه التنظير العقلانى للوحدة العربية ضد التراجع، وخارج إطار الاستقلال الاقتصادى والسياسى والثقافى: أى خارج

جذور التسلط وآفاق الحرية

د. حسن حنفى

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥، ٣٣٢ صفحة



يعتبر هذا الكتاب أن الاستبداد هو قضية العرب الأولى، وأن مواجهة التسلط على المستوى الفكرى والثقافى تسبق بالضرورة الحرية السياسية.

ويؤكد المؤلف أن أحد أسباب أزمة الحرية الحالية هو أننا وضعنا العربة قبل الحصان منذ الثورات العربية الأخيرة فى النصف الثانى من القرن العشرين، فرغم أن هذه الثورات حققت مكتسبات اجتماعية، إلا أنها خسرت فضائل العصر الليبرالى.

أما الآن ـ وكما يقول المؤلف ـ فيبدو أننا خسرنا الجولتين: حرية الفرد وديمقراطية الحكم فى النصف الأول من القرن العشرين، والعدالة الاجتماعية والإنجازات القومية فى النصف الثانى منه.. وتبرز المقاومة من جديد عود على بدء ضد التسلط الداخلى والاحتلال الخارجى.

تتجلى مظاهر التسلط كما يوضح الكتاب فى الزعيم الأوحد وتحريم العيب فى الذات الملكية، وألقاب التعظيم، والغطاء الاجتماعى، والمحرمات الثقافية، وحكم الأحياء مدى الحياة وغياب تداول السلطة، فى نفس الوقت الذى يتم فيه تأصيل جذور التسلط فى الموروث الثقافى، والنقل عن القدماء والمحدثين لتسويغ الواقع والدفاع عن ثقافة السلطة وفقهاء السلطان والموظفين الأيديولوجيين فى جهاز الدول.. مع استبعاد الآراء البديلة.

فى الفصل الأول من الكتاب: يشدد المؤلف على أن المدخل الثقافى هو الذى سيشعل فتيل الصحوة الثانية فى العالم العربى، فأول ما يحتاج العرب إليه لإعادة بناء ثقافتهم هو التحول من التصور الرأسى للعالم إلا التصور الأفقى من أجل نزع جذور التسلط فى الثقافة الوطنية، لأننا ورثنا تصورًا رأسيًا للعالم يتصور العلاقة بين الطرفين هو علاقة الأعلى، الأكثر رتبة وقيمة وشرفًا ـ بالأدنى، وبالتالى فإن على الأدنى طاعة الأعلى بدون تفكير. وفى نفس الوقت فإن التصور الأفقى هو البديل الوحيد للنهضة، لأنه يلبى حاجة العصر إلى المساواة بين الحاكم والمحكوم، وتذويب الفوارق بين الأغنياء والفقراء، وتقريب المسافة بين الإمام والمأمومين.. فالناس سواسية كأسنان المشط..

ويبحث الفصل الثانى عن مظاهر التسلط التى تتبدى فى غياب العدالة، وحكم الحزب الواحد، واستمرار الزعيم الواحد، وألقاب التعظيم فى الموروث الثقافى، وغياب المرأة التام بالنهار وحضورها الكاسح بالليل، وتصدير الخوف.. وغيرها.

أما الفصل الثالث، فيدور حول مسئولية الثقافة من خلال العديد من المحاور، ملقيًا الضوء على ثلاثة أنواع من المثقفين، وهم مثقف السلطة، وشهيد السلطة، وأخيرًا المثقف الوطنى.

أما الفصل الرابع فيطرح فى بدايته سؤالاً مهمًا وهو: لماذا تأخرت قضية الحرية؟ ويجيب بأنه تم تأجيلها مرتين، الأولى فى مرحلة مقاومة الاستعمار، فقد أجل المواطن العربى قضيته مع النظام فى الداخل حتى يجند نفسه لمقاومة الاستعمار فى الخارج، والثانية بعد الاستقلال حيث اهتم قادة التحرر الوطنى بالإنجازات السريعة والعاجلة والتى فشلت بعد عقدين أو ثلاثة.

وعن الدولة الوطنية يطرح الفصل الخامس عدة أسئلة مهمة منها: هل تعود الملكيات للحكم؟ وهل انتهت الطبقة الوسطى؟.. إلخ. ويؤكد المؤلف أنه فى غياب مصر عن محيطها العربى، يتم استقطاب الخليج نحو إيران، والسودان إلى شمال عربى وجنوب أفريقى، وابتلاع الشام وقسمته بين تركيا وإسرائيل وتفتيت العراق، وجذب المغرب العربى كله إلى أوروبا، وهو وضع ظهر إلى حيز الوجود بسبب تكبيل مصر بمعاهدة السلام مع الكيان الصهيونى.

ويدور الفصل السادس عن الإصلاح والنهضة، ويشير فيه المؤلف إلى أنه كلما تأزم الحاضر تم الرجوع إلى الماضى.. فنحن ننظر إلى عصر النهضة العربية بداية بميلاد الطهطاوى ١٨٠١ حتى هزيمة ١٩٦٧ بوصفه حلمًا جميلاً استيقظنا بعده على واقع تسوده المحافظة الدينية والخواء الفكرى، والاستقطاب بين خطابيه، السلفى والعلمانى يصل إلى حد الاقتتال العلنى كما هو الحال فى الجزائر، أو الصراع السياسى كما هو الحال فى مصر وتونس، وطالما استمر الحنين إلى الماضى فإنه لن يتم التعرف على الحاضر وطبيعته ومكوناته، وتغيب رؤية المستقبل واحتمالاته، ولا تبقى إلا الانفجارات العشوائية هنا وهناك، كما يفعل البركان الهادى فى الظاهر الفائر فى الباطن.

التبعية والهيمنة. يضاف إلى ذلك ما أرساه ياسين الحافظ عندما شق طريقًا جديدًا أمام الفكر الديمقراطى العلمانى الاشتراكى العربى، فأسس نهجًا التقط بمضمونه مفردات الواقع العربى وتطوراته، وعكسها فى وعى كان الأقرب إلى حركة هذا الواقع فى بعديها الراهن والمستقبلى.

■

تربية العنصرية فى المناهج الإسرائيلية

د. صفا محمود عبد العال
مراجعة وتقديم: د. حامد عمار
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٥، ٢٣٠ صفحة



يؤكد الكتاب أنه من المهمات الرئيسية لنظام التعليم فى إسرائيل، السعى إلى زراعة بذور الخوف من الآخرين فى عقول النشء، وترسيخ عناصر الكراهية والحقد فى وجدانهم. ويعد ذلك من الآليات التربوية المهمة التى تشكل بنية التوظيف الاجتماعى للمؤسسات الاستيطانية فى إسرائيل بشكل عام، والتى يتضح فعلها بصورة ظاهرة وقوية فى ضوء المتغيرات الأخيرة منذ اندلاع انتفاضة الأقصى، وما تلاها من أحداث وتطورات. والشاهد أن ما تهدف إليه الحركة الصهيونية فى مجال التعليم، هو خلق وتنمية روح العداء للعرب وتشويه صورتهم لدى الجيل الإسرائيلى الحالى والأجيال التالية.. وبالطبع فإن المناهج الدراسية هى الوسيلة المثالية التى تساعد المؤسسات الصهيونية فى تحقيق ما تبتغيه.

فالأساليب الصهيونية تقوم على تأكيد التربية الأيديولوجية من خلال المشاريع المخططة «الأنشطة التربوية»، التى ينفذها الأطفال فى المدرسة الابتدائية بأرض إسرائيل اللا حدودية، بالإضافة إلى تعميق الكراهية فى نفوس التلاميذ.

استندت المؤلفة فى مادة كتابها على ١٦ كتابًا من مناهج الدراسات الاجتماعية فى إسرائيل، فى مادتى التاريخ والجغرافيا المقررة من بداية الصف الثالث حتى الصف السادس الابتدائى، وهى كلها باللغة العبرية.

ويقول د. حامد عمار فى مقدمة الكتاب أن من مقاصد التعليم الإسرائيلى أن يتغذى تلاميذه منذ بداية المرحلة الابتدائية على المفاهيم والمبادئ والتنظيمات اليهودية التى انطلقت منها وتأسست عليها دولة إسرائيل قبل عام ١٩٤٨، واستمرت حتى اليوم. ومن بين تلك المقاصد التى تلبست وتلونت بمقولات دينية توراتية الادعاء بأن فلسطين كانت منذ أقدم العصور أرض إسرائيل، وأن أورشليم كانت عاصمتها. ويؤكد د. عمار أن موضوعات هذه المناهج الدراسية تكاد أن تكون مرآة لبشاعة العنصرية الصهيونية نحو الحقوق العربية، وانتهاك المقدسات الإسلامية والمسيحية فى القدس.

■

«إسرائيل ٢٠٢٠» خطتها التفصيلية لمستقبل الدول والمجتمع.. المجلد الرابع: «إسرائيل فى محيط يسوده السلام»

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٢٦٣ صفحة، ٨ دولارات



هذا الكتاب هو المجلد الرابع من خطة لاستشراف مستقبل إسرائيل لربع قرن أعدها ٢٥٠ خبيرًا إسرائيليًا من مختلف المؤسسات الرسمية والأكاديمية فى داخل إسرائيل، ومن بين الجاليات اليهودية فى العالم.

و«إسرائيل فى محيط يسوده السلام» ـ عنوان هذا المجلد ـ هو بمثابة وثيقة تعبر عن الفرضية الأساس وراء هذا المشروع، وهى أن السلام هو شرط أساسى للتخطيط الوطنى المستقبلى، وعامل يغير بيئة التخطيط الحالية، لذا، فإن الكثير من أهداف المخطط الرئيس يشتق منه، فيما تكمن فيه أيضًا وسائل تحقيق تلك الأهداف.

تتكون هذه الوثيقة من أربعة أجزاء تعكس التفكير البنيوى فى موضوع السلام على امتداد عملية خلق الخطة التفصيلية لإسرائيل ٢٠٢٠. ويحدد الجزء الأول الإطار السياسى للنقاش فى سيناريو السلام، فيما يلخص الجزء الثانى الخطوات العملية التى تمت فى ضوء الإطار السياسى المتفق عليه. أما الجزء الثالث فيحلل احتمالات التعاون الاقتصادى فى الشرق الأوسط فى حال تحقيق السلام، فيما يقترح رئيس طاقم المخططين فى الجزء الرابع موضوعًا شاملاً لانعكاسات السلام على سياسة التخطيط المجالى فى إسرائيل.

الكتاب يتضمن النماذج والخرائط والجداول الموضحة والمفسرة لهذه الوثيقة الأساس.

■

رائدات فى ظروف غير مواتية المرشدات الصحيات وسياسات التنمية فى اليمن

مارينا دى ريخت
ترجمة: محمد عبد الحميد عبد الرحمن
مراجعة: سعد صلاح خلاص
دار مهاجرون: ٢٠٠٥، ٢٧٤صفحة



هذا الكتاب هو نتاج ستة أعوام من الحياة والعمل فى خضم مشروع تنموى مبنى على البحث الميدانى للمؤلفة فى اليمن.

يتناول الكتاب حياة نساء يمنيات عاملات فى مجال الرعاية الصحية الأولية، ويمزج بنجاح بين النهج الأكاديمى والكتابة المفعمة بالحيوية عن قصص الحياة الشخصية لنساء عملن مع الكاتبة طوال سنوات المشروع.

يبحث الكتاب فى الفرص التى أتاحها العمل المأجور للمرأة فى المجتمع اليمنى التقليدى لتغيير حياتهن مقابل أشكال السيطرة الاجتماعية الجديدة التى نجمت عن الدخول فى سوق العمل، كما يمزج بين الأجندات المتباينة للحكومة الوطنية ومنظمات التنمية الأجنبية والطموحات الشخصية للنساء العاملات.

النساء فى هذا الكتاب هن صديقات مارينا دى ريخت الهولندية الجنسية، وهن أيضًا موضوع بحثها فى نفس الوقت. وقد وفر لها هذا الموقع المزدوج نظرة متميزة تجمع فيها أدوات ومناهج البحث الأنثروبولوجى مع الخبرة الشخصية اليومية.

ومن خلال هذا الكتاب، نجحت الباحثة فى سبر المعرفة الجوانية العميقة للمجتمع اليمنى الذى قضت فيه كما تؤكد سنوات ممتعة من عمرها.

■

فؤاد الأول المعلوم والمجهول

د. يونان لبيب رزق
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٢١٤صفحة



يعتبر الملك فؤاد الأول من الشخصيات التاريخية التى اختلف حولها المؤرخون كثيرًا، وكان لخلافهم هذا أسبابه.. فمن ناحية، عرف عن الملك مهادنته للإنجليز واصطدامه بالحركة الوطنية وجمعه كل سلطات الحكم فى يده.. ومن ناحية أخرى عرف عن عهده أنه عهد الإصلاحات المتعددة على كافة الأصعدة، فى السياسة، والدبلوماسية، والاقتصاد، والتعليم، والبحث العلمى، والفنون المختلفة. وما بين هاتين الحقيقتين، ضاعت حقيقة الملك، وبات البحث عنها مطلبًا ضروريًا لكل مهتم بالتاريخ المصرى الحديث.

يبحث الكتاب فى قسمه الأول ١٨٦٨ـ ١٩١٧، سنوات تكوين الملك فؤاد وخروجه من مصر مع أبيه الخديو إسماعيل ثم عودته واعتلائه العرش، أما القسم الثانى فيتناول فؤاد كسلطان لمصر، وعلاقته بثورة ١٩١٩، ويتناول القسم الدور المؤسسى، سواء فى الشأن الاقتصادى وبناء بنك مصر ومصر للطيران وبنك التسليف الزراعى، وفى الشأن الثقافى، كإنشاء الجامعة الأميرية ومجمع اللغة العربية والإذاعة الحكومية وغيرها.

■

مدرسة فرانكفورت ـ نشأتها ومغزاها.. وجهة نظر ماركسية

فيل سليتر
ترجمة: خليل كلفت
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤، ٢٧٠ صفحة



تستخدم عبارة «مدرسة فرانكفورت» على نطاق واسع، لكن بطريقة فضفاضة أحيانًا، لتدل فى آن واحد على مجموعة من المفكرين وعلى نظرية اجتماعية بعينها. تركز هذه الدراسة التى جعلت موضوعها سنوات تشكل مدرسة فرانكفورت وهى أكثر فتراتها راديكالية طوال الثلاثينيات من القرن المنصرم، على الإسهامات الأكثر أصالة التى قدمتها هذه المدرسة فى إعداد نظرية نقدية للمجتمع، من جانب الفيلسوفين ماكس هوكهايمر، وهربرت ماركيوز، وعالم النفس إيريك فروم، وعالم الجمال ثيودورف أدورنو.

يتتبع مؤلف الكتاب الحدود النهائية للعلاقة المعلنة لمدرسة فرانكفورت بالنقد الماركسى للاقتصاد السياسى لألمانيا فى فترة انحدارها نحو الفاشية ويدرس كذلك إنتاج أشخاص مثل كارل كورس، وفيلهلم رايش وبرتولت برشت، الأمر الذى يلقى قدرًا هائلاً من الضوء النقدى على مدرسة فرانكفورت.

■

أطفـــال حاصــرتهم الحـــرب

عالم عربى جديد بالأطفال
دراسة حول واقع الطفولة فى الدول العربية
يونيسف . دار الشروق



يتأثر ٢٥ مليون طفل بالحروب والنزاعات المسلحة في المنطقة العربية، حسب تقديرات، «التحالف ضد الجنود الأطفال في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا».

إن محاصرة أوضاع النزاعات المسلحة للأطفال لها أثرها المدمر عليهم. فالأطفال يُقتلون أو يُعوقون، ويفقدون أبويهم وإخوتهم، ويُفصلون عمن يقدمون لهم الرعاية الأولية، ويتعرضون لصدمات عاطفية ونفسية، ويفقدون فرصة الحصول على الحقوق الرئيسية الأولية في المأوى، والغذاء، والتعليم. بل إن بعضهم يصابون أو يقتلون بالألغام الأرضية أو القنابل التي لم تنفجر بعد فترةٍ طويلة من انتهاء النزاع. كذلك قد يرغم الأطفال على الخدمة في القوات الحكومية أو المتمردة، ويصبحون معرضين للتهريب والاستغلال الجنسي، ومن ثم يواجهون صعوبات بالغة في إعادة اندماجهم في المجتمع.

تؤدي الحروب والنزاعات المسلحة إلى إعاقة الحصول على الخدمات الأساسية التي تضمن حقوق الحياة والصحة. ففي العراق، أدت حرب عام ٢٠٠٣ إلى إحداث انتكاسة خطيرة للجهود السابقة لمعالجة أثر الحرب والعقوبات ولإعادة إعمار البنية التحتية الأساسية، والمدارس، والخدمات الصحية. وحتى قبل الحرب، كان ٢٥٪ من الأطفال دون الخامسة كانوا يعانون من سوء التغذية المزمن وكان واحد من بين كل ثمانية من هؤلاء الأطفال يموت قبل بلوغ سن الخامسة من عمره. ويمتد تراكم الحرمان عبر عشرين سنة وثلاث حروب، وهو ما أدى إلى حدوث تدهور خطير في مخزون العراق من رأس المال البشري والمادي.

وجاء في تقرير عام ٢٠٠١ لليونيسف عن حقوق الأطفال في العراق ما يلي: «كثيراً ما يُشار إلى المياه وخدمات المرافق الصحية باعتبارها خط الدفاع الأول ضد المرض. وفي حالة العراق، يشكل التدهور في نوعية المياه أحد الأسباب الرئيسية لزيادة أمراض الطفولة. ولا يقل مستوى ونوعية خدمات المرافق الصحية سوءاً عن ذلك... فقد تدهورت البنية الأساسية في قطاع الصحة تدهوراً شديداً. ومع نهاية التسعينيات، كانت الميزانية السنوية للصحة ٥٪ من الميزانية الأصلية التي كانت ٤٥٠ مليون دولار أمريكي عام ١٩٩٠» (العراق/اليونيسف، ٢٠٠١: ٢٧ - ٢٨).

ويتعيّن أن ينتبه المجتمع الدولي إلى حقيقة أن نظام فرض العقوبات يتسبب في كوارث إنسانية تصيب أول ما تصيب الأطفال. الأمر الذي يفرض على مشرعي العقوبات الدولية دراسة عواقب تطبيق العقوبات على الأطفال ووضع الإجراءات لمواجهة هذه العواقب وتجنيب الأطفال المعاناة بسببها.

ومنذ بدء الانتفاضة في سبتمبر ٢٠٠٠ حتى بداية عام ٢٠٠٥ يُقدر عدد الأطفال القتلى الفلسطينيين بـ ٦٨٨ أغلبهم من اليافعين، كما أصيب ما يزيد على ١٢٠٠٠.. وتشير احصاءات السلطة الفلسطينية في بداية عام ٢٠٠٥ لوفاة ٢٤٤ امرأة بسبب الأعمال العسكرية الاسرائيلية منذ بدء الانتفاضة، ولحدوث ٦٥ حالة ولادة عند الحواجز، توفى فيها ٣٨ طفلا. ويقدر عدد الأطفال الذين تم احتجازهم في السجون الاسرائيلية بحوالي ٣٠٠٠ طفل منذ عام ٢٠٠٠.

وتتفاعل عدة عوامل لتضاعف تأثير سنوات الاحتلال التي قاربت على الأربعين على أجيال متتابعة من الأطفال الذين يشكلون أكثر من نصف سكان الأرض الفلسطينية المحتلة: فمن استخدام الرصاص في مواجهة المظاهرات، إلى الهجوم على المناطق المدنية، بما في ذلك حالات لقصف المدارس وقتل الأطفال بداخلها، إلى الاغلاق والحصار بما يعطل الوصول للخدمات الصحية والتعليمية والاجتماعية، وارتفاع نسبة الفقر، وتزايد ظواهر عمل الأطفال وتسولهم وارتفاع عدد أطفال الشوارع.

وقد ألقت الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية والبنك الدولي وغيرهما الضوء على تزايد سوء التغذية والمرض بين الأطفال الفلسطينيين. وفي شهر أكتوبر عام ٢٠٠٣ أعلن جان زيجلر مقرر الأمم المتحدة الخاص للحقّ في الغذاء أن الأرض الفلسطينية المحتلة «على وشك الوقوع في كارثة إنسانية، وهو ما يرجع بصورةٍ كبيرة إلى الإجراءات الأمنية الصارمة التي تفرضها قوات الإحتلال الإسرائيلية».

وقد وجد جان زيجلر أن ٢٢٪ من الأطفال الفلسطينيين دون سن الخامسة يعانون من سوء التغذية - أكثر ثلاث مرات من نسبتهم عام ٢٠٠٠، وأن ٩٪ يعانون من سوء التغذية الحاد، بينما يعاني ١٦٪ من فقر الدم (الأنيميا) الحاد، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى الإعاقة الدائمة للنمو الجسمي والعقلي. ويعيش الأن ٦٠٪ من الأسر الفلسطينية في فقرٍ شديد معتمدين على المعونة الغذائية الدولية.

كذلك يعاني الأطفال، الذين يعيشون حالة من النزاع المستمر، من محنة نفسية. وفي حالة الأطفال الفلسطينيين، أظهرت الدراسات أن زيادة العنف داخل المدارس والمنازل، وانخفاض مستوى النشاط الاجتماعي، حيث يعيش الأطفال في حظر تجوال دائم، مما يؤدي إلى تنامي الشعور بفقدان الأمل في المستقبل.

وفي إقليم دارفور، في غرب السودان، تأثر حوالي ٢.٦ مليون شخص من آثار النزاعات بينهم ١.٨ مليون نازح داخليا و٢٠٠ألف عبروا الحدود إلى تشاد. ومن هؤلاء ١.٤ مليون طفل دون سن الثامنة عشرة و٦٠٠ ألف طفل تحت سن الخامسة.

وقد شهدت النزاعات في المنطقة كذلك زيادة مجموعات اللاجئين. وطبقاً لما تشير إليه دراسة حديثة، يوجد في مصر وحدها مجموعات لاجئين من ٣٥ جنسية (هاريل - بوند، بدون تاريخ). ويشمل اللاجئون في العالم العربي أشخاصاً من دولٍ وأراضٍ خارج حدود المنطقة واجهوا، أو ما زالوا يواجهون نزاعات، مثل إثيوبيا وإريتريا وأفغانستان وإيران وكردستان والأرض الفلسطينية المحتلة ووسط وغرب إفريقيا. وبالنسبة للاجئين الفلسطينيين، فقد كانت مشكلتهم، وما زالت، دون حل لأكثر من خمسين سنة.

وغالباً ما يعيش اللاجئون وأطفالهم في حالةٍ من الإهمال القانوني، حيث ينضمون إلى الفقراء من سكان المناطق الحضرية في الحصول على الحدّ الأدنى من الخدمات. وفي حالة النزاعات الممتدة، مثل تلك التي يعاني منها الأطفال الفلسطينيون والعراقيون والصوماليون والسودانيون، نشأت أجيال بكاملها وقد توقف نموهم. ويُقدّر عدد اللاجئين في اليمن بحوالي ستين ألف لاجيء بينهم أكثر من ٢٢ ألف طفل معظمهم مشرّدون بسبب الحروب والنزاعات والكوارث الطبيعية في بلدانهم.

ومنذ بداية الألفية الجديدة اكتسبت الحاجة إلى توفير حماية خاصة للأطفال في أوضاع النزاعات المسلحة اهتماماً متزايداً. فقد أصدر مجلس الأمن الدولي القرار رقم ١٣٧٩ لسنة ٢٠٠١ بشأن الأطفال في النزاعات المسلحة، وفي عام ٢٠٠٢ بدأ العمل بالبروتوكول الاختياري لاتفاقية حقوق الطفل بشأن إقحام الأطفال في النزاعات المسلحة.

إن هناك بعض الدروس الإيجابية التي يمكن تعلمها حتى في أسوأ الظروف. وربما كان أوضح مثال على ذلك ما حدث في مدينة الخليل في الأرض الفلسطينية المحتلة. ففي شهر أكتوبر عام ٢٠٠٠، اجتمع المعلمون والجمعيات الأهلية معاً للمشاركة في «مشروع التعليم العلاجي عن بعد». وقد بدأ المشروع بدعم مبادرات التعليم المنزلي لطلاب المراحل الابتدائية والثانوية الذين لم يتمكنوا من الذهاب إلى المدرسة أثناء فرض حظر التجول طوال اليوم. وقد نُظمت معسكرات صيفية للتعليم العلاجي والتعلم التفاعلي باستخدام مدرسين مدربين. وكان البرنامج يضم في المجموع ٥٠٠ مدرس و١٢ ألف طالب من كل الصفوف.

ومع أن الوضع في الأرض الفلسطينية المحتلة قد ساء بدرجةٍ كبيرة منذ ذلك الوقت. إلا انه تجدر ملاحظة بعض إنجازات البرنامج:

- تمكين الإدارة التعليمية المحلية.
- نجاح معظم الطلبة في الوصول إلى الحدّ الأدنى من الكفاءة المناسبة لأعمارهم على أقل تقدير.
- التطور المهني للمدرسين وصولاً إلى أشكال التعليم الأكثر تفاعلاً والمتمركزة حول المتعلم.
- زيادة مشاركة أولياء الأمور في حصول الأطفال على حقهم في التعليم.
- تعزيز فكرة قدرة الطلاب على التعلم بمفردهم.
- حققت الأنشطة قدرا من الحياة الطبيعية، وهو ما كان مطلوباً بشدة، مع تأثيرها الإيجابي على الحياة النفسية والاجتماعية للأفراد.

وفي «ملتقى الشباب حول قضايا القرن الجديد» في شهر نوفمبر عام ٢٠٠٠ عبر الشباب عن أهمية إعادة توجيه الطاقة عندما يشبّ الطفل في زمن الحرب. وقال الشباب: «إن إعادة توجيه طاقة الشباب التي يستنفدها النزاع إلى تعلم أكثر إنتاجية وإلى أنشطة اجتماعية هو الأساس. ودورنا هو رفع الوعي بأهمية أن نصبح أفراداً أكثر تعلماً واطلاعاً في المجتمع وخاصةً في أوقات النزاعات».

سياسات دول الاتحاد الأوروبى فى المنطقة العربية بعد الحرب الباردة

د. على الحاج
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٤٢٧ صفحة، ١٤ دولارًا



يطرح هذا الكتاب مسألة أن العالم قد شهد زيادة فى النفوذ الأمريكى على النظام الدولى وعلى شئون المنطقة العربية منذ مطلع التسعينيات من القرن العشرين، وذلك بسبب التحولات التى نتجت عن انتهاء الحرب الباردة.

غير أنه قد يشهد أيضًا تطورًا فى الدور السياسى لقوى دولية صاعدة مثل الاتحاد الأوروبى واليابان والصين.

ويشير الكتاب إلى أن دول الاتحاد الأوروبى تعتبر من أوفر القوى الدولية الصاعدة حظًا فى تبوء المركز الدولى المنافس للولايات المتحدة، وبخاصة تجاه المنطقة العربية التى تشكل المجال الاستراتيجى لمصالحها الحيوية.

وهنا يطرح التساؤل: هل يشهد القرن الحادى والعشرون ولادة إمبراطورية أوروبية على أنقاض النظام العالمى المنحدر، بعدما شهدت بداية القرن العشرين اختفاء الإمبراطوريات فى أوروبا كالعثمانية والقيصرية والبروسية وغيرها.. إمبراطورية ولايات أوروبية تتمكن من خلق فضائها المتوسطى فى المنطقة العربية بشكل أكثر استقلالية عن السياسة الأمريكية؟

ويركز الكتاب على أن الأوضاع الجديدة التى تتجه بالاتحاد الأوروبى نحو صعود دوره السياسى والاقتصادى ستنعكس على السياسة الأوروبية تجاه المنطقة العربية، الأمر الذى يؤدى إلى توافر مساحة لا بأس بها أمام بلدان هذه المنطقة لاستغلال التنافس الدولى، والإفادة من التحالفات لخدمة قضاياها.. غير أن هذه الإفادة مرتبطة بمدى التقدم الذى تحققه هذه البلدان فى إطار تفعيل العمل العربى المشترك.

مستقبل الديمقراطية فى مصر

د. ثناء فؤاد عبد الله
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٣٦٠ صفحة، ١٠ دولارات



يشكل هذا الكتاب دراسة ذات أهمية قصوى فى جهود إصدارات مشروع دراسات الديمقراطية فى البلدان العربية.

تأتى أهمية هذه الدراسة نظرًا إلى ما لمصر من دور رائد وثقل تاريخى فى الواقع الثقافى والسياسى العربى، إلى جانب أهمية هذه الدراسة فى القيام بدورها فى استشراف مستقبل الديمقراطية فى مصر وسبل الانتقال السلمى إليها كنموذج تقتدى به الدول العربية.

فالمرحلة الحالية تشهد فى مصر بعثًا للفكرة الديمقراطية، وإعادة طرحها على المجتمع، ومواجهة الملفات الصعبة التى تفرضها. وفى هذا الإطار، تتطلب إشكالية الديمقراطية التوصل إلى نقطة توازن تجمع بين دولة قوية ومجتمع مدنى قوى، أى الجمع بين التعددية السياسية والحريات والحقوق الأساسية وتطور المجتمع الغنى بمؤسساته السياسية والثقافية، وذلك دون إضعاف دور الدولة الذى يحتل مكانة مركزية فى مشروع النهضة.

الديمقراطية إذًا ليست أمرًا صعب المنال فى الواقع العربى، وإنما هى ممكنة شريطة الابتعاد عن ذهنية تحقير الذات. وفى مصر حقق المشروع الديمقراطى إنجازات لا رجوع عنها.

فهناك برلمان منتخب، وصحافة تتمتع بهامش ملحوظ من الحرية، وهناك حكم القانون والقضاء المستقل، كما يتسع نطاق الحقوق والحريات المدنية والسياسية ليشمل المرأة والرجل معًا. فهل سيأتى التحول الديمقراطى الحقيقى فى مصر «تحت الضغوط»؟

هل يأتى نتيجة «تفاعلات سياسية» من أعلى، أم من القاعدة الجماهيرية؟

دوريـــات

العـــربى

الكويت: وزارة الإعلام، مايو ٢٠٠٥



يدور ملف هذا العدد وهو بعنوان: «فلسطين.. أصوات من خلف الحصار» حول عرض تجربة ثلاث شاعرات من غزة، يحملن جمر الكلمات فى مواجهة العنف الضارى الصهيونى، بالإضافة إلى حوار مع شيخ المؤرخين العرب نقولا زيادة يتحدث فيه عن تاريخ استلاب فلسطين، كما يحتوى الملف أيضًا على عرض لكتاب الناشطة الإسرائيلية إيلة شوحاط التى تمثل صوتًا معتدلاً بين صرخات التعصب اليهودى. ويناقش رئيس التحرير د. سليمان العسكرى فى مقاله قضية يثيرها الملف، من خلال طرحه لإحدى الوسائل التى يطرحها العرب للتعامل -مع قضاياهم ومنها القضية الفلسطينية وهى «الوسطية» ذلك التعبير الذى يظهر فى الأدبيات العربية كمرادف للاعتدال والاتزان، ويتساءل إذا كانت الوسطية تعنى ذلك حقًا؟. يقدم العدد أيضًا رحلة إلى العالم الخفى لتايلاند وقراءة فى تاريخ سيدتين فريدتين من نوعهما وهى السورية جوليا دومنا، والسويسرية إيزابيل إبراهاردت، وغيرها من المواضيع الشيقة.

شئون عربية

القاهرة: الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، العدد ١٢١



يناقش هذا العدد تحديات وتداعيات الانتخابات العراقية والفلسطينية، بانعكاس الأول على علاقات القوى بالمنطقة، والثانية التى أجريت على خلفية غياب الرئيس ياسر عرفات. وبالعدد أيضًا أربع دراسات حول الدور الأوروبى فى المنطقة.

الفنـــون

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، العدد ٥٢



احتفلت الجريدة بالكاتب المسرحى الكبير أرثر ميللر من خلال دراسة مطولة عن حياته وأعماله وأحلامه، وتأثيرات هذه الأعمال على المسرح العربى.

ففى مجال السينما أطلت المجلة على نوع سينمائى غير مطروق وهو السينما الأفريقية السوداء فى بوركينا فاسو والسودان، بالإضافة لإطلالة على عالم «سينما الدهشة والإبهام» التى تهتم بها هوليوود منذ فترة طويلة.

ويلقى العدد الضوء على الفنانة التشكيلية الأردنية الأميرة وجدان على والفنان الكويتى المصور رضا سالم.

أما الصفحة الأخيرة فتتزين بلوحة عادل مقديش وقصيدة على الدمينى.

المستقبل العربى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، العدد ٣١٤



فى هذا العدد مقابلة فكرية بعنوان «فى مسألة المشروع الفكرى لمحمد جابر الأنصارى». ويحتوى هذا العدد على دراسات متنوعة وهى: «حول المرجعية فى التيار القومى العربى» لزياد حافظ، و«المشاركة السياسية عند الإسلاميين الإصلاحيين المغاربة» لرشيد مقتدر، و«المدنية» ضد «البربرية»: مقابلة مع نعوم تشومسكى» أجراها جنيد علام. وفى باب «آراء ومناقشات» يتطرق عصام نعمة إسماعيل إلى موضوع مطروح على الساحة اللبنانية اليوم بمقالة عنوانها «ضوابط الديمقراطية اللبنانية». وفى العدد مراجعة نقدية لكتاب «اقتصاديات الاحتيال البرىء: حقيقة لزماننا» لجون كينيث غالبرايت.

عازفة البيانو

للكاتبة النمساوية إلفريده يلنيك

الحائزة على جائزة نوبل فى الآداب ٢٠٠٤

عازفة البيانو
إلفريده يلنيك
ترجمة: سمير جريس
القاهرة . دار ميريت ٢٠٠٥
تستند هذه الترجمة على الطبعة الألمانية الثامنة والعشرين الصادرة عن دار «روفولت» فى هامبورج عام ٢٠٠٤

Die Klavierspielerin.
Elfriede Jelinek:
Rowohlt Tascenbuch Verlag.
28. Auflage
April 2004. Rowohlt Verlag Gmbh





ولدت إلفريده يلنيك فى العشرين من أكتوبر عام ١٩٤٦ فى مقاطعة شتايرمارك النمساوية. نشأت فى فيينا حيث درست المسرح وتاريخ الفن والموسيقى. من أشهر أعمالها الروائية «عازفة البيانو» (١٩٨٣)، و«لذة» (١٩٨٩) و«طمع» (٢٠٠٠). ومن مسرحياتها: «نورا» (١٩٧٩) و«مسرح بورج» (١٩٨٥) و«مسرحية رياضية» (١٩٩٨).

وقد حصلت يلنيك على عدد من الجوائز الأدبية. من أهمها جائزة جيورج بوشنر عام ١٩٩٨ (وهى أرفع الجوائز الأدبية فى المنطقة الناطقة بالألمانية). ثم توجت أعمالها بجائزة نوبل عام ٢٠٠٤ .

ليست الكاتبة النمساوية إلفريده يلنيك مجهولة فى بلدها بالطبع، وإن كانت أقل شهرة من بيتر هاندكه، أو الراحل توماس برنهارد. أما خارج حدود البلاد الناطقة بالألمانية فشهرتها أقل بكثير من زميليها، وكذلك ترجمات مؤلفاتها، و«عازفة البيانو» هى أول ما ينقل من أعمالها إلى اللغة العربية. ولعل أدب المنطقة الألمانية لم يعرف كاتباً أثار الجدل وتضاريت بشأنه الآراء مثل إلفريده يلنيك، ليس هناك كاتب ألمانى اللغة انهال عليه النقاد فى العقدين الأخيرين طعناً وتجريحاً مثل يلنيك. وليس هناك أديب كرم بهذا العدد الضخم من الجوائز مثلها أيضاً! أكثر من عشرين جائزة حصلت عليها يلنيك، توجت قبل شهور بأهم جائزة أدبية فى العالم. قبلها بأربعة أعوام نالت يلنيك أرفع الأوسمة الأدبية فى المنطقة الألمانية، وهى جائزة جيورج بوشنر، كما حصلت على العديد من الجوائز تكريماً لأعمالها المسرحية. ولابد أن نذكر أيضاً أن أعمال يلنيك المسرحية هى الأكثر تمثيلاً على خشبات المسارح الألمانية فى العقد الأخير. هى عند البعض «عملاقة اللغة الألمانية»، والكاتبة التى حققت فى أعمالها «انسيابية موسيقية للأصوات والأصوات المضادة التى تكشف بعذوبة لغوية فريدة عبثية القوالب الاجتماعية الجاهزة وقوتها المسيطرة»، كما تقول لجنة نوبل فى حيثيات منحها الجائزة، ومن ناحية أخرى فهى الكاتبة التى يواجه أدبها اتهامات بالبرونوغرافية والسطحية والمحلية، هذا عدا اتهامها بكره الوطن وإهانته وتلطيخ سمعته، وهى الاتهامات التى وجهت قبلاً لمواطنها توماس برنهارد (١٩٣١ - ١٩٨٩). وبالفعل تلتقى يلنيك مع توماس برنهارد فى توجيه النقد الحاد إلى النمساويين الذين لم يقوموا حسب رأيها بمحاسبة كافية للذات بعد حقبة النازية، وأراحوا ضمائرهم سريعاً بإلقاء الذنب كله على الألمان. لم تنِ يلنيك تنكأ جرح الماضى النازى الذى شعبها، ولذلك لم يكن غريباً أن تلقى مسرحياتها التى تتعرض لتلك الموضوعات هجوماً عنيفاً فى النمسا، وأن تمثل أولاً على خشبات المسارح الألمانية قبل أن تنتقل إلى فيينا، مثل كتبها التى تطبع وتوزع فى ألمانيا. كانت إلفريده يلنيك هى أيضاً الأعلى صوتاً فى محاربة صعود نجم التيار اليمينى المتطرف فى النمسا بزعامة يورج هايدر، ولهذا فرض مرتين الحظر على تقديم أعمالها على خشبات النمسا، احتجاجاً على انتخاب هايدر وحزبه الذى شن حملة شعواء على الكاتبة، استخدم فيها كل الأسلحة لتكميم فمها.

إلفريده يلنيك هى إذن كاتبة قلقة ومقلقة، مشاغبة وغير مريحة، لن تركن أبداً إلى ما أنجزته لتنعم بثماره، وهى أديبة غزيرة الإنتاج، كتبت عدداً كبيراً من الأعمال الأدبية فى الشعر والرواية والمسرح، بالإضافة إلى الكتابة للإذاعة والسينما والترجمة الأدبية، وهناك قطبان رئيسيان تدور فى فلكهما معظم أعمال يلنيك، وهما قمع المرأة جنسياً فى مجتمع ذكورى، والماضى النازى لبلدها الذى يتناساه مواطنوها. وغلبة هذين الموضوعين على أعمالها جعلها تواجه اتهاماً بأنها تجتر موضوعاتها. على أنه يصعب حصر كاتبة مثل يلنيك فى شعار واحد يجمع قسراً كل أعمالها فى جملة بسيطة يرددها الناس لاحقاً على نحو ببغائى، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء قراءة أعمالها (الصعبة). والمشكلة أن كثيرين يتحدثون عن أعمال يلنيك، بل ويقيمونها، دون أن يكونوا قرأوها بعناية حتى النهاية. هذا ما يتضح بشكل لافت للنظر فى عملها الأشهر «لذة» الصادر عام ١٩٨٩ . فور صدور هذه الرواية أضحت «لذة» هى الشغل الشاغل للصفحات الثقافية فى المنطقة الألمانية. وما لبثت الرواية «المضادة للبورنو» أن احتلت رأس قائمة المبيعات فى غضون أسابيع.

وإذا كانت «لذة» هى أشهر أعمال يلنيك، فهناك شبه إجماع من النقاد الألمان على أن رواية «عازفة البيانو» هى أفضل أعمالها وأنضجها، وإن كانت الرواية لم تحظ بالشهرة على المستوى العالمى إلا بعد أن أخرجها للسينما عام ٢٠٠١ ميشائيل هانيكه فى فيلم مثلت فيه «عازفة البيانو» الممثلة الفرنسية القديرة إيزابيل أوبير. لكن الفيلم - كمعظم الأفلام المأخوذة عن أعمال أدبية - يلتقط جانباً واحداً من الرواية ويهمل ما عداه، لقد سلط الفيلم الضوء على انحراف العازفة جنسياً، وفشلها فى إقامة علاقة حب سوية مع أحد تلاميذها، لكنه أهمل العلاقة المرضية بين الابنة والأم المسيطرة الاستحواذية، وهى فى رأيى الموضوع الأساسى للرواية.

فى «عازفة البيانو» تتجلى كافة سمات أدب يلنيك: الأسلوب الساخر الموسيقى المفعم بالصور، المتلاعب بأكليشيهات اللغة والفاضح لخوانها، أما الموضوع فهو من موضوعاتها الملحاحة: التربية التقليدية القامعة للمرأة، وقمع المرأة - الفنانة التى تحيا للفن وحده - لجسدها وعواطفها، وابتذال الحب وتحويله إلى تجارة مربحة أو إلى قيمة استهلاكية. فى الرواية أشياء عديدة تتلاقى مع سيرة يلنيك الذاتية. لكن الرواية ليست بالطبع سيرة ذاتية. مثل اريكا كوهوت بطلة «عازفة البيانو» كانت إلفريده يلنيك طفلة نموذجية، ربتها أمها المسيطرة على أن تكون الأفضل بين أقرانها. ومثل العازفة اريكا حبست إلفريده منذ نعومة أظافرها فى المعاهد الموسيقية حتى تتقن عزف آلة البيانو: أيضاً والد إلفريده، مثل والد اريكا، انتهى به المصير فى مصحة الأمراض العقلية.

فى «عازفة البيانو» نجحت إلفريده يلنيك فى تناول موضوع أزلى: علاقة الابنة بأمها، ومحاولة الخلاص من سيطرة الأم، ومحاولة الأم الاستحواذ على الابنة. وهى هنا تتحدث عن خبرة شخصية طبعت حياتها: لقد ظلت يلنيك تعيش مع أمها فى فيينا حتى بعد زواج الكاتبة عام ١٩٧٤ من مهندس يقيم فى ميونيخ. ظلت الكاتبة تتنقل بين فيينا وميونيخ طوال عقود، وفى السنوات الأخيرة منعت والدة يلنيك زوج الابنة من دخول شقتها فى فيينا، متهمة إياه بسرقة أشياء نفيسة (وكانت تعنى ولا شك سرقة ابنتها!). وبعد وفاة الأم عام ٢٠٠٠ تنفست الكاتبة أخيراً الصعداء، كما تؤكد فى معظم أحاديثها الصحفية.

تحطم إلفريده يلنيك فى هذه الرواية «أساطير» عديدة، معتمدة أسلوباً ساخراً يصل إلى التهكم فى كثير من الأحيان.. من لا يلتفت إلى السخرية فى هذه الرواية لن يفهمها، ولن يجدها سوى سلسلة من المبالغات. عبر المبالغة تحطم يلنيك أسطورة الأم الحنون الرءوم، وأسطورة الفنان المبدع الملهم، وأساطير كثيرة تدور فى فلك العلاقة بين الجنسين: فالمرأة لدى يلنيك تخوض صراعاً وحشياً مع الرجال، تخرج منه خاسرة دائماً لأنها تلعب دوراً سلبياً مازوشياً، ولأنها ربيت على الخضوع والخنوع والطاعة.

وأخيراً أود الإشارة إلى خصوصية لغة يلنيك واستعصائها على الترجمة فى كثير من الأحيان، لا سيما رواياتها، حتى أن الكاتبة عبرت عن دهشتها لترجمة أعمالها إلى اللغات الأخرى. فاللغة بطل رئيسى فى أعمال يلنيك. هذا ما نلمسه فى بعض المقاطع من «عازفة البيانو» التى تستخدم يلنيك فيها التلاعب اللغوى القائم على المفارقة اللفظية، وتستشهد بعبارات مشهورة أو أمثال شعبية لتسخر من مضمونها.

سمير جريس

Gilea

(جليـــــاد)

Marilynne Robinson

Farrar, Straus and Giroux, 2004, 256PP, 23.00$



الصفح، الحب، الغيرة، الإخلاص، الخوف والكثير من المعانى الأخرى، تعرضت له الكاتبة مريلان روبنسون Marilynne Robinson فى روايتها الأخيرة جلياد، التى حازت على جائزة Pulitzer Prize مؤخرا . أحداث الرواية تدور فى ولاية أيوا الأمريكية خلال الحرب الأهلية فى نهاية الخمسينيات من القرن قبل الماضى، وهى عبارة عن خطاب يكتبه جون أميس ـ الواعظ، ذو الستة وسبعين ربيعا ـ إلى وحيده الذى لم يكمل عامه السابع بعد، كتقييم ذاتى ونظرة ـ محاسبية ـ على حياته، فبعد تدهور حل بصحته، أراد أن يسجل شيئا لابنه فلم يجد سوى أن يسرد حياته ويسجل نفسه من نظرة تأملية .

الكاتبة نجحت فى تحويل هذا الخطاب من مجرد قصة رجل واحد إلى ملحمة عظيمة تتعرض لمملكة التأمل والتفكير والعلاقات بين الآباء والأبناء من خلال حكايات أميس عن أبيه وسرده لإطار علاقتهما ومدى الحب والاحترام المتبادل بينهما، وعدم قدرتهم ـ أحيانا ـ على مد جسور التواصل بين بعض معتقداتهما الراسخة.

الرواية على لسان أبطالها، ومعظمهم من الواعظين، تقدم نظرة أوضح لقضية «الإيمان والشك، وكيف يؤثر «الإيمان والشك» فى حياتنا اليومية، من خلال ملامستها للنعم الإلهية ومعانى الرحمة والإعجاز.

■

No god but God : The Origins, Evolution, and Future of Islam

(لا إلـه إلا الـلـه، أصـول وتـطـور ومستقبل الإسلام)

Reza Aslan

Random House, 2005, 336PP, 25.95$



بعين على الإيمان وعين على التاريخ كتب رضا أصلان ـ أحد مسلمى الجيل الثانى الأمريكيين ـ كتابه «لا إله إلا الله»، الذى تناول التاريخ الإسلامى، كما كرس جزءا كبيرا منه ليتحدث عن منزلة الإسلام ومكانته فى العالم المعاصر.

يأخذنا أصلان فى رحلة مع التاريخ، بدءا بحياة محمد «صلى الله عليه وسلم» ما قبل الرسالة، مرورا ببداية فترة الرسالة وما واجهته من تحديات وصعاب ثم ينتقل إلى حقبة الخلفاء الراشدين الأربعة، ثم يبدأ باستعراض تطور الإسلام وتطور قوانينه، متعرضا لمفهوم الجهاد الحقيقى.

الشيعية والصوفية أيضا حظيتا بفصلين من عشرة فصول احتوى عليها الكتاب، فقد تكلم الكاتب عن نشأتهما وملامحهما وموقعهما الحالى فى العالم الإسلامى .

يتحدث الكاتب فى الفصل الأخير من كتابه عن الإصلاح الدينى، فهو يصف تجربة بناء دولة إسلامية فى المجتمع الإسلامى بعد تحرره من الاستعمار الغربى، مما يؤكد أن الإصلاح يجرى من أجل الحقوق الإنسانية كالتعددية والديمقراطية .

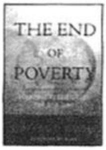
■

The End of Poverty: Economic Possibilities for Our Time

(نهاية الفقر، إمكانيات اقتصادية للوقت الراهن)

Jeffrey Sachs

Penguin Press HC, 2005, 416PP, 27.95$



مؤلف هذا الكتاب جيفرى ساشس الذى اعتبرته نيويورك تايمز أحد أهم رجال الاقتصاد فى العالم وهو مستشار للعديد من المؤسسات العالمية، بينها الأمم المتحدة. ومن خلال خبرة خمسة وعشرين عاما يرسم لنا صورة للاقتصاد العالمى كافة موضحا خطوات الوصول إلى الرخاء الاقتصادى للجميع.

فالكاتب ـ الذى تسنى له زيارة أكثر من مائة دولة يسكنها ٩٠٪ من إجمالى التعداد السكانى العالمى ـ يمضى فى كتابه موفرا مجموعة متكاملة من الحلول الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للدول الفقيرة والنامية لكى ترتقى سلم التنمية، اهتم الكاتب بفكرة رئيسية «عندما تتوفر متطلبات البنية التحتية ـ من طرق ومصادر طاقة وموانئ ـ إلى جانب رأس المال البشرى ـ صحة وتعليما ـ فإن السوق حينها تصبح محركا رئيسيا للتنمية».

الكاتب لا يحمل الدول الفقيرة شيئا من مسئولية أزمة الفقر الراهنة، وإنما يحمل الدول المانحة مسئولية تفشى الفقر فى العالم لتقاعسها عن تقديم المساعدات الحقيقية للدول الفقيرة، كما يحمل المؤسسات أيضا المسئولية، كالبنك الدولى الذى اعتاد وضع وصفات دائما، قلما حققت نتائج إيجابية.

الكتاب علامة بارزة فى سبيل تلمس الطرق التى قد تفضى للخروج من الفقر الذى يقبع به الملايين من المواطنين فى دول العالم الفقير.

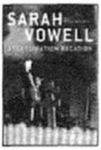
■

Assassination Vacation

(رحلة الاغتيالات)

Sarah Voweil

Simon & Schuster, 2005, 272PP, 21.00$



فى رحلة عجيبة لاعقلانية مع الموت وحوادث الاغتيال، تأخذنا سارة فويل لاستكشاف اغتيال ثلاثة من الرؤساء الأمريكيين (لينكلون، جارفيلد، ماكينلى)، فمن بوفلو إلى الاسكا ومن متحف إلى قبر، تنتقل بنا فويل فى رحلة مثيرة مليئة بالفكاهة والنقد اللاذع وأيضا أمانة وصدق فويل الجديرين بالملاحظة .

ترسم فويل فى كتابها روابط متكررة بين أحداث الماضى وأحداث حالية، مشيرة إلى التشابه بين مبادرة ماكينلى بالحرب ضد كوبا والفلبين وحرب العراق الحالية.

كتاب فويل هو محاولة جديدة ومختلفة للخوض فى التاريخ الأمريكى بطريقة ساخرة .

■

The Big Questions : Philosophy for Everyone

(الأسئلة الكبرى، فلسفة للجميع)

Nils Ch Rauhut

Longman, 2005, 304PP, 19.95$



أخيرا، كتاب يوضح للقارئ كيف إن التفكير اليومى الذى يمارسه الجميع يقود مباشرة إلى مجموعة من الأسئلة والألغاز، حاول الفلاسفة فك خيوطها لقرون من الزمن، يتعرض الكاتب إلى أسئلة متكررة يطرحها الإنسان دائما على نفسه عن أشياء مثل «الإرادة الحرة، الهوية الشخصية، مشاكل التواصل بين العقل والجسم، الأخلاق، والتوحيد»، لذا فهو يقترح على القراء تكوين ورسم «صورة كبيرة» للعالم، موضحا كيفية تحويل أفكارهم الفلسفية إلى براهين صحيحة تجاوب على الأسئلة المطروحة.

من خلال ١٠٠ تمرين مختلف يساعد الكاتب القراء على فهم أفكارهم بوضوح، والانهماك فى مناقشات فلسفية عميقة، كما يشجعهم على التفكير مليا فى معتقداتهم وأفكارهم القديمة، الكاتب جمع الكثير من الأمثلة الحية من الفلسفة الكلاسيكية وصولا إلى أمثلة من الفلسفة الحديثة ليجعل كتابه متماشيا مع المشكلات الفلسفية المعاصرة.

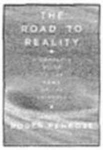
■

The Road to Reality: A Complete Guide to the Laws of the Universe

(الطريق إلى الحقيقة، دليل كامل لقوانين الكون)

Roger Penrose

Knopf, 2005, 1136PP, 40.00$



«لو أن البيرت اينشتاين كان حيا، لحرص على اقتناء هذا الكتاب، وأيضا إسحاق نيوتن» هذا ما قيل عن الكتاب، وهو يستحق هذا ربما لأنه أكثر كتب الرياضيات تفسيرا لقوانين الكون فى العالم، وبالرغم من صعوبة فهم الكتاب نظرا لتعمقه الشديد وتخصصه البالغ، إلا أن أولئك الذين يبحثون يرغبون فى استثمار وقتهم وفكرهم ويبحثون فى مجال فهم القوانين الكونية سيجدونه مثيرا.

الكتاب يأتى فى أكثر من ألف صفحة، بدأها الكاتب بتوضيح أن هدفه من الكتاب ليس إلا البحث عن القواعد الأساسية التى تحكم سلوك الكون، الكتاب أيضا يوضح مدى العلاقة الممتعة بين علم الرياضيات وحياتنا الواقعية.

يبدأ الكاتب بالحديث عن هندسة «فيثاغورس» منتقلا منها إلى الهندسة الإغريقية بشكل عام، ثم يقودنا عبر المبادئ الأساسية التى يقوم عليها علم الرياضيات، ليصل إلى أساسيات حساب التفاضل والتكامل، والنسبية، والفيزياء الكمية.

الكتاب يأتى مدعما بالرسومات البيانية التى تساعد قراءتها على فهم أكثر للمواضيع المتناولة فى الكتاب.

■

South Park Conservatives : The Revolt Against Liberal Media Bias

(محافظو ساوث بارك، التمرد ضد ليبرالية وسائل الإعلام)

Brian C. Anderson

Regnery Publishing, Inc., 2005, 256 24.95$



لأكثر من ثلاثين عاما، سيطر الليبراليون على وسائل الإعلام الأمريكية، ولكن الكاتب والصحفى السياسى «براين أندرسون» يؤكد فى هذا الكتاب، أن هذه الهيمنة فى طريقها للأفول.

فالكاتب - من خلال كتابه - يعبر عن وجهة نظر التيار المحافظ الذى يرى خطورة شديدة فى انحياز وسائل الإعلام للتيار الليبرالى، وهو يتعرض للعديد من مواقف وسائل الإعلام، التى أوضحت تحيزا واضحا، منها موقفها إزاء صراع «بوش - كيرى» الأخير الذى أظهر استهزاء واضحا بالأخلاق الصحفية، وكيف انقلب اتهام الليبراليين الدائم للمحافظين بالتعصب والكراهية، على التيار اليسارى.

أفرد الكاتب أيضا عدة فصول للحديث عن كبرى المؤسسات الإعلامية الأمريكية مثل «فوكس نيوز» و«سى بى إس»، كما خصص فى نهاية كتابه فصلا كاملا عن أصول كتابة التقارير الصحفية التى يرى أن فى عدم صدقها ودقتها عواقب وخيمة، لاسيما على الساحة السياسية.

■

Conspiracy of Fools : A True Story

(مؤامرة الحمقى، قصة حقيقية)

Kurt Eichenwald

Broadway, 2005, 768PP, 26.00$



بدون سابق إنذار، فى الشهور الأخيرة من عام ٢٠٠١ انهارت شركة «انرون» الأمريكية فى فضيحة مدوية، أدت إلى حدوث زلزال فى الأوساط الاقتصادية الأمريكية. مراسل جريدة النيو يورك تايمز «كورت اشينويلد» فى كتابه يتناول الأكاذيب والجرائم والشخصيات ووسائل الخداع التى أدت إلى انهيار «انرون» مؤثرة على الصعيدين السياسى والاقتصادى.

فمن خلال الكتاب يأخذنا الكاتب - بطريقة روائية - إلى ما وراء الأبواب المغلقة فى البيت الأبيض وإلى مكاتب مجلس إدارة الشركة، منتقلا من حدث لآخر، رابطا بين كل المشاهد التى أدت إلى هذه الفضيحة، مستعرضا اندفاع الشركة وانتقالها من صفقة إلى أخرى متجاهلة كل إشارات التحذير الداخلية والخارجية من المحاسبين والمحللين فى عكس واضح لتعجرف وغطرسة وإهمال شنيع - غير مبرر - من قبل إداريى الشركة .

■

AHundred and One Days: Baghdad Journal

(مائة يوم ويوم، يوميات بغدادية)

Asne Seierstad

ترجمه إلى الإنجليزية:

Ingrid Christopher Sen

Basic Books, 2005, 321PP, 22.95$



من يناير حتى ابريل ٢٠٠٣، ولمائة يوم ويوم، عملت الصحفية النرويجية أسنى سيرستاد كمراسلة فى بغداد لصالح شبكات إعلامية مختلفة (اسكندنافية وألمانية، وهولندية). من خلال مقالاتها وتغطيتها التلفزيونية الحية نقلت أحداث حرب العراق قبل وأثناء وبعد الهجوم الذى شنته القوات الأمريكية والبريطانية.

ولكن سيرستاد كانت تبحث عن قصة تختلف عن الغزو العسكرى، فمن لحظة وصولها بغداد كانت تعقد العزم على فهم الأسرار الحديثة لحضارة قديمة، ولاكتشاف كيف يعيش الشعب العراقى حقا.

فى كتابها تقدم لنا حياة يومية تحت التهديد الدائم من الحكومة العراقية ثم من القنابل الأمريكية، منتقلة من حياة الصمت الذى يصم الآذان فى عهد صدام إلى الانفجارات التى دمرت مصادر الطاقة والمياه بسبب القوات الأمريكية والبريطانية، تتعرض الكاتبة لحياة الناس لتستعرض، ماذا يحدث لهم عندما ينفجر سد ما؟، ماذا يقولون عندما أتت لهم فرصة الإفصاح عما بداخلهم؟، وماذا يفتقدون حقا بعد أن تغيرت حياتهم فى عشية وضحاها ؟.

■

True Believer

(المؤمن الحقيقى)

Nicholas Sparks

Warner Books, 2005, 336PP, 24.95$



نيكولاس سباركس، مؤلف دفتر اليوميات (The Notebook) يقدم روايته الجديدة «المؤمن الحقيقى» برسالة تذكيرية بأن الحب يستطيع هزيمة كل شىء.

الرواية تدور أحداثها حول شاب «جيرمى مارش» نيويوركى ناجح، يحاول حل لغز أشباح تظهر حول مقابر احدى قرى ولاية نورث كارولينا. وفى أثناء محاولاته لكشف غموض اللغز، يلتقى جيرمى بليكسى دارنيل، امرأة جرحت من قبل وتخشى الوقوع فى الحب ثانية، شخصيتان مختلفان تماما فى معتقداتهما، ولكن دوما هناك شعور بوجود فرصة لجعل الأمور بينهما تسير على نحو طيب.

ليكسى تؤمن بالاشباح - كشأن العديد من أهل قريتها - مما يزيد مهمة جيرمى صعوبة، فإنكاره لوجود الأشباح سيباعد بينهما.

القصة مشوقة حتى النهاية، وذات أسلوب جيد، وتوظيف ممتاز لشخصياتها، وربما تكون أحد أفضل ما كتب مؤلفها.

■

Leap of Faith : Memoirs of an Unexpected Life

(قفزة إيمان، مذكرات لحياة غير متوقعة)

Queen Noor

Miramax Books, 2005, 496PP, 13.95$



إعادة إصدار لكتاب صدر عام ٢٠٠٣، مذكرات الملكة نور، آخر زوجات ملك الأردن الراحل، الملكة نور الأمريكية المولد والنشأة، ولدت «ليزا حلبى - الاسم الحقيقى للملكة نور» لأسرة أمريكية ثرية من أصل عربى مسيحى، كانت «ليزا» تعمل بالتخطيط العمرانى حتى أجاز لها عمل أبيها - الذى كان يرتبط بعلاقات عمل بالملك - لقاء بالملك حسين فى ١٩٧٦، وبعد عامين أسلمت ليزا وتزوجت من الملك حسين، الذى أسماها الملكة نور.

يأتى كتاب الملكة نور فى قسمين، فهى تتكلم فى القسم الأول من الكتاب عن نشأتها وظروف وملابسات لقائها بالملك ومن ثم الزواج منه، وتحكى عن العقبات التى واجهتها كعروس ساذجة، وحياتها الجديدة، وما قابلته من مواقف عديدة فى بداية احتكاكها بالقصر.

القسم الثانى من الكتاب يتناول مذكرات الملكة عن منطقة الشرق الأوسط وأحداثه السياسية، فهى تتناول دور زوجها - الملك حسين - فى قضية السلام، كما تروى تفاصيل العديد من الاجتماعات التى ضمت الملك حسين والعديد من الزعماء وصانعى القرار فى العالم، ثم تنهى الملكة نور مذكراتها بالحديث عن وفاة الملك حسين عام ١٩٩٩ .

■

And One More Thing Before You Go...

(شىء آخر قبل أن تذهب)

Maria Shriver

Free Press, 2005, 64PP, 13.95$



التخرج من المدرسة الثانوية هو خطوة كبيرة لكل فتاة، فهى تترك طفولتها خلفها لتبدأ مرحلة جديدة من الحياة، كما تتمرد أيضا عن دائرة حماية أمها المفعمة بالحب والإرشاد، ولعل احد أهم الهدايا التى يمكن أن تقدمها الأم لابنتها فى هذه النقطة المحورية هو النصيحة، فى كتابها شىء آخر قبل أن تذهب، ماريا شريفير - مراسلة الأخبار، والسيدة الأولى لولاية كاليفورنيا، والأم لطفلتين - تقدم دليلا مخلصا للفتيات قبل ذهابهن إلى الجامعة.

ماريا بصفتها فتاة جامعة منذ عهد ليس بالبعيد، وأيضا ابنة لأم لا تزال تعيش وفق نصائحها، وأم لابنتين تأمل لهما حياة سعيدة، تخاطب الفتيات عن كيف يصلون إلى الاكتفاء العاطفى، كيف لا يتجاهلون حقائق الحياة، معطية إياهم عشر نصائح بطريقة قصصية خالية من الحدة لتوضح لهم ما هو فعلا المهم فى الحياة.

■

قـــراءة ..

لا ضـــوء فى نهـــاية النفـــق..



■■ لماذا؟.. «لأنه لا ضوء فى نهاية النفق».

هكذا كتب شاب مصرى صغير (١٩ سنة) معلقاً فى أحد منتديات النقاش على الإنترنت على حادثة الأزهر التى فجر فيها طالب الهندسة (١٨ سنة) نفسه فى الشارع المزدحم بالسائحين والباعة المتجولين.

حسن بشندى بطل العملية الذى قذف الانفجار ببعض أشلائه إلى الطابق الثالث، قذف بقفازه ـ ميتاً ـ فى وجوهنا جميعاً. لعل منا من يستفيق.

ينتمى حسن (الطالب الجامعى) إلى الطبقة الاجتماعية ذاتها التى كان ينتمى إليها غيره من طلبة الجامعة قبل أربعين أو حتى ثلاثين عاماً. ولكن أيامها كان التعليم أداةً فعالةً للحراك الاجتماعى. (بعض من أساتذة كليته كان ينتمى يوماً إلى الطبقة الاجتماعية ذاتها) يومها كان الأمل موجوداً فى كل أفق. وكان «الحلم بغد أكثر إشراقاً» كفيلاً بأن يحنو، وأن يربت على الكتف.. وأن يمسح العرق عن الجباه. يومها كان الاعتقاد راسخاً «ومطمئناً» بأن «من جد وجد».. وكان ضوء الأمل يشرق دائماً فى نهاية نفق الصبر مهما كان وعراً.

لم أجد ـ للأسف ـ شيئاً من هذا الاعتقاد ـ المطمئن لصاحبه والحامى للآخرين ـ فى نقاشات شباب هذا الجيل الذى حرصت على محاورته لأيام على الإنترنت بعد الحادثة المؤلمة.

احدهم ذكرنى بما جاء على لسان والدة طالب الهندسة بأنه لم يكن يمتلك غير قميصين (الأهرام ٤/١٣) وبأنه عندما تقدم للحصول على إعانة يتم منحها للطلبة غير القادرين، رفضت إدارة الكلية طلبه لأن اللوائح تنص على عدم منح إعانة لأى طالب سبق له الحصول عليها فى فصل دراسى سابق. وبعضهم سخر من تصريح عميد الكلية «المعين كغيره من قبل الأمن» والذى سارع بغسل يديه معلناً أن «الكلية: إدارةً وأساتذةً وطلبةً يتبرؤون من حسن بشندى..!».. وكفى الله المؤمنين القتال.

على منتديات النقاش الشبابية الإنترنتية تلك، وإلى جانب التأكيد «المتواصل» على الظلم الذى يتعرض له العرب والمسلمون، كان هناك حديث عن البطالة التى صارت «قدراً» بعد أن ضاقت فرص العمل لتصبح حكراً على «الوارثين» أو على أولئك الذين «اشتروا» بأموالهم فرص تعليم متميز. وكان هناك تذكير بعبد الحميد شتا: ذلك الشاب المكافح المتفوق الذى رفضوا تعيينه ملحقاً تجارياً رغم حصوله على المركز الأول بين كل من تقدموا للوظيفة، لا لسبب إلا لأن والده مزارع بسيط. (يومها لم يجد أمامه غير الانتحار) وكان هناك حديث عن «مجانية التعليم» والتى تحولت ككل شؤون حياتنا إلى لافتة وشعار أجوف بعد أن كانت قد فقدت فعلياً معناها ودورها المطلوب فى بناء الأمة والمجتمع. (بعد أيام فقط من حادثة الأزهر صدر قرار بإنشاء تسع جامعات خاصة جديدة). وكان هناك كلام كثير عن الفساد.. والإفساد. وتآكل الطبقة الوسطى.. وشيوع «ثقافة البلطجة» يحترفها المجرمون، ويضطر إليها ـ فى غياب آليات القانون ـ أصحاب الحقوق.. وتمارسها الدولة أو أجهزتها الأمنية كروتين يومى.

باختصار كانت الصورة قاتمة. وهى بحكم الواقع، والشريحة السنية لرواد غرف الدردشة، تلقى بظلالها «القلقة» حتماً على الأيام القادمة.

هل يدرك الآخرون خلف أسوار الـ «Compounds» العالية خطورة ذلك كله؟ وهل يذكر المطمئنون للحلول الأمنية أحداث الأمن المركزى؟ أم تنتهى «قضية حسن بشندى» بتقديم عدد من شركائه للمحاكمة؟!

«لا ضوء فى نهاية النفق»

جرس «الإنذار» الذى يسمعه واضحاً كل من يقترب من هذه «الأغلبية المهمشة» ردده ـ وإن اختلف السياق ـ «تقرير التنمية الإنسانية العربية ـ ٢٠٠٤» الذى صدر عشية حادثة الأزهر. محذراً من «الخراب الآتى» حسب تعبير التقرير الذى يؤكد أن «استمرار الأوضاع الراهنة، من عجز تنموى يلازمه قهر فى الداخل واستباحة من الخارج، يمكن أن تفضى إلى تعميق الصراع المجتمعى فى البلدان العربية، وفى غياب آليات سلمية، ولكن أيضاً فعالة، لمكافحة المظالم التى يتمخض عنها الواقع العربى الراهن، قد يلجأ بعضهم لأشكال من الاحتجاج العنيف تتزايد معه فرص الاقتتال الداخلى. وقد يفضى ذلك إلى تداول قادم للسلطة يتأتى عن العنف المسلح، بما ينطوى عليه من خسارة إنسانية لا تقبل مهما صغرت، ولا تحمد عقباها بالضرورة، خاصة فيما يتصل بطبيعة التنظيم السياسى الذى قد يتولد عنه».



ويتحدث التقرير الذى يتناول الشأن العربى بعامة عما يراه تلازماً عضوياً بين «الفساد ومناخ القمع» موضحاً أن الفساد الاقتصادى نتيجة طبيعية للفساد السياسى. وأن الفساد يأخذ فى بعض البلدان شكل «الفساد البنيوى»؛ حيث يعتبر الاستغلال الشخصى للمنصب والتصرف فى المال العام أمراً طبيعياً فى العرف السائد. ويشير التقرير إلى أنه إذا كانت معالجة الفساد تحتاج إلى إجراءات تشمل، فيما تشمل، إصلاح الأوضاع الاقتصادية وتفعيل القانون وآليات المحاسبة، وضمان الشفافية فى الحكم، فإن الفساد البنيوى لا علاج له إلا بإصلاح جذرى للبنية السياسية.

ويعتبر التقرير الذى ـ لأسباب مفهومة ـ لم يلق الحفاوة اللازمة من وسائل الإعلام العربية، أن الدولة العربية الحديثة تجسد إلى حد كبير التجلى السياسى لظاهرة «الثقب الأسود» الفلكية، حيث تشكل السلطة التنفيذية «ثقباً أسود» يحول المجال الاجتماعى المحيط به إلى ساحة لا يتحرك فيها شىء ولا يفلت من إسارها شىء.

نجد هذه المركزية المتزايدة ـ يضيف التقرير ـ فى الجهاز التنفيذى مضمنة فى النصوص الدستورية للدول المعنية، التى تمنح رأس الدولة صلاحيات واسعة، باعتباره الرئيس الأعلى للجهاز التنفيذى ولمجلس الوزراء، وللقوات المسلحة، وللقضاء والخدمة العامة.

إضافة إلى الصلاحيات المطلقة المركزة فى يد الجهاز التنفيذى، فإن هناك آليات إضافية تتيح للحاكم مزيداً من تركيز السلطات فى يده. وعلى سبيل المثال، فإن ما يسمى بالأحزاب الحاكمة (إن وجدت) ما هى فى الواقع إلا مؤسسات تابعة للجهاز التنفيذى، حيث يتم تعيين المسؤولين الحزبيين (أو المرشحين فى حال الانتخابات) من قبل الرئيس الذى يعتبر فى الوقت نفسه رئيس الحزب. وهذا يعنى عملياً أن البرلمان يصبح جهازاً بيروقراطياً يعينه الجهاز التنفيذى ولا يمثل الشعب بحق.

إضافة إلى ذلك، فإن الجهاز التنفيذى الذى يعطى صلاحيات واسعة ومطلقة لذراعه الأمنية، ويحرص فى الوقت ذاته على أن تبقى المخصصات المالية للقضاء فى يد السلطة التنفيذية، لا يتورع عن أن يستخدم القضاء العادى والاستثنائى لإقصاء وتحجيم الخصوم والمنافسين وحتى بعض الأتباع المتمردين. ويقترن هذا بما يسمى «الفساد المسكوت عنه»، حيث يسمح للأنصار المقربين باستغلال مناصبهم للإثراء غير المشروع، فى حين يظل «تطبيق القانون» عليهم سلاحاً مشهراً لضمان استمرار ولائهم الكامل.

«لا ضوء فى نهاية النفق».. ولا أمل باد فى الأفق. هذا ما رآه حسن بشندى ذو الثمانية عشر ربيعاً، فاختار أن يبحث متفجراً عن ضوئه الخاص، وحلمه الوحيد الذى رآه «ممكناً».

«لا ضوء فى نهاية النفق..»

كم حسن بشندى ينتظرنا إذن فى الأيام القادمة؟

أرجوكم زوروا منتديات الحوار الشبابية على الإنترنت، وراجعوا «تقرير التنمية».. وأوراق القضية! ■

أيمـــن الصيـــاد


أكثر من
٢٠٠٠ مصري
بيخدموك من القلب
موبينيل
شبكة المحمول الأولى في مصر